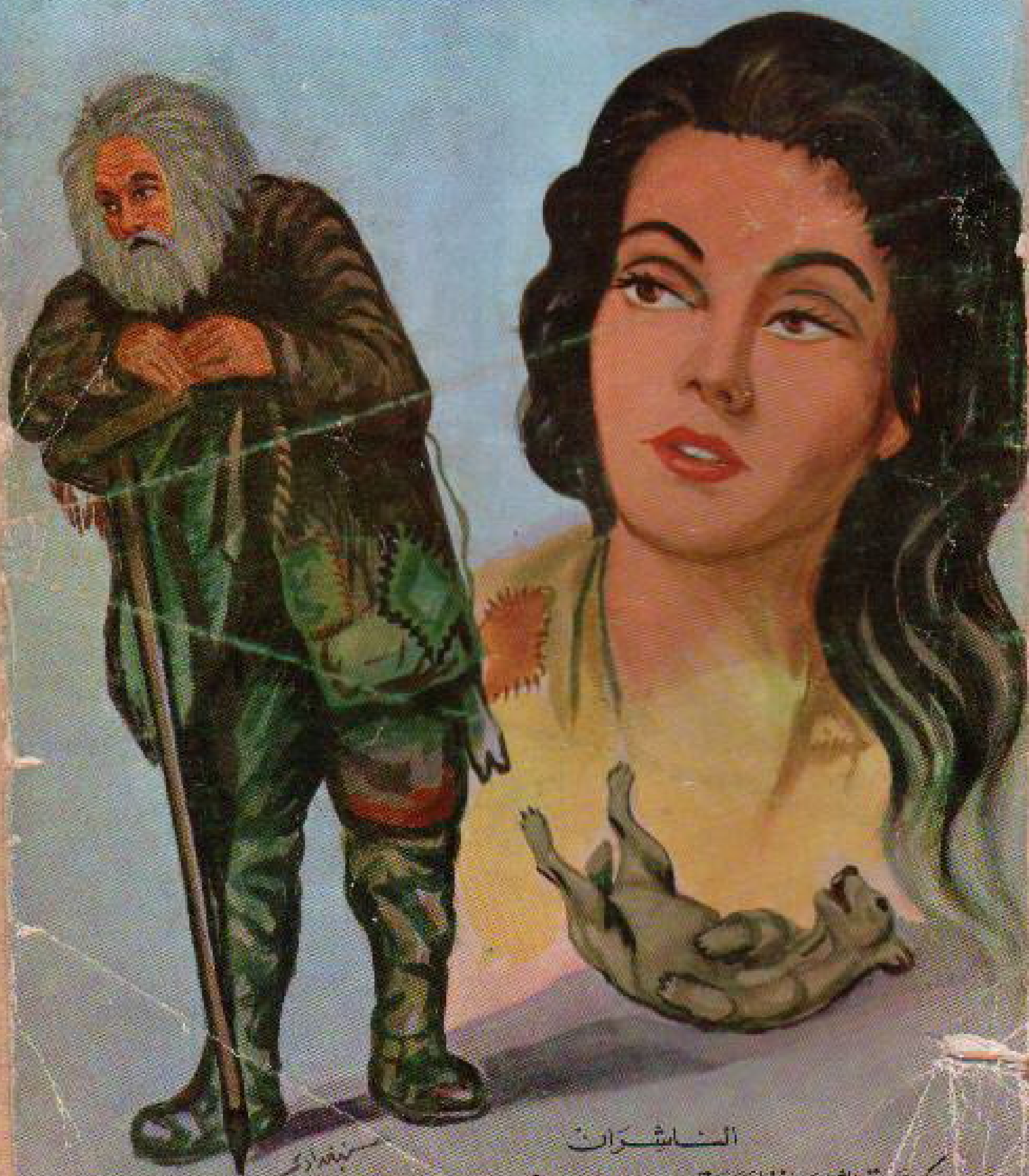
دوستيوفسكي

مذلّون مهانون



الناشران

مكتبة الثقافة العربية

مؤسسة محمد حسين النوري

مذلون مهانون

دوستيوفسكي

مذلون مهانون

ترجمة
ماجد الخليل

الناشران
مكتبة الثقافة العربية
[illegible] - بغداد
مؤسسة محمد حسين النوري
دمشق - ص.ب ٨٢٩٠

الطبعة الأولى
آذار
١٩٦٨

القسم الأول

الفصل الأول

كنت مريضا متعبا ، لا حول لي ولا قوة ، لا ارادة ولا تفكير ، اذ انني سلخت يوما كاملا من الغسق حتى الشفق ابحث عن منزل جديد أسكنه ، لان بيتي القديم كان رطبا زاد على الهم هما وعلى الداء داء وعلى الكسل اهمالا . ولكن يوما انقضى دون أن أصل الى غايتي المنشودة . فعرجت في المساء حين تلاشت خيوط النهار ، على شارع « الصعود » وكان التعب قد اشتدت وطأته علي واخذ مني مأخذه . ولكن اللوحة الجميلة التي رسمتها اضواء الشارع وانوار البيوت الرمادية منها والصفراء أنستني آلامي وتعبي ، وشعرت كأن نفسي تشرق من جديد ، نظرة جديدة ! ومعان جديدة !... ولكن ما فائدة الاضواء بعد غروب الشمس ؟ فالبرد قسا واشتد ، وتكاثف الظلام وتغير منظر الارض ، هنا نور وهناك ظلام ! هنا برد وثمة دفء ! ولقد شعرت بقشعريرة البرد تنتابني فلم يعد بوسعي الا التوجه الى مقهى « مولر » القريبة . ولكن في تلك اللحظة ، استرعى انتباهي رجل عجوز اتخذ من العصاة معينا ومن الكلب حارسا . وما أن رأيته حتى اوجست خيفة وتكهنت بأن شيئا ما سيحدث لي !

كان يتقدم العجوز ويقترب من المقهى بخطوات بطيئة معدودة وهو متكئا على عصاة ، محدودب الظهر « أزعر » الشعر ، طويل

اللحيــة ؛ يبلــغ الثمانيــن مــن عمــره يعتمر قبعة مشوهة ويرتدي سروالا باليــا يرجع عهده الى عشريــن عاما خلت . انه ناحل العود ، كثير الاخاديــد والتجاعيــد ، لتحسب أنه عظم وجلد مــن فرط ضعفه .

كان كلبه يبدو في الثمانــين من عمره ، أجل ، فلعمري لم اشاهــد كلبا كبيرا بهذا الشكل انه اكبر الكلاب سنا في العالم وأخال انه لــم يذق طعم الاكل منــذ عشريــن سنــة خلت لانت كهيكل عظمي ضعيف الجثة بل قل كصاحبه سنا وصحة . أخذت أرقبه مــن بعيــد واتساءل في نفسي : مــن ايــن اتى هذا الرجل ؟ وماذا يدور في خلده ؟ ان قسمات وجهه لا تعبــر عــن شيء البتة ؟ وهذا الكلب المســن من اين حصل عليــه وكيف ؟ ولماذا يصطحبه دائما ؟ كانت هذه الافكار تتراءى في ذهني وانا اجتاز الشارع ، ودخلت المقهى وراء العجوز الذي ما أن دلف حتى جلس على الكرسي بجانب المدفأة . وقد لاحظت أن « مولر » صاحــب المقهى قد أخذ يتزعــزع مــن العجوز ويمل مــن حضوره . اذ أنه « أي العجوز » يجلس ثلاث ساعات في المقهى دون ان يطلب شيــئا أو يقــرأ جريدة . وكان رواد وزبائــن المقهى الشبان منهم على الاخص يتحاشون ويتجنبون الجلوس معه أو قربه ، لانهم يشمئزون منه . اما هو فكأنه خيال لا يلاحظ شيئا مــن ذلك .

وعندما هممت بالجلوس القيت نظرة على العجوز فاذا به جالس امام النافــذة وكلبه ممدد قربه على عادته . كان معظم الرواد مــن الالمــان اصحاب الدكاكيــن والمخابــز والمصابــغ ،ولكــن مالي وهؤلاء الالمان جميعا ؟ ولماذا دخلت المقهى طالما اني لست بحاجة الى ذلك قط ؟ على اني رغم التردد اخذت جريدة « فرنكفورت » وشرعت في قراءتها لا روح عن نفســي ، ولكــن نظري زاغ واطرقت في ثبات عميق .

غفوت على الكرسي ما يقرب النصف ساعة ، ولكنني استيقظت فجأة على رعشة قوية ، وكان ينبغي علي أن اعود الى البيت ولكن مشهد صامت منعني من الخروج مرة ثانية ، اذ ان العجوز كان يجلس الى الطاولة وينظر الى الخارج ، وهو يرقب ناحية معينة ولا يحول نظره عنها ، فاذا بالناحية رجل بدين قصير الماني الجنسية يدعى « آدم ايفنش شوتلس » وهو بائع في « ريفا » وزبون عابر للمقهى • وكان يعرف « موللر » معرفة تامة وهو صديقه الحميم • وقد شده واضطرب « آدم عندما شاهد العجوز يحدق فيه وينظر اليه ، وقد كان كما يقال : « سريع الغضب » ـ اي سريع الاهتياج ـ ويبدو لآدم غريبا ومهينا ان يتفرس به العجوز ويحدق به بهذا البرود وقلة الالحاح • ولكنه كظم غيظه وتغافل عن ذلك • ثم عاد والقى نظرة جانبية من جديد ، ولكن العجوز ما انفك يتفرس به • وهنا ثارت ثائرة « آدم » وانفجر غيظه والتهب وجهه كبرا وصوب نظره الى العجوز واخذ يتفرس بوجهه ويرمي اليه نظرة التحدي والاكبار •

وهنا توقف الرواد عن مشاغلهم ونظروا الى الخصمين بشغف كبير ، والعجوز ما زال محدقا بوجه « آدم » لا يثنيه لحظة ، وكلما اشتد تفرس العجوز اشتد « آدم » غيظا وثورة • كان كل منهم يحاول أن يهلك نظر الآخر ، واصبح العجوز هدف نظرات الناس اجمع ولكنه لا يهتم ولا يبالي فكأنه على القمر وليس على الارض •واخيرا عيل صبر « آدم » •• فقال بلهجة مهددة :

لماذا تنظر الي هكذا ؟• كان « آدم » يتكلم بالالمانية ولكن خصمه كان اشبه بحائط فلم يعره اهتمام ولم يجب عليه•ثم اعاد آدم الكرة ولكن بالروسية :

اجبني ، لماذا تحدق الي هكذا ؟

ولم يحرك العجوز ساكنا ولم تطرف عينه . وحمل هذا التصرف الالماني على الاستياء وقامت في القاعة ضجة وجلبة فحضر « مولر » الى القاعة فاخبروه الحادث فاقترب « مولر » من العجوز وهتف في أذنه : ان آدم يريد الا تنظر اليه هكذا !

فاذا بالعجوز يلتفت الى « مولر » بحركة لا شعورية ويتحرك من مكانه وامارات الخوف والاضطراب ارتسمت على اسارير وجهه وانسحب الى الباب محاولا الخروج ، فاذا بهذا المنظر القاسي يجمد القلب ويثير الشعور واذا بالحضور يتساءلون ويتهامسون . كان من الواضح ان هذا العجوز لا يريد الاساءة الى أحد بل العكس فهو يحب الجميع .

انحنى العجوز على الارض وحمل منديله وهو يرتجف ثم نادى كلبه « آزور » مرة ومثنى ، وثلاث وأخيرا وضع يده على الكلب وهزه ولكن الكلب كان قد مات ولفظ انفاسه الاخيرة بين قدمي سيده ربما من الجوع ؟ أو ربما من الشيخوخة من يدري ؟ ولكن يا لبؤسه لم يعلم ان الكلب قد مات فوضع يده على رأسه الساكن وانحنى على خادمه الامين وصديقه الحميم فايقن انه قضى نحبه . وانزلقت دمعة حزينة على وجنتي العجوز وران الصمت وخيم السكون على الحاضرين ، وظهرت علينا عاطفة التأثر والحزن . وهم العجوز بالانصراف ولكن « مولر » استوقفه وقال :

خذ هذا القدح من الكونياك .

فتناول العجوز القدح بحركة غير ارادية وما ان وصل القدح الى شفتيه اطبقهما دون ان يذوق قطرة واحدة ثم ترك الكأس وخرج

مسرعا ، فوقف الناس جميعا مشدوهين امام هذا المنظر المؤثر القاسي ، اما انا فقد هرعت وراء العجوز وانطلقت خلفه بين الشوارع الضيقة الى ان وجدته جالسا على قارعة الطريق وهو مطرق الرأس ويذرف الدمع صبابة ، فتقدمت منه وقلت له :

لا تحزن على « آزور » ، سأوصلك الى بيتك ولكن قل لي اين تسكن ؟ ولم ينطق العجوز بنت شفة ، فحرت في امري ماذا أفعل ؟ كان الشارع خاليا وفجأة امسك العجوز بيدي وقال بصوت أجش :

اني اختنق ! انني اختنق !

فامسكته وقلت له سأستدعي لك طبيبا ، واراد ان ينهض وتحامل على نفسه ولكنه عاد وسقط فتناولت يده ولكنها عادت وسقطت كأنها لا حياة فيها فنظرت الى وجهه فعرفت انه قد مات ..

وفعلت قصارى جهدي لأهتدي الى بيته واخيرا وجدته . كان مسكن مستقل يشتمل على غرفة واسعة خالية الا من منضدة وفراش وكرسي صغير . فقابلت صاحب المنزل فأخبرني أنه لا يعرف شيئا عن هذا المسكين خلا انه استأجر المنزل مدة اربعة اشهر وكان يدفع ستة « روبلات » أجرته . ولقد تبينت اخيرا ان العجوز المتوفي كان أجنبيا اسمه « جرمي سميث » وهو من الرعايا الروس . ولقد وجدت على المنضدة كتابين : الاول موجز في الجغرافية والثاني انجيل باللغة الروسية وكان العجوز قبل وفاته قد ذكر لي اسم فاسيلي اوستروف والشارع السادس ولكم كنت اتساءل مرارا عن السبب . ولكنني عدت الى التفتيش عن منزل جديد فوفقت الى ايجاده واستأجرته بعشرة « روبلات » وهكذا اصبح بأمكاني العمل والتفكير وكتابة القصص ..

الفصل الثاني

في ذلك الوقت ، كنت أحرر في بعض الصحف واكتب بعض المقالات الصغيرة ، ولقد كنت قد بدأت في كتابة رواية كبيرة . وشأني كجميع الكتاب استجبت لذكرياتي واحلامي ولكتابة في نفس قيمتها فهي التي توقظ تقاليدي القديمة وتقع بردا وسلامة على قلبي .. ولقد تركني اهلي يتيما منذ نعومة أظافري ، فتبناني رجل يدعى « نيقولا سرجتش اخنيف » وهو احد الملاكين كفلني بدافع من الشفقة والرحمة . وقضيت في منزل اخنيف اياما جميلة لم احلم بها ، فكنت و « ناتاشا » ابنة اخنيف نلعب معا وندرس ونأكل ونلهو الى جانب بعضنا حتى أتى اليوم القاسي حين غادرت « ناتاشا » والحقت بمدرسة داخلية . وحين اكملت دراستي في المدرسة غادرتها الى « بطرسبرج لادخل الجامعة ، وكم كان قلبي معلقا ومغروما « بناتاشا » فكنت اتذكر دائما واعيش ايامنا الماضية معا ، لقد تفرقنا وما أصعب الفراق وتمنينا اللقاء وما اعقد الالتقاء .

كان نيقولا يتحدر من عائلة نبيلة انقرضت منذ زمن طويل ، ولكنه ورث عن والديه ارضا واسعة . الى جانب ذلك كان فارسا ومقامرا في نفس الوقت وقد اتفق أن خسر كل ما يملك في يوم اسود شقي ولم يبق لديه الا احصانه فراهن عليه فعاد واسترد ما خسره من قبل . وبعد مدة احيل الى المعاش وانصرف الى ادارة املاكه نفسه

بنفسه وبهمة ونشاط . وفي العقد الثالث تزوج من فتاة نبيلة تدعى « آندريفنا خوميلوف » وانتقل وأباها الى قرية « فاسيليفسكوئي » . كانت هذه القرية تنتمي الى الامير « الكسندروفتش فاسيليفسكي » وهو شاب في عنفوان شبابه ، أرمل ، وهو لعلى جانب كبير من الغنى والثروة ، وكان على صلات بالمقامات والمجتمعات العالية الراقية وصفوة القول ، أن هذا الامير كان من ألمع الشخصيات في « بطرسبرج » ومن اشهر الشباب .

وكان « اخمنيف » بعث الى الامير بصلة بعيدة وقد استقبله الامير بحفاوة بالغة وترحاب كثير ، وكان من « المرجم » عن « أخمنيف » أنه ملاك كبير ومدير ممتاز ، مما حمل الامير على التردد كثيرا الى منزل « أخمنيف » والتقرب منه الا أن عرض عليه أخيرا مهمة الدفاع عن املاكه وادارتها . فقبل « اخمنيف » ذلك تحت ضغط زوجته وانتقل نهائيا الى « فاسيلفسكوئي » ليستقر فيها بعد أن ارسل اليه الامير وكالة تخوله شراء قطعة من الارض .

وكان الامير قد تزوج من امرأة غنية ولكنها دمية غير متعلمة وقد تزوجها لا رغبة بالزواج بل رغبة منه في الاعتماد على ما لها في تسديد ديونه المتراكمة عليه . وبعد سنة من زواجهما توفيت زوجة الامير بعد أن انجبت له غلاما اسماها « الكسي بتروفتش » الملقب « باليوشا » .

وبالرغم من أن الامير كان يحب ولده كثيرا فقد ابعده عنه وارسله الى « بطرسبرج » ليتعلم . ولكن الغلام الذي يبلغ الثامنة عشرة من عمره بدلا من الدرس والعلم كان يعيش حياة ملؤها الطيش واللهو . وكان الامير قد ترك « لاخمنيف » حرية التصرف في شؤونه واملاكه ، ولم تقع أية خلافات او خصومات بينهما الا بعض

الجدل الكتابي أي في الرسائل التي كانا يتداولونها .

وفي آخر رسالة بعثها الامير « لأخمنيف » طلب فيها الامير منه أن يستقبل ولده ويتبناه شرط أن يدفع الامير لأخمنيف كلفة العيش كل شهر . فاحتار « أخمنيف » ولم يعد بامكانه اجادة التصرف ولكنه أخيرا قبل بالامر الواقع واستقبله « أليوشا » ابن الأمير .

وفي بيت « أخمنيف » نشأت علاقات شديدة بين « أليوشا » و « ناتاشا » ابنة « أخمنيف » والحق أن « ناتاشا » فتنت « اليوشا » وسحرته ، ولم يعد بوسعه أن يتركها . وقد بادلته « ناتاشا » بالمثل واخذا يخرجان معا حتى تواعدا على الزواج دون علم اهلهما .

وهنا جن جنون « أخمنيف » وكان يطير من الغضب وخاصة بعد أن سمع من الناس كلاما واخذوا يرجمون عنه الاحاديث الكاذبة والكلام المغلوط ، فغادر على الفور « فاسيلفسكوئي » تاركا كل شيء .

ولم يقف الواشون والواشات عند هذا الحد ، بل أخذوا ينقلون الى الامير الاخبار الكاذبة ويوشون بأخمنيف حتى أن بعضهم أخبر الملك أن اخمنيف قد باع غابة بعشرة آلاف روبل دون أخذ علم الملك وبدون اذن مسبق او وكالة . وغضب الملك وانتزع منه الاملاك وطرده من اراضيه وتفاقم الخصام حتى أن الملك قد وجه الشتم الى « اخمنيف » فرد عليه أخمنيف بالمثل ثم عمد الامير الى اكثر من ذلك ، الى انتزاع ارض « أ خمنيف » وبعد أن علم انه قد ظلم هذا الرجل ولكن الشتائم وقفت رادعا ولم يعد للصلح مكان وأخيرا انتهى كل شيء وغادر اخمنيف نهائيا فاسيلفسكوئي بعد أن تحسر على الايام التي قضاها هناك .

الفصل الثالث

في الحقيقة ، أن « أخنيف » وزوجته كانا على علم من حب « ناتاشا » « لأليوشا » ولكنهما غضا النظر على امل أن تسوى الأمور، غير أن كلام الناس جعلهما يتأثروا بذلك ويحزنهما . وبعد أن وصلت عائلة « أخنيف » الى « بطرسبرج » ، كنت قد فرغت من كتابة روايتي الاولى . وكنت لأحسب أن كل شيء لم يتغير قط غير انني بزيارتي لعائلة أخنيف لمست عكس ذلك . فقد كان العجوز « أخنيف » قد تغير كليا وها هو في البيت غاضب يعمل المستحيل من اجل أراضيه ، وها هي مدام « آندريفنا » تبكي حظها وتندب جد ابنتها « ناتاشا » التي اصبحت في سن الزواج ولم يتقدم أحد يطلبها ، اما « ناتاشا » التي كانت تتراءى لي انها لم تتم ، ولم تتغير وخلت أنها لا تزال صغيرة ولكني وجدت العكس في « بطرسبرج » فقد اكتشفت في « ناتاشا » صفات جديدة ومزايا حديثة لم تكن على بال احد .

وقد كنت في حيرة من أمري ، لا اعرف أين اصرف روايتي ولمن أحدث عنها ؟ والى من أرويها ؟ حتى أني لم اكن قد تحدثت عنها لعائلة أخنيف . ولكن كيف اقصها وهم الذين أنبوني على حياتي

هذه ؟! لا عمل ولا شغل لا مهنة ولا خدومة ، حتى .. « أخمنيف » كان يوجه الي النقد اللاذع وكان ذلك بدافع من الحب والحنان اللذين يحملهما لي وبدافع ما يحمل لي في نفسه من ود . كيف سأواجه العائلة عندما اصارحها بأني لا احب العمل بل أرغب في كتابة الروايات ؟ هذا ما حملني على الكذب وايهام العائلة باني لم اجد عملا ولم احصل على وظيفة . وقد وصل « بناناشا » أن جرتني الى ركن منعزل وأخذت تبكي وتنوح وتمنى على أن استفيد من وقتي والعمل به . ولكن حصل ما كنت أتوقعه بالنسبة لي ، والذي لم يكن بالحسبان بالنسبة للغير ، هو أن لاقى كتابي نجاحا باهرا وأحدث ضجة في عالم الادب . فكاد يغمى علي من فرط سرور وعشت دقائق معدودة كانت من اجمل اللحظات في حياتي وأنني اتمنى لو كنت معي أيها القارىء لترى الفرحة والسرور التي لم يكن بمقدرتي أن أصنعها لك ... فرحة عائلة « أخمنيف » التي بدا لها غريبا والى ابعد حدود الغرابة ان الكتاب الذي ينتقل بين يدي الجميع هو من تأليفي وتركيبي ...

غير أن العجوز ظل قلقا حتى أن قلقه قد اشتد واخذ يأسف على تضيعي حياة الوظيفة ويتحدث عن الحياة المضطربة والمستهترة التي يعيشها الكاتب . تغير عندما علم أني اصبحت على حين غرة املك مالا ، سر لسروري وفرح لفرحي وزال تردده واخذ يعد لي المشاريع ويصور لي مستقبلى وما كان اكثر مشاريعه ! ولكن القلق كان يعاوده من وقت الى آخر وتصيب القلب من احلامه وآماله ، ويشيع فيه الشك من جديد « كاتب ، شاعر ، شيء مضحك .. متى استطاع شاعر أن يشق طريقه وان يحتل منزلة سامية ؟ كل هؤلاء الناس مغرورون غاوون لا يصلحون لشيء » .

ولقد لاحظت هذه الشكوك التي لا تغيب عن ذهنه الا عنـــد المســاء •

وكنت اقص للعجوز بعض القصص المسليـة والمضحكة فكان يأنس لها وينصت لسماعها بشغف •

وقد اتفق أن طلبت منـه السمــاع لروايتي فاجابني بلهجة مـن يرعانـــي :

نعم ! نعم !•• لنرى جمال الرواية وعبقرية الكاتب !! أقرأ لنا ما كتبته هاهـنا ! •

شرعت بالقراءة ، الآذان صاغيـة والعقول يقظة وكل منهم يحول ذهنـه شطري خوفا مـن الشرود •

في اول الامر ، كان العجوز يقطب حاجبيه لانه كان ينتظـر أن يكون بطل القصة رجلا عظيمـا او رجلا تاريخيـا على غرار روسلافيلف وغيره • وها هو يرى بطل قصتي موظف صغير هين الشأن ، بل غبـي بعض الشيء لم يبق على سترته مـن أزرار ارويها باسلوب بسيـط هيـن• واذا نظرت الى « ناتاشا » لتراها منسجمة مع القصة وتعيـش دقائقها وتتعمق في فهمها •

والآن هل تصدقون ؟ انني عندما انهيت من قراءة نصف الروايةقلبت الطرف بيـن أرجاء الغرفـة فهنـا « ناتاشا » تذرف الدمع وهنا « آنا اندريفنا » تبكي بكاء صادقا وتشارك بطلي آلامه وأحزانه • اما العجوز لم يستطـع أن يخفي رأيه ولم يقدر على كبح جماح نفسه فقال بحماسة :

يا لها من قصة جميلة لم أكن اتوقع ذلك .. صحيح أنها لا تتناول موضوعا رفيعا انما هي قريبة الى الانسانية العاقلة ولكن القصة تعوزها الرفعة بالاسلوب . على كل حال فالرواية قد طبعت ، ويجب ان تكتب غيرها ولا تتهاون في الكتابة ويجب على المرء الا ينام عن العمل .

وكانت « ناتاشا » تحضر لنا العشاء فهفت تقول :

هلا تفضلتم بالنهوض الى العشاء !؟

وربت العجوز على كتفي ونهضنا ونحن في نشوة الفرح والسرور . عهد جميل لا أنساه ! وقت لذيذ لا يغيب عن مخيلتي ! لحظات كنت أقضيها في منزلهم وقت فراغي . وتطورت المعرفة بيني وبين « ناتاشا » حتى احببنا بعضنا ولكن « آ ندريفنا » كانت لنا بالمرصاد اذ أنها كانت تراقبنا عن كثب وبحذر تام . غير أنها لم تفاجئنا ابدا . وقد احتطت للامر الا ان « اندريفنا » اخبرت زوجها بالامر : فعمد العجوز بدوره الى اعطائي رأيه بقوله :

اني اعلم كل شيء يا بني ، وانني لمسرور جدا ويشرفني ويسعدني أن تكونا انت « وناتاشا » . انما هناك امر يجب أن الفت نظرك اليه ، ألا وهو انكما لا تزالان صغيران وانت عاطل عن العمل . فلا بأس أن تنتظر سنة أخرى كي تسوي امورك .. فاذا صارت الامور على ما يرام ورسخت قدماك في طريق الخير كانت « ناتاشا » لك ، وان لم توفق فانني اترك الامر لك ..

واليك ايها القارىء ماذا حدث بعد سنة :

أجل كان ذلك بعد سنة كاملة دخلت على العجوزين منهوك القوى ، مرهق الروح لا ألوي على شيء ، وتهالكت على الكرسي من شدة التعب .

ولو احسست احساسي وشعرت شعوري فلا تلومني ايها القارئ ، فقد اقتربت عشر مرات من الباب وارتديت عنه عشر مرات ، ذلك لانه لم اوفق في مهمتي ، وكان يروعني أن اشاهد « ناتاشا » للمرة الاخيرة ، وكان هناك « لا نهايه » بيننا . كنت جالسا انتظر ناتاشا أن تدخل ، انظر الي ايها القارئ اني نحلت وهزلت واصبحت شاحبا ، اللهم مغفرتك وعونك ! والعجوزان ينظران الي نظرة ملؤها الشفقة وسعتها الحب والحنان . وفي الركن جلس « أخمنيف » طالقا العنان لافكاره، وسارحا في تأملاته ، ولقد علمت أن قضيتهم مع الامير لم تسر وفق ارادتهم .

وفي الايام الاخيرة ، كان ابن الملك يتردد على منزل « أخمنيف» بغفلة عن ابيه ، لانه اعتاد عليهم وألف جوهم وعاداتهم . وكان العجوزان يحبانه كثيرا ، حتى أن العجوز أخفى عن الامير أمر حضور ولده اليه . غير انه لم يتحمل الاقاويل والاحاديث فلم يعد بوسعه الا أن يحيط الامير علما . عندئذ منع ولده من زيارة « أخمنيف » وارسل الى « نيقولا اخمنيف » رسالة يذمه ويقدحه فيها ، فحزن « أخمنيف »حزنا شديدا واصابه المرض وألم به الداء ، فأخذ يدعو السماء لانقاذه من الكذب والرياء وكنت على علم بالقصة ، ولكن ما حيلتي انني مرهق الاعصاب لا افارق سريري واكظم ألمي ، ولكن علي أن أزورهم واواسيهم في عذابهم ، ازورهم لاظهر لهم مدى أمانتي وصدقي .

ولكني كنت خائفا ، كنت اتمنى بكل قواي أن ابعد الدقيقة الحاسمة ومع ذلك فانني ما جئت اليوم الا لهذا الغرض ـ كنت مدفوعا ، اليوم دفعا لا حيلة لي في رده . وبعد ان استرد العجوز وعيه قال :

اجل ! الم تكن مريضا ؟ لماذا لم تزورنا خلال هذه المدة الطويلة ؟ ولكن اعذرني اني مقصر في حقك ، كان علي ان ازورك ولكن كان يحول بيني وبين ذلك امر طاريء .

وعاد العجوز وسألني فاجبته :

كنت مريضا

فقال :

ألم احذرك مرارا يا بني ولم تصغي الي ، لقد عاشت ألهة الفن « قصر متداع وستظل كذلك الى الابد .. نعم .

لو لم يكن العجوز مجروح القلب لما حدثني عن الهة الفن الجائعة ، فنظرت اليه فاذا به شاحب الوجه ، وفي عينيه قلق وحيرة ، وكان على خلاف عادته عنيفا قارصا . اما امرأته فقد كانت تنظر اليه بقلق وتهز رأسها بين الفينة والفينة ، حتى اذا حركت رأسها سألتها :

كيف حال « ناتاشا » ؟ أهي في البيت ؟

فاجابت على الفور وقد أربكها سؤالي :

نعم .. نعم يا عزيزي . ستحضر على جناح السرعة ولكن مالك ثلاثة اسابيع لم نراك فيها ؟ لماذا . يا لها من مسكينة هذه البنت فقد

يخالها المرء أنها مريضة اللهم احميها .

ونظرت الى زوجها فاجابها وهو يغص في كلامه :

ــ ماذا تقوليــن ؟ ان البنت تكبر ولم تعد صغيرة ! وهذا كل ما في الامــر .

وسكت العجوز وهو ينقر المنضدة باصابعه :

سألت نفسي وأنا اوجس شرا مستطيرا : رباه ! ايكون قد وقــع شيء بينهمـــا ؟ » .

ولكــن دخول « ناتاشا » قطع حبل تفكيري ، واقتربت مني ومدت يدها الي وهي صامتة . لم اكــن قد رأيتها منــذ ثلاثة اسابيــع ، ولكن هل هي « ناتاشا » ام لا ؟ انها تبدو فاتنــة واجمل مــن السابق ، يا لــه مــن جمــال فتان أهذه «ناتاشا » بعينها ؟ أجل .. اصبحت جميلــة وفاتنة ولكنــها أضحت تعيسة حزينة ، ولم اشاهد على ثغرها إبتسامتهــا المعهــودة فهي دوما صامتة ودائما ساكنة وابدا سارحة .

وقرع الجرس يدعــو الى الصلاة ، ولكــن لمــن تدق الاجــراس ولمــن تقرع ؟! انها تقرع لهم لهؤلاء الطيبيــن .

وهنا التفت « اندريغنا » . لابنتها :

ــ هو ذا الجرس قد قرع وكنت تنويــن الذهاب الى الصلاة فماذا تنظريــن ؟ ولا تنس أن تقومي بنزهة لكي ترفهي عــن نفسك الحزينــة ووجهــك الشاحب .

أجابتها ناتاشا ببطء :

ـ قد يجز ألا أذهب .. اليـوم .

ثم استطـردت

ـ أحس وكأني مريضة لا استطيع الخروج .

ـ لا يا « نناتاشا » مـن الافضل أن تذهبي الى الصــلاة وأن تبتهلـي لربـك عساه أن يرد لك صحتك ؟!

اذهبي الى الصلاة وسيكون لك نزهة صغيرة يصطحبك فيهـــا فاليـا (أي انا)...

ولكـن « ناتاشا » بحركة لاشعورية تناولت قبعتها وقالت بلهـجة جـادة :

ـ وداعـــا ...

ولكـن الام اجابتها على الفور الى أيـن ستذهبيـن حتى تقولـي وداعا ، فتشجعي يا « ناتاشا » وكوني صبورة ، « فـان الله مـــع الصابريـن » .

واليـك بهذا الحجاب فاحمليـه ليرضى الله عنك ويحميــك ، تقدمت « ناتاشا » مـن والدتها ولبست الحجاب ثم قبلت يديها وصلبت وهي ترتجف وخرجت لتوها ، ولكنها عادت فجأة وتهالكت على قدمــي والدها وهي تقول بصوت مختنــق :

ـ صلب انت يا أبت كذلـك .

ووقفنا جميعا مشدودهين امام هذا المنظر المؤثر ولكن

ووقفنا جميعا مشدوهين امام هذا المنظر المؤثر ولكن

العجوز قال :

ـ مالي اراك حزينة يائسة ؟ مالي اسمع دائما بكائك ، لماذا تذري الدمع ليل نهار ؟ أخبريني يا « ناتاشا » سأفديك بكل روحي وبكل قوتي ..

ولم يكمل كلامه بل نهض نهضة الأب الحنون وضمها الى صدره فاخفت رأسها في كتفه وهي تقول :

ـ لا شيء يا أبت .. لا شيء يا فلذة قلبي ويا مهجة فؤادي كل ما هنالك انني اشعر باعياء .

قال الأب :

ـ عافاك الله يا بنيتي واسأله عز وجل طمأنينة الروح وكمال العافية يا غاليتي ويا جوهرتي .

ثم اضافت أمها :

ـ وانا كذلك اسأل الله لك الرضى والصحة والعافية .

وهنا دمدمت « ناتاشا » تقول :

ـ وداعا ... وداعا ... وداعا ..

وتوقفت قرب الباب لحظة ، وترقرق الدمع على عينها ، وانهمر الدمع الطاهر على وجنتيها وألقت نظرة أخيرة على ابويها وهمت بأن تقول شيئا ولكنها خرجت مسرعة فلحقت بها وهرعت في أثرها وانا أوجس شرا ..

الفصل الرابع

كانت تسير مسرعة ، صامتة ، خافضة الرأس مطرقة الهامة ، وحين دخلت اخر الشارع توقفت فجأة وامسكت بيدي وقالت بصوت منخفض :

ــ اني أكاد اختنق ، اكاد أموت !

فصرخت بها :

ــ عودي يا ناتاشا ، أرجعي الى أهلك !!.

فنظرت الي نظرة حزن لا يوصف وهي تقول :

ــ اما تراني قد تركتهم الى غير رجعة ؟

شعرت كأن قلبي قد تحطم ووقع كلامها في نفسي موقع الصاعقة ، وأطرقت رأسي وأنا اتخيل نفسي كيف كنت طائش اللب ، سريع الميول والعاطفة . وسرنا كلانا على الطريق الى أن قالت أخيرا :

ــ لا أدري ... انك تعدني مجرمة يا فانيا ! ولكن هذا ما وقع بالفعل وتركتهم هائمة لا اعرف ما ينتظرني ولا اعلم ما سيحل بهم وما ينتظرهم من مصير .

ــ ولكن هذا غير ممكن ! هذا مستحيل ! ستقتليهم يا

ـ اعرف ذلك ، ولكني اصبحت لا املك شيئا مـن أمري .

ـ عودي يا « ناتاشا » اتوسـل اليك ، ارجـوك عودي يـا « ناتاشا » ولكـن الكلام لا يجدي والتوسل لا ينفع والكلام العاطفي ذهب ادراج الرياح، وانه عبث لا طائل تحته ... هل تعلم ايها القارىء الى اين ذاهبـة ؟... الى منـزل الاميـر الذي اغتصب ارض والدها .. والذي طرده مـن ارضه ووجه له الشتائم والنقد اللاذع . ذهبت لتقابل حبيها « اليوشا » الذي عبدته واحبته عندما سكـن عندهم فـي الـريـف .

ولكـن لم اقطع الامل ولم أفقد الرجاء بل اعدت الكرة وقلـت لهـا :

ـ انك تعلميـن يا « ناتاشا » أن بيـن الاميـر ووالدك دعوى ، وتعرفي أن الامير قد ظلم أباك وطرده مـن ارضه ، واتهمه بانه ووالدتك حاولا أن يربطا بينك وبيـن اليوشا ، فماذا تنتظري مـن والـدك ؟ ستكوني السبب في مقتله ـ عودي الى رشدك ارجعي الى وعيـك ، أأنت واثقة مـن أنه سيغفر لـك ؟! أأنت على يقين من انه سيسامحك ؟! اتوسل اليك ان تعودي ، وخذي العهد الاكيـد علي بأني سأتوسط بينكمـا واكون الرسول ، انقل اليكم رسائلكم ، وساتولى تدبير مكان اللقاءات وموعدها .

وهنـا تأثرت « ناتاشا » وقالت لي :

ـ حسبك يا فانيـا ! انصت يا فانيـا النبيل . أنك حقا لشهم

وكبير القلب ، لقد هجرتك واخللت بحبي لك وها انت تغفر لي وتسامحني اني احبك الان أكثر من اي وقت مضى ، لا لجمال وجهك ولا لحسن بنانك بل لجمال نفسك وصفاء قلبك . وهل تذكر يوم كنت ارتقبت مجيئك ، ويوم كنت أعد الدقائق لحضورك ؟ ولكن يا للتعاسة ويا له من وقت بائس نعيشه .

ثم تابعت والدمع قد اغرق عينيها :

ـ الحقيقة هي اني طلبت من « اليوشا » أن نهرب معا لنتزوج

خفية ، والذي احزنني وحملني على ذلك هو أن الامير قد وجد لابنه فتاة غنية وعلى جانب وافر من الجمال وكما أخبرني « اليوشا » انه افتتن بها واغرم فيها والاهم من ذلك ، ان الامير انما يعمل ذلك لكي يتسنى له الوقت حتى يتزوج بدوره ، وهو يحاول ان يفرقنا ويبطل حبنا .

فجزعت قائلا :

ـ وهل الامير على علم بحبكما ؟

ـ أجل يا فانيا . لا تندهش ... « فاليوشا » قد اعلمه بكل شيء في المدة الاخيرة .

ـ ولكن كيف يخبره في هذا الظرف العصيب ؟!

ـ لا تظلمه يا فانيا ، لا تحكم عليه ، انه نبيل الاخلاق طيب القلب انما لا يحسن التصرف ولا يعرف ما يفعل .

ـ ولكن هل تتزوجين طفلا ؟!

ـ اجل يا فانيــا فانا احبه ولا اطلب منه شيئا ، الا أن يجلس أمامي أمتع النظـر فيـه وانعش قلبــي بمشاهدته ،

ـ ولكــن كيف يوكل اليــك هذه المهمــة لو لم يكــن لك شيئا

ـ ماذا تقصــد ؟..

ـ اقصد ، انه ربمــا لــن يحضر ويصطحبك ؟

ـ لا تقل ذلك يا فانيــا ـ لا تلظمني ، أني احبه أني اعبده فويــل لي ان هو ينساني ! وبئس لحياتي اذا لم يتذكرني ! ماذا ترى اني فاعلة ؟ سأموت مــن غيــر شك ... اما الموت وهذا ما اتمنــاه الان ؟ واما الحيــاة ؟ وهذا ما لا اطيقه بدونه واعلم « يافانيــا » انه ليس باستطاعتي ان انساه ، وليــس بوسعي ان اتراجع عــن رأيي ، واعرف اني اضيــع نفســي واضيــع معي الاخريــن .

قالت ذلك وهي ترتجف مــن أخمص قدميها الى قمة رأسهــا وقد امتقع لونها كأنمــا اصابها ألم .

ثم تابعت قائلـــة :

ـ لقد وعدني بالحضور وبالمجيء الى هنــا ليأخذنــي .

ـ ولكنــه لم يجيء بعــد ؟

ونظــرت « ناتاشا » الى بعيــد في لهفــة ولكنها لم ترَ احـــدا ، فاصفر وجهها وأحمرت خدودها وصعقت مــن هول الغربة :

ـ آه لم يأت ولــن يأتي ... انه معها الان مع الفتاة ... ولكنــه

أنذرني بعدم المجيء اذا لم احضر وقد اعذر من أنذر ...

واغرورقت عيناها بالدمع ووقفت جفونها وذبلت عيونها ولكنها عادت وابتسمت عيناها وانفتحت شفتاها وصرخت :

ــ ها هو ! ها هو ...!

وتركت يدي وهرعت اليه مسرعة وحث هو خطاه وتعانقا ثم التقيا بعد مدة وجيزة بالنسبة لغيرهما وبعد فترة طويلة بالنسبة لهما ... ولمحني اليوشا من بعيد فلم يلبث أن اتجه نحوي .

تفحصته بنظرة حادة رغم انني قد رأيته كثيرا قبل ذلك ، وحدقت في عينيه ، فتبددت جميع شكوكي ازاء حب « ناتاشا » « لاليوشا » وايقنت ان هذا الشاب قد سحر « ناتاشا » بجماله واستطاع ان يبعث في قلبها الحب المجنون الذي ينسيها واجبها المقدس والاول ازاء والديها بنعومته ورقته .

كنت أحس ان نفسي تنفر منه ، وشعرت ايضا اني مخطىء في حكمي عليه ربما لانه غريمي ... ولعلني الوحيد بين الناس الذي لا يحبه .. كنت انفر منه وخاصة من ملبسه الانيق ... فانا لا انفر من اناقته بل من الاسراف في الاناقة ... كان جميل الوجه حسن الطالع أشقر الشعر ، ازرق العينان ، حسن النية والمظهر ، رقيق الابتسامة كامل المحيا .. فهو ان ابتسم تسحرك ابتسامته ، وان ضحك تعجبك ضحكته فلا تلبث مهما كانت حالتك النفسية أن ترد عليه بمثلها .. غير أنه كان خفيفا مغرورا ، ساذجا الى ابعد حدود السذاجة ، لا يقر على قرار وليس لديه ارادة البتة . يثق بالناس ويرتكب عملا سيئا اذا ما سيق اليه سوقا ...

كانت « ناتاشا » تحبه كثيرا وكذلك هو اذ انه يشاركها في ودها وحبهـا لبعضهم البعض ••• وفي هذه اللحظة نسيت اهلها والوساوس •• وكانـت سعيـدة •

وهتفـت تقـول :

ـ اعتقـدت يا « اليوشا » انك لـن تأتي

قالت ذلك وهي تنظـر اليـه في حب لا نهاية له •

فابتسم « اليوشا » وقبل يدها ثم وجه الحديث الي قائلا :

ـ حتى الان لـم نكد نتعارف ، ولطالما وددت ان اقبلك كـأخ

فقد حدثتني عنـك « ناتاشا » •

ثم اضاف وقد احمـر وجهه وابتسم ثغـره :

ـ سنكون صديقيـن حميميـن و ••• سامحني •

وهنـا اكدت « ناتاشا » على وجوب صداقتنا ووجهت كلامها لي :

ـ ستعود الان اليهم الى البيت ، وانك لشخص نبيـل ، واذا لـم يغفروا لي فلعلهم يلينون بعض الشيء وخاصة بعدما يعلموا انك سامحتني دافع عني ••• اشرح لهم دوافعي وقضيتي ••• انقذني ••• انـك لحمـامة سلام ، رفرفت فوقي هذا اليـوم ورمت الي بغصـن الزيتون ، لقـد كان مجيئك الي مجيء السلام الى قلبي •••

انني اعرف انهمـا لـن يغفرا لي ولكن قل لهم ان قلبي كله معهما !

آه يـا رب !

وانقضت بضع دقائق صمت ، علت خلالها ونظرت الى « اليوشا »

وقلت لـــه :

ــ كيف يمكنـــك ان تطلب اليــها مثل هذه التضحيـــة ؟

ــ الحب يا صديـــقي ، انها الآلام جميعها ، البعـــد والفراق ، كمـــا ان الخلاف العائلي هو السبب الاول والدعاوى والخصومات هـــي التي حملتنـــا على التضحيـــة بذلك . ولكـــن لا بد لهذه الامـــور ان تسوى وتنتهي ولا بد مـــن ان يكون زواجنا هو اساس الصلح مـــن يـــدري ؟

فسألتـــه وانا انظر الـــى ناتاشا !

ــ وهل تنويـــان الزواج ؟ ومتى ؟

ــ غدا او بعد غد ، ولكنني لم اتخذ قرارا نهائيـــا بعد ولم أقر قرارا حاسمـــا انمـــا سيكون زواجنا بعد غد حتما رغم كل شيء . سنسافـــر منـــذ الغد الى « بـــكوف » . حيـــث يعيـــش صديق حميم لي ونسكن عنده ، ثم نتزوج هناك ، ولا أدري ان كان في القرية كاهـــن ام لا . على كل حال سنأخذ معنـــا كاهنـــا أو نستدعي كاهنـــا مـــن القريـــة المجاورة ، والشـــيء الوحيـــد والمؤسف حقا هو اني لم اعلم صديقـــي بقدومي الى بـــكوف لان الوقت دهمنـــي :

وقد استأجرت بيتا مستقل لاعيش فيه انا و « ناتاشا » فلـــم اعـــد اطيـــق العيـــش مع والدي الامـــير ..

نظرت اليـــه وقلـــت له :

ــ وابـــوك الامـــير هل سيغفـــر لـــك ؟

ـ اجل سيغفـر لي بعد ان يغضب منـي اولا ويلعني ويشتمني ولكنه أخيـرا سيغفـر لي ويسامحني لانه يحبني كثيرا •

سأبرهـن له اني اصبحت رجلا باستطاعته العيش مع اسرته والاكل مـن عرق جبينـه وكده وتعبه ، ولكـن هل تعلم انه قد راودتني فكرة مدهشـة البارحة ؟

ـ ما هـي ؟

ـ سأقولها لك وان لم يكـن هذا أوانها ، سأكتـب روايـات والقاصيص ابيعها للجرائد مثلك أنت • واذا لم انجح في هذا الحقـل او لم أوفق فسأعطي دروسا في الموسيقى ، انت لا تعلم اني قدير فـي الموسيقى ولكـن مـن الان فصاعدا اعلم ذلك • واذا لم يقتض الامر فلدي العديد مـن التحف الثمينة وادوات الزينة فسابيعـها لانـهـا لا تفيدنـي في شيء ونستطيع العيش بثمنها مدة طويـلة •

ثم أني اذا مررت بأسوأ الحالات فمـن المحتمل ان اعين لوظيفـة في الدولة ، وقد قدمت طلبا بهذا الصدد ، وسيغفر لي والدي ان علم ذلك لانه كان يحثني على ايجاد وظيفة في الدولة ولكني رفضت • واذا عرف ان الزواج قد جعلنـي رصينـا ورجلا وادخلني الى وظيفة سيسر كثـيرا ويسامحنـي •

ـ ولكـن يا « اليوشا » هل فكرت بما سيجري في بيت اهلهـا هذا المسـاء ؟

هل فكرت في القضية القائمة بيـن ابيـك وابيها ؟

قلت ذلك و«أنا» اومي‌ء الى « ناتاشا » التي امتقع لونها واحمـر

وجهـــا .

ـ اجل ، انك على حق . لقد فكرت بذلك قبل الان ، وتألمت كثيرا ، وسمعت صوت الضميـر يؤنبني وصراخ الوجدان يلومني ويعاقبني . ولكــن ما العمل ؟ ارشدني يا رب ، الهمني يا الهي ، آه لو يعفوا لنـا ؟! آه مــن هذه الدعاوي ! اه مــن هذه القضية انهما بمثابة الاهل لي ، اني احبهمـا واحترمهمـا ولكن ما حيلتي ؟ يجب ان يتصالحوا ، ستظل نحبهم وسيلعنونا في بادىء الامر ولكنهم لــن يقاوموا ذلك طويــلا .

ان ابي طيــب القلب رقيق الفؤاد ، يقدر الامور حق تقديرهـــا ويراعي الظروف وفق اصولها .

ثم تــابــع وهو ينظــر الى ناتاشا نظرة ملتهبة :
ـ اني اتخيل « لذة ونشوة » متى رآها سيحبها وستفتنه ، ان ابــي يظنــها فتاة متلاعبة ماكرة ولكنه سيغيـر رأيه ...

ما مــن احد يبغضك يا « ناتاشا » احبيني يا « ناتاشا » اعتقد ان هذا المساء سيجلب لنا الحب والوئام ! بورك هذا المساء ..

ونظرت الى « ناتاشا » فاذا بها كمــن ندمت على ما اقترفت يداهـا وفجأة ركضت نحوي واخرجت مــن جيبها رسالة قد خطتها الى اهلــها ولكــن اغمي عليها فركض « اليوشا » نحوها واخذ يحك صدغيها ويقبل يدها وشفتيها ، فاستبد بي الخوف ولكنه عاد وتبدد عندما نهضت فامسكها « اليوشا » واشار للعربة التي احضرها معه وكانت على مقربة منا ، فصعدا الى العربة فتناولت « ناتاشا » يدي كالمجنونة ، وسقطت على اصابعها دمعــة محرقة احرقت قلبي والهبت فؤادي ، وتحركت العربة . تسمرت

في مكاني وتزعزعت أركاني وتحطم كيانـي ، ماتت سعادتـي وفقدت ارادتي وانا ارقب العربة التي غابت عن نظري ••• وعدت ادراجي ببطء الى العجوزيـن • ولكـن كيف سأدخل عليـهم وماذا سأقول لهم ؟ كان فكري مخدرا ، وساقاي ترتجفان تحتي ووجهي شاحب لونه •

تلكم هي قصة حبي وانتهت وها انا اعود لاكمل قصتي التـي قطعتـها •

الفصل الخامس

بعد موت سميث باربعة ايام ، ذهبت الى غرفته اسكنها . كنت قد احسست خلال هذا اليوم كله بحزن لا يطاق . فالجو قاتم والبرد قارس والمطر يهطل بغزارة يمازجه الثلج ، وعند المساء صحا الجو وهدأ الريح واشرقت الشمس بانوارها ، وآنسل الى غرفتي احد اشعتها يحدوه حب الاستطلاع من غير شك . كانت الغرفة واسعة ، خالية الا من بعض الاثاث ، تفوح فيها رائحة الهواء الفاسد ، وتزكيها رائحة المدخنة الواطئة ...

لقد ندمت على تركي غرفتي الاولى وشعرت ان هذه الغرفة ستسرقني عافيتي الباقية ، وتفقدني ما بقى لى من صحة . قضيت الصباح اتعارك مع اوراقي ارتبها وانظمها ... وعندما انتهيت منها تابعت سبيلي لكتابة روايتي الكبيرة التي كنت أصبو لها .

وعندما جلست الى الطاولة ، وبدأت اكتب ، اخذ اليراع يتمايل بين اصابعي ، واخذت افكاري تميل في عقلي لا ارادة لكتابة ولا حب للعمل ، لان ثمة هموم ما تزال تراود مخيلتي ..

فقد كنت اشعر ان سميث سيدخل علي بقامته الطويلة ،

محدقا في وجهي ، مسلطا الضوء الكاشف في نظرة نحو مقلتي . وكنت أحس أن « ناتاشا » سترسل ورائي لنتنزه معا ، تتراءى لي بسمتها الجميلة واتخيل ايامنا اللذيذة ، اتذكر العشاء الطيب مع ناتاشا ..

كل هذه الافكار والتأملات كنت استعرضها في مخيلتي وانا في الغرفة . وبينما كنت سارحا في الافاق البعيدة . وفي هذه اللحظة تماما تراءت لي صورة « سميث » يدخل علي وانا متجها الى الحائط . وفجأة سمعت صرير الباب ينخر في رأسي ، وتراءى لي شبح كبير أرعبني واخافني وانتابني الذعر لدى ظهور هذا الشبح ، لكني استجمعت قواي ، وتأملته ، فاذا به طفلة صغيرة تناهز الثانية عشرة من عمرها ، شاحبة اللون ، كأنها ناهضة من مرض خطير . كان شعرها الكثيف المنفوش يتهدل على كتفيها خصلا ، وكانت ملابسها مهترئة قديمة ...

دخلت علي وهي تنظر لي وتحدق الي ، اللهم ان نظرتها شبيهة تماما بنظرة العجوز « سميث » . نظرت الي بخوف وسألتني بصوت أجش :

— اين جدي ؟

وتبدد كل الذعر الذي كنت اشعر به لدى سؤالها هذا واجبت :

— أنه قد مات منذ مدة !

أتتها رجفة سريعة واخذت ترتجف من اخمص قدميها الى قمة هامتها كمن اتتابها نوبة . ولكنها هدأت ودارت دون ان تنبس ببنت شفة ، ولكنها توقفت عند العتبة وقالت :

— وآزور هل مات ايضا ؟

— اجل آزور مات ايضا .

وبعد ان سمعت جوابي خرجت من الغرفة دون ضجة فهرعت في اثرها وانا الوم نفسي على تركها . وهبطت السلم بسرعة ، كان مظلما قذرا ، وكان في هذه اللحظات مظلما تماما . وعندما وصلت الى الدور الرابع وجدت البنت مسندة وجهها الى الحائط وهي تبكي في صمت ، اقتربت منها ببطء وقلت لها :

ـ مما تخافين ؟ ان جدك قبل موته قد تكلم عنك وكتبه لا تزل عندي ... ألا تسكنين في الشارع السادس ؟ ولكن قبل أن اتم كلامي صرخت مذعورة كأنما خافت أن اعرف اين تسكن وهبطت مسرعة نحو الشارع ، ولكني اسرعت في اثرها وانا ما ازال اسمع خطاها ولكن ما ان وصلت الى الشارع حتى اختفت ولم اشاهدها قط . عند ذلك أدركت ان البحث عنها لا يجدي وهو عبث لا طائل تحته .

ولكنني ما أن وصلت الى الرصيف حتى اصدمت برجل يسير مطرق الرأس ، مستغرق في حلم عميق ، يسير وكأنه مطارد لانه مسرعا . ولكن ما ان وقع نظري عليه حتى ادركت انه العجوز « أخميف » والد « ناتاشا » وتساءلت « نفسي : كيف يخرج في هذا الطقس البارد وهو المريض ؟ كيف يبارح بيته وهو الذي لم يبارحه منذ زمن طويل ؟ كيف ؟ ولم يغادر منزله وهو الذي لا يقوى على الوقوف ؟!! . فمنذ أن ذهبت « ناتاشا » أي حوالي ستة اشهر ظل حبيس البيت ، سجين المنزل لا يبرحه ابدا . وهاأنذا اراه فجأة في الشارع .

سر كثيرا للقائي ورحب بي ترحيبا حارا وسلاما بارا . كان وجهه شاحبا ، وذقنه مسترسلة كأن لم تحلق منذ مدة طويلة ، وقد ارتسمت على وجهه علامات القلق والاضطراب والحزن والانفعال ، يكلم نفسه ويحرك يديه ببعض الاشارات .

ونظر الي وقـــال :

ـ كيف حالك يا فانيا ؟ ما وراءك ؟ والى ايـــن ذاهب ؟ •

ـ الحمـــد لله ولكـــن قل لي كيف تخرج وقد كنت مريضا منـذ زمـــن قصيـــر ؟

واخبرنـــي عـــن صحتك كيف هي الآن ؟

ولكـــن العجوز لم يجب على سؤالي كأنمـــا لم يسمعه •

ـ كيف حال « آنا آندريفنا » ؟

ـ بخيـــر ••• ولكـــن لا ادري ماذا حل بها ، لقد اصبحت حزينة وهي دائما تتحدث عنـــك ولكـــن لماذا لا تأتي لزيارتنا ؟ لعلك كنت آتيا الينـــا الآن ؟

لم يتـــرك لي العجوز مجالا للتفكيـــر واصبحت في موقف حـــرج فاجبتـــــه :

ـ حقـــا اني كنت ذاهب اليـــكم •••

ـ هذا حســـن جدا ••• ولكـــن يافانيا ! هل تعلم انك اصبحت لي و « لاندريفنـــا » بمثابة الابـــن ، ولعل الله قد ارسلك لنا • هذا ما يخطر على بالي دائما وابدا • كان سلوكك معنا سلوك الابـــن البـــار الذي يحترم والديـــه ويقدرهمـــا حق قدرهم •

واخذ صوته يرتجف ، وجسمه يرتعد وصمت برهة ثم استطرد وقال:

ـ هل كنـــت مريضا يا فانيا حتى لم تأت لزيارتنا كل هذه المدة ؟

فأخبرته اني كنت على وشك أن امرض وقصصت عليـــــه قصـــة « سميـــث » العجوز وكان ينصت اليها بشغف فكأنمـــا يعرفه ، ثـــم

خبرتــه عــن المنزل الذي استأجرته بستة « روبلات » وعــن جــوه ورطوبتــه وقذارته . فغضب منــي كثيرا وقال :

ــ الادب هو الذي فعل بك ذلك ... لقد اوصلك الادب الى عدم المجادلة والمناقشة ، ستة روبلات اجرة غرفة واحدة ؟

ولقد اوصلك ادبك الى هذا المسكــن الحقير وسيوصلك الــى المقبــرة ــ

قال ذلك وهو يشيــر بحركة لا شعورية الى فضاء الشارع يملؤه الضباب وتنيره اشعة القناديل المشتعلة ، والى المارة الناتئة عظامــهم والشاحبة وجوههم مــن فرط النحول ، المتقلصة صفحاتهم من الهم والذل ... وشارفنا الميدان .

ــ ماذا تريديــن ايتها الصغيرة ؟ قال هذه العبارة فجأة عندما ابصر طفلة صغيــرة تتضرع الى المارة وتمد يديها طالبة صدقة ...

كانت طفــلة في السابعة مــن عمــرها ، نحيــلة العود ، عــارية القدميــن قذرة الخديــن ، ترتدي معطفا مهترئا واسمالا ممزقا . كانت تنظــر الينــا وتمــد يدها المرتعشة مــن الخوف والتردد والخجل .

وحينمــا رآها العجوز « أخميتيف » اصابته قشعريرة هزته ، وتفتت قلبــه واستــدار نحوهــا بسرعــة ، فخافت منــه وابتعدت عنه ولكنه عاجلها بسؤاله :

ــ ماذا تريديــن ؟ احسانا ؟ لا بأس .

ومد يديه الى جيوبه واخرج منها ثلاث قطع النقود ولكنه وجدها قليلة ، فأخرج محفظته الجلد واخرج ما فيها ، فاذا هو روبل واحد لا يملك غيره ، وضعها في يدها السائلة الصغيرة وقال :

ــ المسيــح يحميــك يا بنيتي !

ورسم اشارة الصليب عدة مرات على الطفلة البائسة ، ولكنه انتبه لوجودي فجأة فقطب حاجبيه وقال :

ـ انني لا احتمل منظر هؤلاء البؤساء يا فانيا ! ولكن اي ام ترضى لابنتها بالذل والاحتقار الا اذا كانت هي بائسة نفسها ؟

وصمت دقيقة ثم استأنف يقول :

ـ اسمع يافانيا .. لقد اتفقت أنا و « اندريغنا » على أن تتبنى طفلة صغيرة يتيمة ... تتبناها وتكون لنا تماما .. وبدون ذلك يقتلنا الضجر والملل لاننا عجوزان وحيدان .

ولكن « آنااندريغنا » قد عارضت قليلا فارجو منك أن تقنعها عن لسانك لا عن لساني ، كأن الاقتراح يأتي منك على غير سابق علم لك في الامر .

على كل حال نحن لن نصل اذا سرنا على اقدامنا ، فيحسن بنا أن نأخذ عربة ان « آنا اندريغنا » تنتظرنا .

وصلنا الى « الدريغنا » الساعة السابعة والنصف مساء .

كان الزوجان العجوزان يحب كل منهما الاخر حبا جما . لقد ربط الحب والتعود الطويل بينهما برباط لا ينفصل وحبل لا ينقطع ؛ على ان « أخمنيف » كان في ايام صباه لا يظهر عاطفته « لاندريغنا » الا لما ما يعكسها هي اذ كانت تسرف في حبها له وتكثر من عاطفتها نحوه.

غير أن مغادرة « ناتاشا » للمنزل غيرت حياتها واصبح العجوزان كلاهما أرق مما كانا عليه من قبل . كانا يشعران والالم يحز في نفسيهما ، انهما اصبحا وحيدين في هذا العالم . فهما لا يستطيعان ان يفترقا ولو ساعتين دون ان يشعرا بقلق والم ، وقد اتفقا ضمنا على ان لا يتحدثا ابدا عن « ناتاشا » كأنها لم تكن . حتى ان « آندريغنا »

لم تجرؤ مرة واحدة على ذكر اسم « ناتاشا » امام زوجها . والواقع ان آندريغنا قد غفرت لابنتها في اعماق قلبها منذ مدة طويلة . وكنت كلما ازورها أنقل اليها اخبار ابنتها الغالية .

ثم ان العجوز كانت تمرض حينما تنقطع اخبار « ناتاشا » مدة طويلة حتى اذا ما جئتها ببعض الاخبار ، امطرتني بوابل من الاسئلة حول حياتها وصحتها . وقد حدث يوما انها كادت تموت رعبا واوشكت ان تذهب لعيادتها حين علمت أن « ناتاشا » مريضة .

الا أن « آندريغنا » بعدما تحصل على اخبار « ناتاشا » تعبر لي عن رأيها بأبنتها ، وتصف لي ان فعلها هو جريمة نكراء لا تغتفر ، ولم يكن ذلك الا تصنعا وتكلفا ،لانها ما تلبث أن تقلق على ابنتها حتى ينهمر الدمع ويحمر الوجه وتغدق على « ناتاشا » بأحر العواطف وارق الاسماء . وفي بعض الاحيان كانت تغمز امام العجوز في رفق واناة ، من كبرياء الناس وقسوتهم ، ومن أن الله لا يغفر لمن لا يغفرون . كأنها تردد :

« ارحم من في الارض يرحمكم من في السماء »

غير ان العجوز ينفر من كلامها ، ويقسو وجهه ، ويصمت مقطبا حاجبيه ، ثم انه كان يدخل غرفته عند كل زيارة من زياراتي وينفر من سماع الحديث عن ابنته .

وعندما دخلنا الى آندريغنا دلف العجوز كعادته الى غرفته مسرعا وهو لا ينظر الينا ، كأنما ضميره يؤنبه لانه جمعنا . وفي المدة الاخيرة ، أصبحت آندريغنا لا تخفي علي شيئا وقالت لي :

ــ أرأيت ؟ انه دائما هكذا معي! أأنا غريبة عنه ؟ من يدري انه

ربما اراد أن يغفر لها ، انه يبكي طوال الليل وقد سمعته بأذني !.

قل لي ، استحلفك الله يا فانيا الى اين ذهب ؟

ـ من « أخنيف » ؟ لا ادري ؟ هذا ما كنت اسأله !

لقد ذعرت حين رأيته على حين غرة يخرج الى الشارع مريضا في هذا الجو السيء !

ـ لعله ذاهب اليها !! انني مقتنعة كل القناعة أنه يعرف كل انبائها واخبارها ولكن من أين يأتي بهذه الاخبار ؟.. كان مساء امس قلقا جدا واليوم أيضا . لماذا تأخرت عني « يا فانيا » فأنا انتظرك على احر من الجمر . ما هي اخبار « ناتاشا » ؟

قصصت على « آندريفنا » كل ما اعرفه وبصراحة تامة . واخبرتها أن « ناتاشا » و « اليوشا » سائران نحو الانفصال . وابلغتها ان « ناتاشا » قد ارسلت لي رسالة تسألني فيها أن آتي اليها بسرعة . غير ان العجوز قادني الى هنا والواقع اني كنت ذاهبا اليها . والاغرب من ذلك أنها عينت لي وقتا معينا للحضور وهو الساعة التاسعة . وهي تقول ان كل شيء سيتقرر مساء اليوم ... لذلك لا بد لي من الذهاب بأقصى سرعة .

ـ اذهب يافانيا بسرعة . وانقل لي غدا وباسرع وقت ممكن اخبارها . أي مصيبة اسوأ من المصائب السابقة ؟ اي نازلة قاسية نزلت بها ؟ يا الهي وانت جاهي ارحم ابنتي واعدها الي سالمة .

ثم طلبت مني أن أريها الرسالة .

اريتها الرسالة . وكنت اعلم ان املها الخفي هو ان يرضى « اليوشا » الذي تنعته بالحقارة وبأنه صبي أرعن غير ذي شعور ، ان يتزوج

« ناتاشا » وان يوافق ابوه الأمير على هذا الزواج . وقد ذلت مرة امامي وافصحت عـن املها هذا ولكنها عادت وندمت على ما فعلته . ولم تجرؤ مرة واحدة ان تفصح عـن املها هذا امام زوجها العجوز لانها تخـاف ثورته ، وقد لامها العجوز على ذلك ولو انه لم يلمسه منها بطريقة مباشرة أو غيـر مباشرة . فهو ان علم أن « ناتاشا » تزوجت« أليوشا » سيلعن وزاجهمـا ويلعـن ابنته .. اجل فهو يريد عودة « ناتاشا » ، انمـا وحيدة بدون « اليوشا » . يريدها الا تتزوجه ، يريدها ان ترجع الى المنزل وتندم على ما فعلتـه ، يريدها ان تنزع مـن قلبها ذكرى « اليوشا » . هذا هو الشرط الوحيـد لكي يغفـر عنها وهو شرط لم يعلـن عنه من قبل ، انما يظهـر جليـا ومعقولا في نظره .

ـ انه ضعيف الارادة هذا الصبي ، ضعيف الشخصيـة وضعيـف الشعـور .

ماذا سيحل بالمسكينة ؟ وماذا احب في الاخرى التي لا افهم ؟

سمعت مـن يقول انها فاتنة ثم ان ناتاشا تقول ذلك .

ـ لا تصدق ، انتم الرجال طائشون ، وان اطرت « ناتاشا » جمالها فما ذلك الا كرم منها وسماحة .

وانت يافانيـا الا تستحي ؟ الا تخجل ؟ انك نشأت في بيتنا وللناك تدليل الابوين لولدهما ثم تقول انها فاتنة ! مـاذا اصاب عقلـك !.

الا تعلـم ان « ماريانا سلفنا قد اخبرتني بكل شيء عن المسألة ؟ انها تعلم كل شيء اذ انها تعمـل في بلاط الاميـر . قالت لي :

ان الاميـر ابا « اليوشا » على علاقة بكونتيسه أثيمة ، وهو يؤجل دائمـا موعـد زواجه لها . اما هي فتلومه على هذا التأجيل .

وهذه الكوتيسة معروفة بسوء سلوكها منذ كان زوجها على قيد الحياة ، وحينما توفي زوجها سافرت الى الخارج وعاشرت ايطاليين وفرنسيين ؛ ووجدت بعض البارونات ، واصطادت منهم الامير هذا .. وكانت الكوتيسة غنية تبذر اموالها يمنة ويسرة . وكانت تستدين اثناء ذلك ، والمليونان اللذان خلفهما لها ابوها كانا يزدادان . ويقال انها تملك الان ثلاثة ملايين . واغتنم الامير هذه الفرصة لتزويج ابنه « اليوشا » . ومضى الى بيت الكوتيسة يبلغها رغبته ولكنها تدللت وتمنعت . وقالت للامير :

ـ ان تتزوجني انما لا يمكن لابنتي أن تتزوج « أليوشا »

ولكن الامير كان يعرف كيف يخاطب الكوتيسة ويؤثر فيها قائلا :

ـ اسمعي يا كوتيسة ، لقد انفقت جميع اموالك ولم يبق لديك شيئا ، وغرقت بالديون ، فاذا تزوجت ابنتك « باليوشا » وكلاهما غرسانج استطعنا ان نسيطر عليهما ونجعلهما تحت امرتنا وصايتنا فتحصلين على المال انت ايضا .

ولكن ستة اشهر مضت ولم تقر الكوتيسة امرها . ولكن يقال عنهما انهما سافرا الى « فرصوفيا » وانهما اتفقا هناك ..

هذا ما اوردته « ماريا فاسيلفنا » وذلك ما اخبرتني به من البداية الى النهاية ، وقد سمعته من مصدر موثوق .

هذه هي المسألة اذن ، المسألة مسألة مال وملايين ، مسألة المجانين والطامعين ، مسألة النقود والظالمين . الذين يفضلون عذاب اولادهم على المال والنقود ...

ادهشني ما روته « آنا اندريفنا » اذ أنه عين ما سمعته من « اليوشا » عندما قال لي انه لن يتزوج في سبيل المال . وسمعت منه

ايضا ان اباه سيتزوج ولكنه كان يكذب الاشاعات لئلا تغضب الكونتيسة .

ثم تابعت « آندريفنا » الحديث عن خطيبة « اليوشا » باستياء قائلة :

ـ ليست هي من اسرة نبيلة عريقة ؟ « ناتاشا » اليق منها وانبل . فهي من سلالة عريقة نبيلة عند عهد ايفان الرهيب ، وهم لا يزيدون عنا الا بالغنى والمال . عكس خطيبة « اليوشا » انها ابنة لبائع خمور .

ـ انهم اغنياء ولكنهم حقراء ، انهم اثرياء ولكنهم بلهاء ، انهم موسرون ولكنهم ظالمون ، ليس لهم قلوب ، ليس لهم فؤاد ..

ولكن قل لي ، كيف هي حمامتي ؟ كيف هي فلذة قلبي؟ هل اهانوها؟ هل ظلموها ؟ لا تخفي عني شيئا يا فانيا !؟ ارجوك ..

وانفجرت العجوز باكية منتحبه ثم قالت لي :

ـ لقد حان موعد ذهابك اليها يافانيا !

وسألتها عن المصيبة الجديدة التي كانت تريد ان تقصها لي فقالت :

أية مصيبة سأقصها لك ! أية نكبة سأرويها لك ؟ اما كفانا مصائب ، الم نشرب الكأس حتى الثمالة ! الم نتذوق الظلم ومذاقته المرة التي تشبه طعم العلقم !

لعلك تذكر يا صديقي النيشان الذهبي الذي كنت قد وضعته في رقبتي ، والذي وضعت فيه صورة « ناتاشا » وهي ملاك في الثانية عشرة من عمرها ، كان املي ورجائي كان الاثر الوحيد الذي تركته « ناتاشا » قبل رحيلها ، لان « أخمنيف » قد أحرق ورمى كل ما يمت

« لناتاشا » بصلة • كان خليلي وجليسي ، كان مؤنسي يرفه عـن نفسي ، ويسد الفراغ الذي تركته « ناتاشا » • كنت امتع النظـر فيه وأواسي الامي واوجاعي مـن مجرد نظرة اليه ••• ولكـن فقدته اخيرا • ولـم اتـرك مكانا الا وفتشت فيه ، وبحثت عنه في جميـع الارجاء •• وبقيت ابحث وابحث ولكـن بدون جدوى •

آه ! يا الهي ! ان هذا نذيـر شؤم ، ان قلبي يخفق ، ولقد بقيت طوال النهار ابكي واندب وانا على احر مـن الجمـر انتظرك لتواسيني في كربتـي •

ولكنها عادت تقول وقد اشرق وجهها سعادة :

ـ هل حدثـك عـن اليتيمة ؟

ـ اجل ، لقد اخبرني عـن رغبتكمـا في تبني بنت يتيمة •

ـ ولكني لم ارض بذلك وابيت لاني لا اريـد غيـر « ناتاشا » وليس لي احد غيـرها ، انها ابنتي واريدها •• ولكـن هل تظـن انـه انمـا يفعل ذلك لكي يؤاسيني ويفرج همي وينسيني الماضي ؟ ام ليطرد خيال ابنته طردا بدون رجعة لكي يتعلق بفتاة أخرى ؟

ماذا قال لك عني هس •• ها هوذا قد عاد ستقول لي فيما بعد لا تنس ان تعود غدا •

الفصل السادس

دخل « أخنيف » ورمانا بنظرة مستطلعة وهو قاطب حاجبيه كأنه يخجل من أمر ما . واقترب من المائدة وهو لا يلوي على شيء . ولكنه فاجأنا بحديثه قائلا :

ـ لقد خرجت اليوم لبعض الشؤون ، خرجت لأسوي مسألة من اكثر المسائل سخافة وقذارة .. لقد حكموا علي لان الادلة الثبوتية اللازمة تعوزني . قضية جرت بعيدة عن جو العدل ، وتحقيق لا بداية له ولا نهاية ، لا عدل ولا احترام لمبادىء القانون ، لا ضمير ولا وجدان في التحقيق وهم ينساقون انسياق العميان . لعبت الرشوة دورها وانهت مهمتها وانتهى كل شيء ..

قال ذلك وهو رابط الجأش كمن أيقن ان الغضب لا يجدي والحزن لا ينفع .

علمت عند ذلك ان القضية بينه وبين الامير لم تكن لمصلحة « أخنيف » ، وسكت لا اعلم بماذا اجيب .

ولكن العجوز عاد يقول :

ثم ماذا ؟ لن يجعلوني حقيرا ولو حكموا علي بالمصاريف . وان

ضميـري مرتاح وقد يدمرونني ولكنهم سيتركونني وشأني بعد ذلك ..

سأنهـي القضيـة بسرعـة وادع كل شيء واسافـر الى سيبريا .

« فقالت آندريغنـا » :

ــ ولكـن لماذا كل هذا البعـد ؟

فاجاب العجـوز كمـن اغلظه جوابها :

ــ نحـن قريبون مماذا ؟

فقالـت اندريغنـا :

ــ على الاقل ... مـن الناس ...

فصرخ وهـو ينظـر الينـا :

ــ أي ناس ؟ اللصوص ؟ الخونة ؟ الظالمون ، المستبدون ، على كل لا تخافي . ستجدي منهم في سيبريا ايضا . وانا لا أرغمك على المجيء معي فيمكنك البقـاء اذا شئت .

فهتفـت المسكينة :

ــ مـن اجل مـن ابقى هنا ؟! انت تعلم ان ليس غيرك في هـذا العالم أحبـه ..

وارتبكت ، فصمتت ثم ادارت نحـوي مذعورة كأنمـا تتوسل ان اتدخل واسعفها . وكان العجوز هائجا مغتاظا ويختلج كل عضو من اعضائه ويخرج الزفرات تلو الحسرات ، والاهات تلو التأوهات ،

وكان مـن المستحيل أن اعارض .

قلـت :

ـ هذه فكـرة حسنـة يا « اندريفنـا » ان الحيـاة في سيبيريا » ليست سيئـة ويمكـن لزوجك ان يجد عملا ممتازا هنـاك ••

وهنا ضربت العجوز « اندريفنـا » كفا بكف وهي تقول :

ـ هذا لم اكـن اتوقعه منك يا « فانيـا » اتقول ذلك انت ؟ لـم تلـق منـا الا المحبة والان •••

ـ ها ها ها ! وماذا كنت تظنيـن ؟ فكري قليـلا مما تخاليـن اننا سنعيـش ؟ لم يبق لدينـا الا آخر « كوبك » نملكه • ام لعلـك ستطلبيـن منـي الذهاب الى الاميـر واطلب الصفح منه !

وانتفضت العجوز لسمـاعها كلمـة الاميـر واخذت ترتجف ذعرا وتقع مـن يدها الملعقـة محدثة ضجة على المائدة •••

وشعـر أخمنيـف بحمـاسة وبفرح شديد وقال :

ـ حقا هذا ما يجب عمـله ! اليس كذلك يافانيا ؟! الا يجب علـي ان اذهب الى الاميـر ؟ لماذا السفر الى « سيبيريـا » ؟ بل الافضل منذ الغـد ، ان ارتدي اجمـل الثيـاب واصفف شعري واشتري قفازات حتى اكـون في احسـن زي وامضي الى صاحب السمـو واقول له :

ـ سيدي الاميـر ، يا صاحب السمـو ، يا ذو الفضل والنعيـم ، ذو العقل السليـم والصديق الحميـم لجميـع المظلوميـن ، يا مـن احسنـت الي وكنت لي خيـر عضد وافضل سنـد ، يا أبت الرؤوف

ساعد اخيـك المكشوف ، اغفـر لي واشفق علي ، وهب لـي مـن لدنك كسرة خبـز ، وقصعة لبـن وصحـن أرز ، لان لي امـرأة

بردانة واطفالا جوعانة وعريانة ! » اهذا ما تريدينه يا اندريغنــا !!

فقالت « اندريغنــا » وقد ازداد ارتجافها وتغيرت اوصافها :

ــ انا لا اريــد شيئا مــن ذلك ! وقد صدر ما صدر عــن طيــش وحماقة ، اسألك العفــو ان كنت قد أزعجتك ..

يقيني انه كان حيــن يرى دموع زوجه المسكينة يحزن حزنا شديداء

ويقيني انه اكثر تألما منها واكثر تأثرا . ولكنه ما كان يملك اعصابه وزمام نفسه . وهذا ما يتفق احيانا اذ ان هناك الكثير من ذوي النفوس الكبيــرة والقلوب النبيلة ، ولكنهم عصبيون ، ينساقون مع غضبهم وحزنهم وينجرفون في تياره الى حد التلذذ بالحزن والغضب ولو بالاساءة الى سخص بريء ،بل انهم ليفضلون اقرب الناس اليهم ، ولقد كان العجوز منهم ، يشعــر بالحاجة للتشاجر وان كان هذا يؤلمه اول مــن يؤلــم

وتساءلت في نفسي : ترى اليس مــن الممكــن انه قد قرر العــفو عــن ابنتــه وقد تصور ما سيجيش في نفس العجوز المسكينــة مــن فرح وحماسة ولكنه عاد وتمنع عــن قراره لان شيئا قد وقع فبحــث عــن انسان يصب عليه غضبه وقسوته فلم ير بوجهه الا عجوزته المسكينة التي كانت اول مــن يتحمل نتائج الاخفاق والتمنع عــن قراره .

وحيــن رآها حزينة ، محطمة ، ترتعــد امامه مــن الحزن الشديد

وتبكي قدامه مــن هول الصدمة تأثر تأثرا شديدا ، وكأنه خجل مــن ثورته وعاد لوعيه وكظم غضبه لحظة مــن الزمان .

ومرت بنا لحظة صمت ورآن السكون وخيــم السكوت كأن علــى

رؤوسنا الطير ولكن هذه اللحظة لم تدم طويلا اذ ان لا بد له من التكلم ولو بانفجار ولعنات وقال على حين غرة :

ـ اسمع يا فانيا . ان ما سأقوله يؤلمني ويحز في قلبي . ولكن آن لي أن أقوله ، يجب ان اتكلم بصراحة ، بلا لف ولا دوران ، حتى يفهم الاخرون ان هذه التنهدات والحسرات ، والآلام والاوجاع ان جميع السخافات والدموع تزعجني اخيرا .

ان الشخص الذي أحبه واعبده ، انتزعته من قلبي الان ، ولن يعود الى قلبي ابدا . لا اريد هذه السخافات بعد الان ، ان الجميع يظنون ان الامر الذي يضنيني ، ويثير اعصابي هو العواطف التي يخالونها تخامرني ، يظنون انني اكاد اجن الما وحزنا . ولكن لا.. لم يبق لي من ذكريات ، لقد انتزعت عواطفي القديمة ونسيتها الى الابد ...

عيل صبري ، وامتقع وجهي ، ونظرت اليه باستياء قائلا :

ـ الا ترحم ؟ أليس لديك قلب ؟ انظر الى « المدريغنا » ماذا تفعل بها ؟

ولكن بهذا لم أزد النار سوى استعارا ، والمعركة وطيسا ، وما اضفت فوق النار الا زيتا ، اذ انه ما ان سمع كلامي حتى قال بصوت مرتفع وهو يرتجف :

ـ لا ارحم احد ؟ لا اشفق على احد ؟ اذ ليس يرحمني احد .

لا احزن لاحد لانهم في بيتي يحيكون المؤامرات ضدي ، انا الذي تلوث شرفه ، وزلت كرامته ، وزالت أبهته ، في سبيل ابنة فاجرة ، ماكرة ،

تستحـق الشتم واللعـن خليقة بكل انواع العقاب والقصاص •

انا الذي اهنت ، وظلمت ، وتطلبون مني فوق ذلك كله ان اذهـب اليـهـا واغفـر لها واستعطفها ، ! انكم تعذبونني في عقـر بيتي ، ليل نهار ،صباح مساء ، بالدموع والاهانات ، بالسخافات والتلميحات، تريدون أن يرق قلبي ويعطف • خذ يا « فانيـا » واقرأ ، أهناك اقسى ممـا حدث لي ، اهنـاك أهول واظلم مما فعلوا بي ، لقد نعتوني بانني لص محتال ، سارق غدار ، اتهموني بانني سرقت الرجل الذي احسـن الي ! لقد ثلم شرفي بـبيها ، ارأيت ، ايعجبك هذا ؟!

وبينما هو يسل من جيبه الاوراق سمعنا رنينا يسقط على المنضدة • فانطلقت مـن « آنااندريفنا » صرخة عجيبة ، كان ذلك هو النيشان الذي فقـدتـه ••

ما كنت اصدق عينـي • وصعد الدم الى رأس العجوز ، واحمر وجهه وسال دمعه ، وارتعش وارتجف ، فانتصبت « اندريفنـا » تنظر الى زوجها مكتفة اليديـن ، مشرقة الوجه ويشع بامل مشرق ، ما هـذا الاضطراب الذي يصبغ وجه العجوز ، ما هذا الاحمرار الذي يشع مـن وجنتيـه ؟ اه ! لقـد فهمت الآن

وهي لم تخطىء كيف ضاع النيشـان ••

هل الدماء تصبح ماء ؟ هل القلب يمسي صلب ؟

كلا والف كـلا ••• فبالرغم مـن ثورة العجوز وغضبه كان يخفي في صدره شيـئا وأشيـاء ، يخفي الحب الصادق والعطف النابض • لقد وجـد النيشـان فاخفاه سرا عـن جميـع الافكار ، وكان يختلي به

ويتأمل صورة « ناتاشا » ويبكيها ويسألها وينظر اليها في حب لا حدود له لا يرتوي من النظر اليها ولا يشبع من مشاهدتها . كان يغرقها بالقبل ويداعب صورتها ويدعو لها بالغفران سرا ويتظاهر بالغضب عليها ويلعنها علنا .

ـ اذن ما زلت تحبها يا عزيزي ؟

هكذا هتفت « اندريغنا » دون ان تستطيع كبح جماح نفسها .

ولكنه ما ان سمع صرختها حتى لمع برق مجنون في عينيه وتناول النيشان ورماه على الارض واخذ يدوسه في حنق محموم .

وقال وهو يلهث :

ـ لعنها الله لعنة ابدية ... لعنها الله ... لعنها الله .

فهتفت « اندريغنا » المسكينة :

ـ يا الهي ، يدوس « ناتاشا » ؟ يدوس وجهها ؟ ما هذا ؟.. مجنون .. طاغية .. مغرور ..قاسي القلب ... صلف

ما ان سمع العجوز كلام زوجته حتى توقف مذعورا كالمجنون ثم تناول النيشان وولى وجهه شطر الباب وهم بالخروج ولكنه ما ان سار بضع خطوات حتى خارت قواه وزاغت عيناه وسقط على ركبتيه واستند الى اريكة وهو خائر القوى محطم الانفاس .

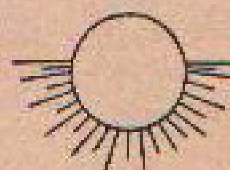
كان ينتحب كالطفل ، كالامرأة ، وكاد النحيب يشق صدره ، ويفقده عزمه ، لقد اصبح العجوز الرهيب كطفل في لمحة البصر وطرفة العين ، لم يعد لسانه يطاوعه واصبح عاجزا عن اللعن ، وها هو يقبل الصورة على مرأى منا ، انه لم يعد يستحي من الناس .

ان الحب العنيف الذي يحمـــله لابنته والذي كظمه طوال هذه المدة قد افلت زمامه وانفجر بقوة الآن وحطم كيانه وزلزل اركانه وهتفـــت « اندريغنـــا » وهي تنحني على زوجها وتقبله :

ـ اغفر لها .. سامحها ... ردها الى بيت ابويها ، وسيجزيك الله خيـــرا على تسامحـــك وتواضعك في يوم الحساب ...

فصرخ العجوز بصوت مختنق :

ـ لا .. مستحيـــــل .. لـــن يكون هذا ابدا .. لـــن يكون ..



الفصل السابع

وصلت الى « ناتاشا » متأخرا في الساعة العاشرة ، كانت وحدها تذرع ارض الغرفة بخطى سريعة ، مستغرقة في تفكير عميق ، لا يقر لها قرار ، ولا يهدأ لها بال . فلما رأتني ابتسمت لي دون ان تنبس بكلمة ،

كان وجهها شاحبا ينضح بمعاني الالم والعذاب ، وفي ابتسامتها رقة واذعان .

قالت لي وهي مبتسمة :

ـ ظننت انك لن تأتي اليوم ، وخلت ان المرض قد عاودك ثانية .

ـ ليس الامر كذلك ، انما حجزت . ولكن اخبريني بما حدث يا « ناتاشا » !

ـ لا شيء البتة ، ولكن لماذا هذا السؤال ؟

ـ ماذا ؟ ولكنك كتبت الي أمس أن اجيء ، حتى انك قد حددت لمجيئي ساعة معينة لا استقدمها ولا استأخرها ..

ـ اجل . لقد كنت انتظره امس

ـ أو لم يحضر بعد ؟

ـ لا ... لم يحضر .

ـ وهذا المساء هل كنت تنتظرينه ؟

ـ لا .. لانه هناك هذا المساء ـ هناك عند خطيبته الجديدة .

وصمتنا كلانا وهمنا في ارجاء الغرفة طولا وعرضا .

واستأنفت بعد فترة تقول :

ـ من اين آت الآن ؟

ـ من عند والديك

ـ اذهبت اليهم من تلقاء نفسك ام ادعوك ؟

ثم امطرتني بوابل من الاسئلة وكنت اجيب عليها جميعا ، وهي ، يمتقع لونها بتأثير انفعالها .

قصصت لها بالتفصيل لقائي مع امها ، وحكاية النيشان ، فكانت تستمع الي بشراهة وتنصت لي بملء ارادتها . وكانت تلتهم كلماتي التهاما والدموع تترقرق في عينيها وكثيرا ما كانت تقاطعني قائلة :

ـ اراك تسرف في الاجمال والايجاز ، فصل اكثر من ذلك .

وكنت اعيد لها الشيء واكرره ثلاث مرات .

ثم قالت لي :

ـ اتعتقد انه كان آتيا لرؤيتي ؟

ـ اخال ذلك ، لانه كان يتألم لغيابك وانه يحبك كثيرا .

وقاطعتني قائلة :

ـ أو قبل النيشان اليس كذلك ؟

ـ اجل قبله والدموع تذرف من عينيه وهو يناديك .

ـ ينادينـي ؟

واخـذت تبكـي بصمت ثم اضافـت بعد لحظة :

ـ مسـاكيـن !

قلـت لهـا :

ـ « ناتاشا » ، يجب ان نذهب اليهم ..

فنهضت وقالت :

ـ متـى ؟

وكانت تظن انني اقترح عليها الذهاب فورا ولكنها عادت واستدركت ذلك وقالـت :

ـ انك تعود دائما الى هذا يا صديقي .. فمـن الافضل الا تحدثني بعـد عنـه .

فهتفـت صارخـا :

أأنت مـن الكبرياء والصلف بحيث لا تريديـن القيام بالخطوة الاولى ؟ عليـك ان تكوني القدوة مضرب مثل في الاخـلاق العليـا . ولعـل والدك يغفر لك ان فعلت هذا ولربمـا ينتظـر ذلك . انه ابوك يا « ناتاشا » وانت اسأت اليـه ، عودي اليـه واحترمي كبرياءه ، عودي اليـه وسيصفح عنك دون قيد أو شرط !

ـ بلا قيـد ولا شرط مستحيل ! لقد فكرت في الامر ، وانت نفسك تعلـم ان ذلك مستحيـل !

ـ حاولي اذن يا « ناتاشا » .

ـ لا يا فانيا لااريد ذلك . ما فات لـن يعود ، وما مضى لـن

يرجع . لن استطيع ان اعيش الايام السعيدة التي قضيتها في طفولتي ، وهب انه قد غفر لي ، فانه سيجد في غير « ناتاشا » الصغيرة. ان إبنته « ناتاشا » طفلة وانا اصبحت امرأة .. فان عدت الان انكرني وان رجعت اليه نسيني ، وان توسلت له طردني .

لست الان عين (قس) الشخص الذي احبه ، لست الطفلة التي عبدها ، وان رضي في كما أنا ، فانما هو ارضاء لخاطري وجبرا لوالدتي وارضاء لذاته وضميره . لن يحبني كما كان يحبني طفلة ، وما مضى يبدو دائما افضل ! يا له من عذاب وشقاء ! تذكر الماضي يا « فانيا »

ـ كل ما تقولينه صواب يا « ناتاشا » ، انما ينبغي له ان يحبك ويعرفك من جديد ، ومتى عرفك احبك . ولا يعد بك الظن الى انه لا يستطيع ان يعرفك ويفهمك انه القلب النبيل ..

ـ اوه يا فانيا ! لا تكن ظالما .. ان حب الاب حب غيور . ان الذي يجرحه هو انني احببت « اليوشا » (وانتهى)الامر معه بدون علمه . وهو يرى ان ما انتهى اليه حبنا من نتائج شقيه يرجع الى « نفاقي » السفيه . لم اذهب اليه منذ حبي ، ولم أعترف له منذ ودي ، انه يجد في ذلك اهانة كبرى له . وهب انه استقبلني في حرارة وعاطفة ، فان بذرة العداوة ستبقى ، وبرغم الخلاف سيظل وغد ام بعد غد تبدأ الشكوك ويعود التأنيب ولن يغفر لي بدون قيد او شرط ، بل سيطلب مني أن انسى الماضي والستة الاشهر الاخيرة . وسيرغمني على أن العن أليوشا وانسى حبه لي ، ولكنني لن العن أحدا ولا اريد ان أندم ... لان ما وقع كان لا بد من ان يقع ... هذا مستحيل الان

يا فانيـا ٠
ولـم يحن الوقـت بعـــد ٠
ـ اذن متى يحيـــن ؟
ـ لا اعلم ، لا بد لنا مـن التألم حتى النهاية في سبيــل سعادتنـا المقبلـة ، يجب ان تشتريها بآلام جديدة
جلست صامتا انظر اليـها مفكـرا ٠
ولكنهـا قالت لـي :
ـ لماذا تنظـر الي هكذا يا فانيـا ؟
انني انظـر الى ابتسامتك مـن ايـن اتيت بها ؟
انها مختلفـة عـن الابتسامة القديمة ٠
ـ ماذا بها ابتسامتي وما شأنها ؟
ـ ما تزال فيـها سذاجة الطفولة وبراءة الاطفال ٠
ـ انك دائمـا تطريني يا « فانيـا » ، وتحبني كثيرا ، ولكـن قل لي ماذا تعمـل الآن وكيـف تسيـر امورك ؟
ـ ما زلت اكتب روايتي الا ان العمل لا يتقدم قيـد شبر ٠
لقد نضب الالهام ، وجفت الافكار ٠
آه ! تذكرت الآن ، لقد وقعت لي حادثة منـذ قليل سأرويهـا لـك فيمـا بعـد ٠
ولكنها لم تسمعني ، لانها مستغرقة في تفكيـر عميـق ٠
وقالـت اخيـرا :
ـ كنت محمـومة ! كنت بدون تفكيـر ! لا افهم لماذا تركتهم وكيف؟

ثم تابعت بصوت يكاد لا يفهم :

ـ فانيا ! لقد دعوتك لان ثمة امرا خطير اريد ان أفضي به اليك

ـ ما هو ؟

ـ سأتركه .

ـ ستتركينه ام انك تركته ؟

ـ يجب ان انهي هذه الحياة . ولقد دعوتك لافضي لك بكل ما تراكم فوق نفسي وكل ما اخفيته عنك قبل الان .

« ناتاشا » كثيرا ما سمعتك تقولين هذا ! صحيح انكما لا تستطيعان العيش سويا لان علاقتكما شيء غريب ، وليس ثمة ما يجمع بينكما .

ولكن ... هل تقوين على هذا ؟.

ـ اجل « يا فانيا » ، قبل الان كان ذلك في مجال النية فحسب اما الان فقد قررت نهائيا . انني احبه حبا جما ومع ذلك فانا عدوته الاولى . عدوته لانني اضيع مستقبله وهذا ما لا اريده .

لا اريد ان اربطه ولا اورطه في مشاكل مع ابيه الامير .

وهو يحب خطيبته ويسرني ذلك ... فمن واجبي ان اتركه اذا كنت احبه ، وان اضحي بكل شيء غال وثمين في سبيله .

ـ ولكنك لن تستطيعي اقناعه .

ـ لن احاول اقناعه ، انما سأبحث عن طريقة تمكنه من تركي وهجري دون أن يعذبه ضميره ويؤنبه وجدانه . بما تنصحني يافانيا ؟

ـ ليس هناك الا طريقة واحدة ، هي ان تجافيه وتكفي عن

حبه ثم تحبي رجلا آخرا .

ـ لماذا لا تحبه يا فانيا ؟

ـ أنا

ـ اجل أنت . انك غريبه سرا وعلانية . انك لا تستطيع الحديث عنه دون ان تشعر بالحقد ازاءه . ولقد لاحظت اكثر من مرة انك تحاول اهانته وتسويد صفحته ! .

ـ كفى يا « ناتاشا » لندع هذا الحديث .

ولكنها تابعت تقول :

ـ فانيا ! اريد ان اغادر هذا البيت وأرجو الا تزعل .

ـ ثقي انني لم أزعل يا « ناتاشا » .

ـ ان الحب قوي يا فانيا . وباستطاعةحب جديد ان «يحبسه»عني . ولنفترض انه قد عاد الي ، فلن يعود الا لحين .

ـ لا أدري يا « ناتاشا » ، انه يرغب في أن يتزوج خطيبته الثانية ، وفي الوقت نفسه يريد أن يستمر في حبك .

ـ لو كنت متأكدة وواثقة من انه يحبها لعزمت أمري وقطعت رأيي . وانني أرغب في ان اراه ولو مرة لاقرأ في وجهه كل شيء !

ولكنه لن يحضر ..

ـ ولكن يا « ناتاشا » أستنظرينه ؟

ـ لا « يا فانيا » انه عندها الآن . اعلم ذلك . ولكني ارسلت من يأتيني بالانباء

ـ عزيزتي « ناتاشا » هل تقوين على تركه ؟

ـ نعم .. ساعمل كل شيء في سبيله ، ساضحي بحياتي كلها من اجله على اني لا اطيق ان اراه معها ، يضحك واياها ، ويحدثها ، ثم ينساني والقت علي نظرة حزينة فقلت لها :

ـ « ناتاشا » ! ماذا حصل لك ! الم تقولي منذ لحظة .. لحظة فقط .. وقاطعتني قائلة :

ـ ستنفصل جميعا ، ولكن ما اقسى وما اصعب ان هو بدأ بنسياني .

ـ كفاك يا « ناتاشا » هدئي روعك .

ـ خمسة ايام مرت ، وهو يراود مخيلتي ، اراه في حلمي وفي يقظتي ، اراه دائما وابدا ، خذني اليه يافانيا .

ـ هدئي روعك يا « ناتاشا » ...

ـ بل خذني اليه يافانيا .. لقد فكرت في الامر ثلاثة ايام ، ومن اجل هذا انما انتظرتك . ارجوك يافانيا خذني اليه انه هناك ! هناك !..

لكننا سمعنا ضجة دوت عند مدخل البيت . فاصاخت بسمعها وهي تبتسم ابتسامة من لا يصدق . وامتقع لونها وقالت بصوت مختنق :

ـ يا الهي ! من هذا ؟!

وفجأة دخل « اليوشا » بثيابه القديمة كأنه مشرد ؛ لا عائلة له ولا اهل دخل والقى السلام قائلا :

ـ أأنت هنا يا « فانيا » ؟ انه ليسرني ان نكون نحن الثلاثة

معــا .

هائنذا « اليوشا » ابــن الاميــر الغني . ارأيت كيف أنا ؟

ولكــن هل تعتقد ان الخطيئة هي خطيئتي ؟ لا يا فانيـا ! سأشرح لــك كل شيء على الفــور .

وفجأة صوب نظره نحو « ناتاشا » فوجدها اقرب مــن الموت منها الى الحيــاة . كانت واقفــة بجانب الخزانة كأنها تخبيء فاقترت منهــا وقال بخجل وهو ينظــر اليــها مذعورا :

ــ « ناتاشا » ! ماذا بك ؟

فأجابت وهي منفعلة :

ــ لا شيء ! لا شيء ! اتريــد قدحا مــن الشاي ؟

ــ « ناتاشا » انني مظلوم ، انك تقسي علي ، الذنب ليس ذنبي ، لست كمــا تعتقديــن ، سأقص عليك كل شيء .

ــ علام تقص علي كل شيء ؟ ليس ذلك بضروري . ناولني يدك وخذ يــدي ولينتهي كل شيء .

وخرجت مــن ركنها محمــرة العينيــن ، قاطبة الحاجبين ، ملونــة الخديــن ، غاضة طرف عينها حتى لا تراه .

وهتف « اليوشا » مذعورا :

ــ انظر يا فانيــا ! انها تعتقد اني مذنب . عزيزتي « ناتاشا » ، ملاكي ، قلبي ، حياتي ، لست مذنبا ، لم اقترف عمــلا سيئا بالعكس ، بالعكس ... الواقع ان كل شيء يدينني ، كل الظواهــر تلقي التبعــة

علي ، خمسة ايام لم اعـد خلالها الى البيت ••
ـ ولكـن عليـك ان تذهب الى هنالك ••• لقد دعوك ••
كيف وصلت الى هنـا ؟
ـ كنت هنالك • ولكنني تظاهرت بالمرض وخرجت • هذه هـي المرة الاولى التي اكون فيها حرا ، فأقدر ان الملت منهم وآتي اليـك • والحقيقـة هي أن اتيت لاشرح لك كل شيء واقسم لك انني لست مذنبا هذه المرة في حقك ابدا •

ورفعت « ناتاشا » برأسها ورمته بنظرة حزينة ، وبادرها اليوشـا بالمثـل وثبت نظره فيها • وخيـل الي انهما سيرتميـان في احضـان بعضهمـا مـن فرط الحب كمـا كان في الماضي ، الا ان « ناتاشـا » تقدمـت منـه وارتمـت على كتفه وهي تبكي بصمت ، كمـن اخرستها السعادة

واذا « باليوشا » لم يتمالك نفسه ، يرتمي على قدميها ويقبل يديها ورجليـها ، ويتوسل اليـها كمـن طاش صوابه وخرج عن طوره وغاب عـن رشـده •

وتقدمت الى ناتاشا بكرسي فجلست عليه وكانت ركبتاها تصطكان وعيونها ترتجفـان مـن شدة الالم والعذاب •

القسم الثاني

الفصل الأول

ومرت دقيقة صمت ثم تبعها دقيقة ضحك وفرح وكنا نضحك جميعا كالمجانين .

وكان « اليوشا » يتحرق شوقا ، ليسرد علينا قصته ، وهو ينظر الي دائما كأنه يحمل أخبارا هامة ، وكانت « ناتاشا » تنظر اليه وترى في وجهه هيئة الجد ، يضفيها عليه زهوه الساذج ، فاخذت تضحك وشاركتها ذلك رغم أنفي ، وكان « اليوشا » ينظر الينا باستياء ، ويزداد حنقا وغضبا كلما ازددنا نحن ضحكا .

وخيرا توقفت « ناتاشا » عن الضحك عندما رأت « اليوشا » يتألم ويحنق ، ثم سألته :

ـ ماذا تريد ان تقص علينا ؟

ساقص عليكم كل ما وقع لي وكل ما هو واقع وسيقع .

ارى انكما تريدان ان تعرفا ابن كنت طوال خمسة ايام .

وسأتكلم الان . ولكن قبل ان ابدأ بالقضية ساقول شيئا مهما:

لقد خدعتك يا « ناتاشا » وغررت بك منذ مدة طويلة .

ـ خدعتني ؟

ـ اجل ، منذ شهر ، عندما ارسل لي والدي رسالة اخفيت امرها عنكما يبلغني فيها امر زواجي من خطيبتي الفتاة وان كل شيء قد تم ، وتقرر نهائيا ان اتزوجها ، ثم طلب مني فيها ان انسى جميع السخافات واطرد جميع الحماقات .

وهذه الرسالة قد اخفيتها عنك .

ـ لم تخفها عنا ابدا . فالواقع انك قصصت لنا كل شيء ، ولا داعي لان تعتز وتفتخر بهذا .

ـ مستحيل . لم ارو شيئا بعد ! انما هذا استنتاج منكما !

ان الشيء الاساسي لم أقله بعد .

نظرت الى « اليوشا » وقلت :

ـ اتذكر يا « اليوشا » انك حكيت لي كل شيء ، ولكن اجزاء مبعثرة وفي صورة افتراضات . وطلبت مني يومها نصيحة .

ثم قالت « ناتاشا » .

ـ لقد رويت كل شيء . آانت تستطيع ان تخفي شيئا ؟ ابوسعك المكر والخداع ؟ لا تعتز ارجوك .

ـ « ناتاشا » انت تعملين كل هذا على سبيل الانتقام . ولنسلم انني قد رويت كل شيء بأجزاء مبعثرة وبصورة افتراضات ، ولكن هل تعرفون اللهجة ، لهجة الرسالة ، انها الشيء الاساسي .

هذا ما اريد قوله .

ــ وكيف هي لهجة تلك الرسالة ؟

ــ اسمعي يا « ناتاشا » . اراك تمزحين وتسخرين بسؤالك هذا .

ارجوك لا تسخري مني ، اقسم لك أن الامر خطير . أنت لا تعلمي اللهجة ؛ انها من الشدة والقسوة بحيث ان ركبتي اخذت تصطك عند قرائتي للرسالة ، وشعرت بذراعي تسقط من كتفي ، والرسالة اخذت تتمايل بين يدي لفرط ذعري . انها لقاسية هذه اللهجة ،وهي المرة الاولى التي يخاطبني بها والدي ..

وان كنت تشك في قولي ، فأسمعى لهجة الرسالة

ــ لنرى لهجة الرسالة ، ولكن لماذا لا تكتم امرها عني ؟

ــ كي لا ارعبك من شدتها . كنت آمل أن ارتب الامور بنفسي ولكن بعد وصول الرسالة بدأت متاعبي ، واشتد عذابي ، حرت في امري لا اعرف ماذا اعمل ولا ادري ماذا افعل . ولقد قررت العزم على ان اجيبه بجرأة وبقوة وبكلام واضح .

الا انه لم يفتح لي مجال ولم يطرح علي أي سؤال .

كان يتصرف معي تصرف من يعتبر اننا لسنا على خلاف ، وليس بيننا اي نقاش . كان لطيفا معي الى ابعد حدود اللطف ورقيقا الى ابعد حدود الرقة والظرافة ، كان يتصرف كأن كل شيء قد تقرر . انه ذكي جدا يا « ناتاشا » ، وبالمناسبة .. هل تعلمي انه قد اعطاني مالا بالامس . وهو الذي قطعه عني مدة ستة اشهر على سبيل العقوبة

انظري ... هذا هو المبلغ ... واخرج مـن جيبه حزما مـن الاوراق النقديـة ووضعها على المنضدة ثم تابع يقول :

ـ كيف اعترض عليه ؟ كيف ارفض قراره ؟ كيف أعصي اوامره ؟ احلف لكم انه لو اساء معاملتي لرفضت امره واجبته بجـرأة ولكنه سيطـر علي ، تغلب على عاطفتي وعلى عقلـي .

ما عساي ان افعل ؟ ارشداني وانصحاني ! ولكـن لـن تفيـد النصيحـة لان كل شيء قد انتهى .

هل تعتقدان انني لا املك ارادة ؟ انكمـا مخطئان . والبـرهان على ذلك انني رغم الظروف هذه ذكرت لوالدي انه مـن العار ان اتزوج مـن أجل المال . وانني متوسط الحال واعتز بذلك لاني شبيه بكل الناس ولا اريـد ان اتميـز عـن احد ... ثم قلت له بصراحة اننا لسنـا بأمراء الا اسمـا ! ولكـن ما الفائدة ولا نمـلك صفات الامراء غيـر الاسـم ؟! وعلى الاجمـال انني افرغت كل ما في نفسـي مـن قـوة وعنف ، وكل ما كان يجيش في نفسي مـن غليـان وفوران ، بلا لف ولا دوران ، ولم يجب علي والدي بشيء بل اخذ يلومني ويطلب مني التقرب من الاميـرة وابنتها وراح يضرب على هذا الوتـر ..

ـ لا بأس . ولكـن قل لي كيف انتهى الامر ؟ وما الذي قرره ؟

ـ الله اعلـم ! لم يقرر شيئا البتة ، ولكـن في ذلك اليـوم وقع لي حادث غريب قد زلزلني وهزني هزا ، وادهشني وصعقني صعقا ، اذ ان والدي والاميـرة قد قررا زواجي نهائيـا مـن خطيبتي الفتاة ورغم انني في هذيـن الاسبـوعيـن الاخيريـن لقيت خطيبتي « كاتـريـن »

وجلسنـا معا فاننا لم تتطرق الى الحديث عـن الزواج او الحب . ولقد عرفت كاترين منـذ العام الماضي ولكني لم افهمها ولم أر فيها شيئا يومذاك ... لانني كنت طفلا . اما الآن فانني لمست فيها روحا صافيـة ، ورقـة متناهيـة ، ونفسا عاليـة . انها انسانـة اصيـلة ، انسانـة مستقيمـة قوية ، قوية لان نفسها أبيـة ، وفوق ذلك انها صبيـة في السابعـة عشرة مـن عمـرها . في بيتها صامتة وفي المجتمع ناصتة ، انها غيـر ثرثارة ، وهي تخشى ابي وتطيع الكونتيسة طاعة عميـاء .

انني احبها يا « ناتاشا » ويجب ان تنفصل نهائيـا وعلى الفور دون فضيحـة .

ولكـن منـذ اربعة ايام قررت ان اعترف « لكاتيـا » بكل شيء . عزمت على ان استميـلها الى جانبنـا ثم انهي المسألة دفعة واحدة .. وذعـرت « ناتاشا » قائلة :

ـ تعتـرف لها ؟ تروي لها ماذا ؟

ـ بكل شيء ، ولكـن اسمعي يا « ناتاشا » لقد قررت منذ اربعة ايام ان ابتعـد عنـك ! لذلك ظللت غائبا اربعة ايام ، لاني لو بقيـت معك لترددت وعدلت عـن قراري . وكنت دائما اتردد في المجيء اليـك ولكـن اخيرا استجمعت قواي ومضيـت اليـك بقرار نهائي وهاأنذا اعـود اليـك بالقـرار .

ـ ماذا قلت لها ؟ ماذا حصل ؟ قل ! اسرع ـ المسألة بسيطة جـدا ، ذهبت الى خطيبتي رأسا باخلاص وجرأة وجلست واياها مدة ساعتيـن وحدثتـها بكل شيء ، ابلغتها ان زواجنا مستحيل ، رغم رغبتهم فيـه ،

واخبرتها انها الوحيدة التي تنقذني وكشفت لها عن كل شيء •

اخبرتها عنك ، وتصوري انها لم تكن تعرف قصتنا ، وليتك رأيت مدى تأثرها وحزنها عندما سمعتها • اخبرتها عن هربك معي وتركك لاهلك ، من اجلي • رويت لها القصة كاملة : اننا نعيش وحدنا ، اننا معذبين ، اننا مضطهدين ، اخبرتها اننا بحاجة لها ، واننا نلجأ اليها بغية ان تقف بجانبنا ، فتعلن انها لا تريد ان تتزوجني وان هذا هو السبيل الوحيد لبلوغ غايتنا ونجاتنا ، واننا اصبحنا لا ننتظر المعونة من غيرها •

كانت تستمع الي بشغف وهي تقف مشدوهة امام هذه القصة ، وتنصت الي بكثير من حب الاستطلاع والعطف ! كأنما روحها انتقلت الي وهي تنظر بحزن تولي نظرها شطري ، كأنما هي انت ! كأنما هي « ناتاشا » من نبل اخلاقها وطيبة قلبها • واخيراوعدتني والدمع يترقرق في عينيها والايمان يتألق في مقلتيها ، والدم يتسعر في وجنتيها ، وعدتني بأن تساعدني بكل ما اوتيت به من قوة ، ثم امطرتني بوابل من الاسئلة عنك ، وابلغتني رغبتها في التعرف اليك ، وانها تحبك حبا جما ، تحبك حب الاخت لاختها ، وتمنت لو تحبها انت ايضا • وحينما علمت انني لم ارك منذ خمسة ايام ارسلتني اليك على الفور •

وارتسمت علامات التأثر على وجه « ناتاشا » وصرخت وهي تنظر اليه •

ــ هل كانت فرحة مرحة عندما ارسلتك الي !

ــ اجل يا « ناتاشا » • كانت سعيدة جدا لانها قامت بعمل انساني

كبير • ارسلتني وهي تبكي ، لانها كانت تحبني • لقد اعترفت لي بانها قد بدأت تحبني لانني أظهر لها صادقا شريفا •

واتفقنا على ان تذهب هي غدا الى « الكونتيسة » وتخبرها بانها لا تحبني ولا تريد الزواج مني ، على ان أذهب الى ابي واخبره بجرأة وبقوة بكل شيء ، لقد لامتني لانني لم اكاشفها الامر من قبل ، وهي تمقت والدي لانه يحب المال ويسعى وراءه •

وتواعدنا على ان نكون اخا واختا ، انها نبيلة يا « ناتاشا » ، لا تظلميها ،ولا تحكمي عليها بالسوء ، ليتك تعرف قصتها والشقاء الذي تعانيه ! ليتك تعلمي مدى ما تشعر به من قرف واشمئزاز مع «الكونتيسه» زوجة ابيها •

« ناتاشا » • لقد خلقتما كأختين ، أختان في طيبة قلبكما ، شقيقتان في عذابكما ، صديقتان في اماتكما ووفائكما • ليتها تراك ، اذ لتحبك حبا ما بعده حب • سأجمعكما يا « ناتاشا » وينبغي عليكما ان تتحابا • سأبقى الى جانبكما واتأملكما ، اتأمل هذين الملاكين المقدسين • وعيني اتحدث عنها يا « ناتاشا » ولكنك تعلمين انني احبك اكثر من اي شخص اخر • أكثر منها • انت لي كل شيء، كانت « ناتاشا » تنظر اليه بصمت ، في حب يمازجه‌حزن، وفي ود يخالطه شقاء ، كأنما كلمات اليوشا كانت تعذبها وتداعبها في آن واحد •

ثم تابع ناتاشا قائلا :

ـ لقد كونت رأيي في « كاترين » منذ خمسة عشر يوما حينما

كنت ازورهما كل مساء .

وعندما كنت اعود الى البيت ، اخلد لفكري واوازن بينكما .

ــ أيتنا غلبت الاخرى !

ــ كانت الموازنة سجالا . تارة انت وتارة هي . ولكن الرجحان كان دائما حليفك .

ــ ولكنك تقول انها تحبك وقد لاحظت ذلك بنفسك ! الا تشفق عليها وتحزن لها ؟

ــ بلى ... اشفق عليها . ولكننا نحب بعضنا بعضا نحن الثلاثة واذن ...

ــ اذن فالوداع .. الوداع .

قالت « ناتاشا » ذلك برفق وهي تنظر اليه .

ولكن ضوضاء خفيفا قطع هذه المحادثة فجأة ، وتحولت الانظار نحو الباب عندما فتحته الخادمة « مافرا » وقالت بلهجة عجيبة :

ــ هلا تفضلت وجئت ؟ ان في الباب من يطلبك ؟

ــ من يطلبني في هذه الساعة ؟

قال اليوشا ذلك وهو مندهشا وتابع .

ــ سأرى !

ووقف « اليوشا » عند المدخل ينظر الى الخارج فوجد عربة أبيه واقفة خارج البيت وقد منها الامير وأتى الى منزل « ناتاشا » بنفسه .

فنظر الينا اليوشا نظرة سريعة وقال :

ـ هذا غريب ! لم يحدث قبل ذلك قط !

وتطلعت اليه « تاتاشا » بقلق وارتعدت خائفة وامتقع لونها ، وشحب وجهها ثم استندت الى منضدة وجعلت تنظر مضطربة وترقب باهتمام دخول الامير ...

فاقترب منها « اليوشا » ودمدم باضطراب ولكنه كان مسيطرا على نفسه :

ـ لا تخافي يا « تاتاشا » .. لن اتركه يسيء اليك طالما انا هنا ..

ثم انفتح الباب ودخل منه الامير الكسندر والد « اليوشا »..



الفصل الثاني

لفنا الامير جميعا بنظرة يقظة وتفرس بوجوهنا كل بدوره . ولم نعلم ان كان قد جاء عدوا او صديقا .

كنت قد رأيته قبل ذلك . انه شاب يبلغ الخامسة والاربعين من عمره فارع القامة ، قوي البنية ، جميل الوجه ، متناسق الاجزاء ، ذو عينين عسليتين واسعتين ، واسنان بيضاء كبياض الثلج . وان يديه ورجليه لتثير الدهشة بجمالهما . وشعره الاشقر لما يخالطه الشيب بعد ، وكانت حركاته تدل على مظاهر الشباب والفتوة ، واذا نظرت اليه لتحسبه الاخ الاكبر « لاليوشا » لانه لا يمكن لنا ان نحسبه أبا لشاب في مثل هذا السن . وكان سريع التغير ، حسب الظروف والاوقات اذ ينقلب على حين غرة من المودة الى الاستياء والحنق .

تقدم من « ناتاشا » وقال وهو يلقي عليها نظرة واثقة :

ــ اعلم ان وصولي الى المنزل دون سابق انذار او اعلام ، امر خارج عن قواعد اللياقة واصول التهذيب . ولكن ارجو ان تفهميني وتعتقدي على الاقل بانني شاعر بغرابة مسعاي . مني علي بعشرة دقائق من وقتك وستحيذين ما انا بصدده .

قال ذلك بلطف وتهذيـب .

ـ تفضل واجلـس .

فجلـس ثم بدأ يتكلم وهو يشيـر الـى ابنـه :

ـ اسمحي لي ان اوجه « لاليوشا » كلمتيـن :

يا « اليوشا » حيـن تركتنـي ولم تودعني جاء مـن يخبرنا ان « كاتريـن » منهوكة القوى وفي حالة سيئـة . وهمت الكونتيـة ان تسرع لها لولا ان دخلت « كاتريـن » فجأة وابلغتنـا انها لا تريد الزواج منـك بل ستلتحق بديـر وتعمـل راهبة . واخبرتنـا انك سألتها المعونة واخبرتها بحبك « لناتاشا » . والواقع ان هذا قد اثر فيها اصبحت في حالة يرثى لها مـن الاضطراب والجزع . وكان لهذا في نفسي الصدى القـوي والمخافة الكبـرى ، ولما كنت عائدا الى البيت مررت بالشارع ولمحت النور مـن النافذة . فاستولت علي فكرة لاحقتني منـذ زمـن بعيـد . فلم استطع ان اقاوم فتنتها واغرائها فدخلت . ولكـن لماذا ؟

سأقول كل شـيء .

ـ آمل ان افهم ما تقصد واقدره حق قدره .

ثم تابـع الامير يقول :

ـ فلـن سمحت لنفسي ان أزورك هذا المساء لانني اعرف مـن الخاطـب ومع مـن اتكلم . انني اعرفك جيدا منذ مدة طويـلة ، رغـم انـني جنيـت عليـك واجرمت في حقك . وانت تعلميـن ان بيني وبين والدك خلافات قديمة ، والحقيقة هي انني قد طغيت على والدك كثيرا وظلمـته لانني اخطأت الظـن وضللت . لقد صدقت جميـع الوشايات

وجميع الاكاذيب التي رجمت حوله وشيعت عنه . وعندما هجرت اهلك خفت على « اليوشا » ولكنني علمت اخيرا ان شكوكي قائمة على غير اساس ، اذ علمت بعد ان راقبتك انك قطعت صلاتك مع اهلك . وعلمت ايضا ان والدك يعارض زواجك من « اليوشا » معارضة لا هوادة فيه . ثم انك بالثروة الجمالية التي تتمتعين بها لم تحاولي ان تسلطي يوما ما هذا الجمال على « اليوشا » لتكرهينه على الزواج منك لانك لا تريدين ان يقال عنك انك تركضين وراء عريس من سلالة امراء . بل العكس ، اذ انك قد اظهرت لنا احتقارك وعدم تهالكك على الانتماء الى اسرتنا العريقة . ولعلك كنت تنتظرين يوما اذ آتي بنفسي لارجوك بأن تتشرفي بقبول ابني زوجا لك .

وهذا ما رفع من شأنك وقدرك . ولقد كنت احاول دائما ان اقاوم زواجك بابني بكل ما اوتيت به من قوة ، وظللت لك عدوا لا يتزحزح عن عدوانه لك . ولا اخفي عنك الاسباب التي دفعتني الى مناصبتك العداء وهي : انك لا تملكين لا اسما ولا ثروة .

ونحن بحاجة الى مال وصلات لذلك لم ارغب في ان ادع الفرصة تفوتنا وان تفلت كاترين من « ايدينا » وهي فتاة غنية جميلة من عائلة محترمة . ذكية وقوية الشخصية وهي لا تزال طفلة غرة من نواحي كثيرة . كنت اعمل واجهد من قلبي ، وخيل الي انني بلغت غايتي المنشودة .

الا ان الحادث الذي وقع منذ ساعة فحسب في منزل الكونتيسة قد قلب ظنوني رأسا على عقب . والامر الذي فاجأني بوجه خاص هو الجد

العنيد في « اليوشا » وهذه الصلابة في تعلقه بك . لقد تغير « اليوشا » كثيرا واصبح عاقلا . وأشد ما ادهشني اليوم هو الاسلوب الذي اتبعه والطريقة التي مارسها في الخروج من هذا المأزق . وبرهن ايضا عن رفاهة في التفكير والارادة . لقد اختار اضمن الطرق وافضل الاساليب ليبريء موقفه ، فحس في قلب الانسان ارهف اوتاره اقصد روح الغفران والرد على الشر بالخير . مضى الى الانسانة التي اساء اليها ، فطلب منها العطف والمعونة واعتمد على كبرياء المرأة التي اصبحت تحبه ، فاعترف لها بأنه يحب غيرها ، وفي نفس الوقت ايقظ في نفسها العاطفة نحو غريمتها وحصل منها على الصفح والمغفرة حتى وعدته بصداقة اخوية مخلصة .

ثم وجه حديثه الى ناتاشا قائلا :

ألم تعلمي بهذا الا في هذه اللحظة ؟ امخطىء انا ؟

ـ لست مخطئا .

قالت « ناتاشا » وقد احمر وجهها وبرقت عيناها ثم تابعت :

ـ لم أر « اليوشا » منذ خمسة ايام وقد وضع مشروعه ونفذه دون علمي ومعرفتي .

ـ اعرف ذلك . وكل هذا بسبب تأثير الحب فيه ، وبسبب العزيمة الصادقة والصلابة والنبل والشعور بالواجب .

واثناء عودتي الى المنزل فكرت باتخاذ قرارا حاسما وهو ان مشروع الزواج له قد تعطل . وليس بالامكان استئناف الكلام والسعي فيه . انني احب ولدي حبا جما ولا اريد أن اعذبه في سبيل

المال والجاه . وصفوة القول : انني انتهيت الى نتيجة حاسمة وهي ان اليوشا يجب الا يتركك انت له وهو لك ، واذا تركك فهو ضائع لا محالة.

وهل تريدين ان ابسط لك سبب مجيئي اليك الان ؟

جئت لافي لك دينا لك علي ، لاسألك ان تحققي سعادة ابني بقبوله زوجا لك ! وارجو منك الا تحسبيني ابا رهيبا او رجلا غريبا، ولا تحسبين الان بانني موقن بانك موافقة على هذا الزواج استنادا الى ما اسلفت من تضحيات في سبيل ولدي ، ليس امر ولدي هو الذي حملني على الحضور اليك فحسب بل جئت لاصبح صديقك الان ! فاسمحي لي بأن احاول ان اكون جديرا بهذا الحق .

قال هذا وانحنى امام « ناتاشا » باحترام منتظرا جوابها .

لقد بلغ في كلماته وصدق عاطفته ما جعله يأسرنا جميعا ويسيطر علينا .

لقد اسر قلب « ناتاشا » النبيل فنهضت كما نهض وهي بحالة من التأثر العميق والانفعال الشديد ومدت يدها دون ان تنبس ببنت شفة . فتناول يدها وقبلها برق وعاطفة وكان اليوشا قد خرج عن طوره لشدة حماسته فقال :

ـ الم اقل لك « يا ناتاشا » الم اخبرك انه انبل رجل على وجه الارض ؟ أترينه الان ؟

وتهالك « اليوشا » على قدمي والده وجعل يقبلها ، وتناول يده وطفق يداعبها ثم غرقت عيناه ببركة من الدمع الطاهر المقدس ، وجعل يبتهل الى الله بحمده على فعله ويطلب المغفرة له وطول العمر لوالده

ورد الامير على ابنه بقبلة مماثلة ولكنه ضبط اعصابه وسيطر على اعضائه ، ووضع حدا لهذا المشهد العاطفي المؤثر كأنما يخجل من ان يظهر عواطفه •

قال وهو يتناول قبعته :

استأذنكم الان • هائنذا ذاهب • الا انني اترككم على امل ان القاكم في اقرب وقت ممكن ، وانتظركم بصبر فارغ وشوق محرق •

فاجابت « ناتاشا » وهي مضطربة :

ـ اود ان احبك باسرع وقت !

ـ مااشرف نفسك وما اصدقك ! وان صدقك لاثمن من اللطف الذي يتظاهر به غيرك من الناس •

ـ كفى مجاملة الان •

ـ كما تريدين يا « ناتاشا » ولك ما تشائين • ولكن اسمحي لي بكلمتين اخيرتين • لقد وصلت الي رسالة هامة يطلب فيها ان اساهم بلا ابطاء في قضية مستعجلة • واليوم هو الثلاثاء ، سأتغيب الاربعاء والخميس والجمعة ثم اعود لرؤيتك يوم السبت • ولكن هل لي بسهرة كاملة معك ؟

ـ طبعا • طبعا وسأنتظرك على أحر من الجمر •

ـ ما اسعدني بهذا ! انني ازداد معرفة بك يوما بعد يوم •

ثم تقدم مني وقال :

ـ لا استطيع التعبير لك عن سروري بتجديد التعارف بيننا

اجبت مبتسما :

ـ لقد التقينا قبل اليوم • وتعارفنا معرفة سطحية •

حتما في منزل الامير س •• السنة الفائتة •

ـ آه ! تذكرت الان • ولكن اعاهدك انني لن انسى هذه اللحظة الجميلة والامسية اللذيذة التي ستبقى ماثلة في ذكرتي لا تبارحها ابدا وابدا •••

ـ وانا كذلك ، لن انسى هذا اللقاء الظريف ، والصديق اللطيف • ونعم الصديق المخلص انت • كنتم انتم و « ناتاشا » و « اليوشا » ولا تزالون اصدقاء وآمل ان انضم الى مسكنكم واصبح واحدا منكم

ـ نعم • آمل ان يتم ذلك ويجب ان نجتمع نحن الاربعة •

قالت « ناتاشا » ولقد اضاء وجهها بالبهجة والسرور وارتسمت على صفحتها علامات الحبور ، وعاطفة عميقة عمياء تلهمها ، حين رأت ان الامير لن ينسى ان يتقرب مني

ثم استطرد الامير يقول :

ـ اعجبت كثيرا بروايتك ، كما لقيت الكثير من المعجبين بموهبتك • ويسرني ان اخبرك بانني اعرف اثنتين من المعجبات المتحمسات لروايتك وهما « الكونتيسة » و « كاترين » • وهما يرغبان في التعرف اليك شخصيا •

ـ سيكون لي شرف عظيم ان تشرفت بمعرفتهما ! وسيسرني ذلك لان علاقاتي قليلة في هذه الايام

ـ اذن ، هلا تفضلت باعطائي عنوانك ؟ اين تسكن ويسرني أن •••

ولكـــني قاطعته قائـــلا :

ــ لك ما تشاء يا اميري . انني اسكـــن في شارع ن .. عمـــارة كلــوجـــن .

فشـــد في ذلـــك وهتـــف :

ــ عمـــارة كوجـــن ؟ هل تسكـــن هذا البيـــت منـــذ مدة طويلة ؟

قلـــت وانا انظـــر اليـــه :

ــ لا . لا اسكـــن فيه منذ موة طويلة ... وهوذا رقم منزلي : ٤٤

ــ ٤٤ ؟ وتعيـــش وحدك ؟

ــ اجل اعيـــش وحدي .

ــ لا بأس . يبدو لي انني اعرف هذا المسكن . وسيسهل علـــي حتمـــا معرفة منزلك . وسأذهب لان ثمة أشيـــاء كثيرة ارغب في ان اقولها لـــــك ،

والان الى اللقـــاء .

ثم تقدم منـــي وصافحني وقبل يد « ناتاشا » وقبل « اليوشـــا » وخرج راجيـــا اليوشا بالا يلحق بـــه .

وظللنا نحـــن الثلاثة صامتيـــن مضطربيـــن اشد الاضطراب ، لا حـــركـــة ولا كلمة كل ينظر بالاخر مندهشا . لقد تم كل شـــيء بلمحـــة البصر وطرفة العيـــن ، وشعرنا بأن كل شيء قد تغير على حيـــن غـــرة . وان هنـــاك شيـــئا جديدا لا يزال مجهولا ومبهوما .

ــ اخيرا قالت « ناتاشا »

ــ اليوشا . يجب ان تذهب غدا الى كاتريـــن .

فاجابهـا اليـوشـا .

ـ لقد فكرت بذلك . وسأذهب حتمـا .

ـ ولكـن سيحز في قلب كاتريـن ان تراك .. فما العمل ؟

ـ لست ادري .. ولكني قد فكرت في الامـر . سأتخذ قرارا لان كل شيء قد تغيـر الان .

فابتسمت « ناتاشا » ونظرت اليـه نظرة حب وعطف .

ثم تابع اليوشا قائلا :

ـ مـن الافضل ان الحق به وسأعود اليـك غدا عند الفجر .

ـ اذهب يا حبيبي ، وغدا ترجع الـي متى استطعت . ولكـن هذه المرة لـن تغيـب عني خمسة ايـام ..

قالت ذلك « ناتاشا » وهي تنظر نظرة خبيثة ومداعبة في آن واحد، ثم هتف « اليوشا » :

ـ الا تذهب معـي يا فانيـا ؟

فاجابته ناتاشا :

ـ بل سيبقي هنا . لان ثمة امور يجب ان تتحدث فيها .

ـ وهو كذلك . الى اللقاء جميعـا .

بقيت انا و « ناتاشا » وحدنا . وظلت هي صامتة كأنمـا تبحـث عـن شيء او تفكـر بمـا ستقـول .

وقالـت اخيـرا :

ـ اسمع يا فانيـا . استذهب غدا الى منزل اهلي ؟

ـ حتمـا سأذهب

ـ اذن تحدث الى والدتي عمـا حصل • ولكـن لا تخبره هو أبدا

ـ انا لا اتحدث له عنك ابدا ، وأنت تعلميـن ذلك •

ـ صحيـح • انمـا سيعرف كل شيء مـن مصادر اخرى ، ولكن عليـك ان تراقبه وتلاحظ ما سيقوله ، وكيف سيتقبل النبأ • قل لي يـا فانيـا • هل يعقل ان لا يلعنني بسبب هذا الزواج ؟

ولكني اجبت بسرعـة :

ـ على الاميـر ان يتدبـر الامـر ويصالح والدك حتمـا • ومتى تم ذلك تذللت العقبات وزالت •

ـ ليت هـذا يتم •

ـ لا تقلقي يا « ناتاشا » سيـتم كل شيء وفق ما ترغبيـن •

لقد انفتح الطريق امام سعادتك •

فنظرت الي نظـرة طويـلة وقالت :

ـ فانيـا ، ما رأيك بالامير

فـاجبتهـا :

ـ اذا كان صادقا فيما قال ، وأمينا فيما وعد ، فهو في رأي الانسان النبيـل العظيم بعينـه •

ـ هذا رأيي ايضـا •

ولكـن قل لي ، الم أسيء اليـه حيـن قلت له انني اود ان احبه باقصى سرعة ممكنـة ؟

ـ لا اظـن • لان ليس في هذا الكلام ما يسيء !

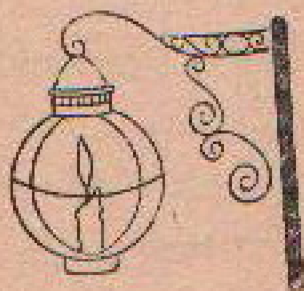
ـ ولكـن اليس فيـه شيء مـن الحماقة ؟ اليس اعني انني لا احبه

بعـــــد ؟

– لا اخال ان على كلامك مأخذ . كان كلامك ساذجا عذبا . والله ليكون غبيا ان لم يقدر كلامك حق قدره !

– انني متعبــة يا فانيـا . عد الان الى بيتك وتعالي الي غدا متى استطعـــت .

وقفلت عائدا الى بيتي . وحيــن وصلت ، خلعت ثيابي فـــورا ، واضطجعت على سريري انشد النــوم .



الفصل الثاني

وفي اليوم التالي بينما كنت خارجا من مسكني قاصدا منزل اخمتيف ثم منزل « ناتاشا » اصطدمت بحفيدة العجوز « سميث » تقف عند عتبة الباب وهي آتية الى بيتي . ولقد راودني شعور بالفرح عندما شاهدتها . ولكني لم اعرف لماذا ! ولقد زاد عجبي بها في وضح النهار . كانت تستوقف كل انسان يمر بجانبها وتسترعي انتباه جميع المارة في الشارع : قامة قصيرة ، نظرة عنيدة خرساء كأنها لغز ، شعر ناعم متبعثر خصلا ، عينان سوداوان كسواد الليل . ان اول ما يلفت النظر فيها هي نظرتها التي يلتمع فيها ذكاء حاد وتشيع فيها تحدي وريب .

كانت تبدو لي انها مصابة بمرض مزمن ، وداء مضن ، بطيء ، ويظهر ذلك في العلائم التي كانت تبدو على وجهها الشاحب الأصفر المتقع . انه يهدم جسمها شيئا فشيئا لا محالة ، فهي ناحلة العود ، مشوهة الجسم ، شاحبة اللون .

هتفت قائلا :

ـ اهذا انت ؟ ادخلي .

اجتازت العتبة يبطء وهي تجول في نظرها في انحاء الغرفة وتنظر نظرة شك وريب ، الى ما احدثه الساكـن الجديد مـن تبديل وتغيير . واخيرا دمدمت تقـول .

ـ جئت لآخذ الكتب

ـ نعم ؟ كتبك ؟ آه ! هذه هي خذيها . لقد حفظتها خصيصا لك .

فرمقتني بنظرة مستطلعة ، وارتسم على وجهها بما يشبه الابتسامة الخفيفة ، الا ان مشروع الابتسامة قد زال وفشل وحل محل المشروع القديم وهو القسوة والعناد في النظرة .

ثم سألتني :

ـ هل حدثك جدي عني ؟

ـ لا لم يحدثني عنك .

ـ اذا كيف عرفت أنني سآتي ؟

ـ لقد لاح لي ان جدك لا يمكنه العيش وحيدا ، لذلك لا بد له مـن قريب يعينه على أمره لانه كان ضعيفا هرما .

ولكن فيم تفيدك هذه الكتب ؟

ـ لقد كان جدي يعطيني فيها دروسا ، حينما آتي اليه .

ـ هل أتيت بعدئذ ؟

ـ لا لم آت لانني مرضت .

ـ هل لك عائلة ؟ أب ؟ وام ؟

فتطلعت الي مذعورة ، وقد قطبت حاجبيها ، ورشقتني بنظرة قاسية مـن عينيها ، واطبقت شفتيها ، ثم استدارت يبطء نحو الباب دون ان

تجبني على سؤالي . فتبعتها مشدوها ، فاذا بها تتوقف عند العتبة وتلتفت الي التفاتة خفيفة ، وتسألني عن اخبار آزور :

ـ مم مات آزور

فاقتربت منها بهدوء ثم رويت لها بسرعة الحكاية ، كانت تنصت باذن صاغية وقد اطرقت رأسها وادارة ظهرها . ثم رويت لها ان العجوز قد ذكر الشارع السادس وهو يموت ، وربما ان شخصا عزيزا على العجوز قد يسكن في ذلك الشارع لهذا انتظرت ان يحضر شخص ليسأل عنه . لا ريب في انه كان يحبك كثيرا .

قلت لها ذلك وانا ابتسم لها .

فدمدمت آسفة :

ـ لا . لم يكن يحبني .

كانت تقول هذا وعلامات التأثر الشديد تبدو عليها ، ولعلها قد فعلت الكثير من اجل خنق انفعالها وتأثرها ، الا ان وجهها ازداد شحوبا ، والقلب في خفقان ، والدم في جريان ، والعصب في هيجان ، واخيرا انفجرت باكية ، وذرفت الدمع مدرارا ، ثم سيطرت على نفسها وسألتني :

ـ اين السياج ؟

ـ اي سياج !

ـ الذي مات بالقرب منه

ـ سأريك اياه ... ولكن ما اسمك ؟

ـ ليس ضروريا ....

ـ بل من ضروري ان اعرفه !

ـ لا شيء . ليس ليس لي اسم .

قالت ذلك وهمت بالخروج على حين غرة فاستوقفتها وقلت :

ـ اسمعي ايتها البنية الصغيرة ! لا اريد لك سوى الخير . لقد اشفقت عليك منذ ان رأيتك بالامس تبكين في ركن السلم . ان جدك قد ذكرك لي قبل موته والواقع انه قد عهد بك الي ! فلماذا تخافيني وتهابيني ؟ لا شك انك فقيرة ويتيمة تعيشين في كنف الاخرين ؟!

كنت اهدىء من روعها في حرارة ، ولقد كنت منجذبا اليها انجذابا لا يقاوم ، الا ان كلماتي قد أثرت فيها بعض الشيء ، حين قالت بلهجة لطيفة وبصوت منخفض :

ـ هيلين .

ـ اسمك هيلين ؟

ـ نعم .

ـ هل باستطاعتك ان تجيئي الي من حين الى حين ؟

ـ لا استطيع ... لا أعرف .

ثم دقت الساعة فانتفضت هيلين ذعرا وقالت :

ـ كم الساعة الان ؟

ـ لعلها العاشرة والنصف .

ـ يا الهي لقد تأخرت .

وهرولت على الفور ولكني امسكت بها قائلا :

ـ ما الذي يخيفك ؟ هل تأخرت عـن الوقت ؟

ـ اجل ٠ اجل لقد خرجت خلسة ... دعني ٠

ـ اسمعي قليـلا ٠ انك ذاهبة الى « فاسيلي اوستروف » وانا ايضا ذاهـب الى الشارع « ١٣ » وبما انني قد تأخرت عـن موعدي فانني انـوي استئجار عربة ، وستأتي معي لاقودك الى منزلك بأقصى سرعة ٠

فهتفت تقـول وقد استبد بها الذعـر :

ـ مستحيـل .. يجب الا تأتي الى بيتي ٠

وتشوه وجهها مـن الذعـر الشديد ، واحمـرت وجنتاها ... لمجرد تصورها انني سأذهب الى حيـث تسكـن ٠

ـ ما بالك ؟ ولكنني قلت لك انني ذاهب الى الشارع « ١٣ » لقضاء بعض الاعمـال ٠ وسأعرج في طريقـي على منزلكم لاوصلك فقط ولـن اتبعـك ابدا ... هيـا بنـا !..

وهبطنـا على عجل ، واستوقفنا اول عربة ثم صعدت وهيلـين اليها

ومـن الواضح ان هيليـن كانت على عجلة مـن امرها لانها قبلت ان تركب بالعربة معي ٠ ولكني لم اجسر على سؤالها شيئا ٠ حتى اذا سألتها : ممـن تخافيـن في البـيت ؟! كادت تقفز مـن العربة ٠ وكانت جلستها في العربة قلقة جدا ، اذ انها تمايل كثيرا وتخاف على كبتها مـن الانزلاق حتى اذا ما انكشف ساقها رأيت قدميها عاريتيـن في حـذاء ممزق ٠ ورغم انني قررت الا اسألها شيئا لم استطع ان امنع عـن نفسي هذا السؤال :

ـ كيف تستطيعيـن الخروج عارية القدميـن في هذا البرد وهذه

الـرطـوبـــة ؟

أليس لديك جوارب ؟

فاجابت بلهجـــة متقطعـــة :

ـ ليس لـــي جـــوارب •

ـ رباه ! ولكنك تسكنيـن عنـد احد الانام (الناس) ولك الحق بان تطلبي جـــوارب •

ـ يعجبنـي الامر هكـــذا •

ـ ولكــن هذا يؤذيــك ، ومــن الممكــن ان تموتي ؟

ـ سيـــان عنـــدي •

كانـت تجيـب على اسئلتي عـن ظهـر قلب ومـن الواضح انها كانـت تغيظها وتكـره الاجابة عليها •

ـ انظـري •••• هناك مـــات !

قلت لها وانا اشيـر الى المكان الذي مات فيه العجوز مع كلبه • فنظرت الى المكان بحذر ثم تحولت شطري وقالت لي بتوسل :

ـ ارجوك ، لا تتبعنـي • سآتي اليـك متى استطعت •

ـ لا بأس • لـن اتبعك ، ولكــن ممــن تخافيــن ؟

ـ لا اخاف مـن أحد •

قالت هذا بحنق واستيـاء •

ـ ولكــن منـذ برهة قلت انها ستضربك !؟

ـ لتضربنـــي !

اجابت وهي ترفع شفتها العليـا احتقارا ، وبلهجة مرة ، وقد اخذت

عيناها تلمعـان ، وبدأت قدماها تصطكان ويداها ترتجفان • ثم كررت :

ــ لتضربني • لتضربنـــي !

وصلنا الى شارع « فاسيلي اوستروف » ، فقفزت مــن العربة وهي تنظــر حولها • ثم قالت لي :

ــ ارجوك لا تبعني • سآتي اليك سآتي •

واطلقت ساقيها للريـــح ، وكانت تنظــر حولها كل لحظة وهي تسير بخطى سريعة •

وكان حب الاستطلاع قد بلغ مني ذروته ، فوقفت المحها مــن بعيد لا اعرف اي مدخل ستدخل ، لقد وعدتها بالا اتبعها ولكــن شعورا ثقيــلا استبــد بي ، يشبه الشعور الذي حدث لي عندما مات جدها •

كانت تسيــر سيرا يشبه الركض ، وانا الحق بها وارقبها • واخيرا دخلت دكانا ، وبقيــت فيه لحظة ، ثم خرجت وهي تحمــل انــاء مــن اجــر ، ولكنها لا تحمل كتبها هذه المرة • ثم اجتازت طريقا قصيرا ودخلت الى منزل حقير ، لتحسبه مهجورا ، مؤلف مــن طابقيــن ، مبني مــن الآجــر ، مصبوغ بلون اصفــر فاقــع

ويرى المرء مــن بعيــد تابوتا صغيرا موضوعا على النــافــذة ، اشارة ، الى ان هنا مصنع للتوابيت •

اجتــزت الشارع وتقدمت مــن الباب فقرأت على لوحة من الخشب موضوعة فوق الباب : « منــزل الست بوبنوفا » •

وما ان فرغت مــن قراءة الاسم ، حتى تعالى الصراخ مــن الطابق العلوي ، مــن باحة السيــدة « بوبنوفا » وسمعت صرخة حادة ، تبعتها

الشتائم واللعنات . فنظرت من خلال فتحة تقود الى المنزل امرأة سمينة نافرة العروق ، محمرة الوجه ، مرطبة الصفحة لكثرة العرق الذي يسيل على وجهها . كانت تصب الشتائم تلو الاخرى على المسكينة هيلين ، وتمطرها بوابل من اللعنات وهيلين واقفة امامها مشدوهة لا تقوى على الحركة وقد حملت آنيتها يدها . وقد احدث صوتها ضجة كبرى فاجتمع الناس من كل جانب ، هنا تقف امرأة شعثاء ،وهناك امرأة سمراء ، هنا طفل وهناك شاب ، هنا عجوز وثمة كهل .. وهناك فلاح فارغ القامة ينظر الى المشهد بكسل ..

- يا علقة ، يا بقة ، يا ملعونة ..

هكذا كانت المرأة تعوي ، وصوتها يدوي ، وهي تصب على رأس هيلين اللعنات ، بعرض متواصل ، دون نقاط او فواصل وتضيف قائلة :

- هكذا تكافئيني يا وسخة ! على ما احتمله من اجلك من عناء !

ارسلك لتأتيني بالخيار فتهربي ! اين تذهبين ؟ يا فاجرة ، يا فاسقة ؟

اين تذهبين ؟ يا قملة ، يا حية ! قولي والا خنقتك !

وارتمت على « هيلين » كمن فقد عقله ، وجنى جنونه ، ووضعت يديها في جسدها ، ولكنها توقفت فجأة عندما التفتت حولها فرأت السكان ينظرون اليها . واخذت تصرخ صراخا أشد واقوى وهي تحرك ذراعيها ، كمن يريد ان يشهدهم على الجريمة النكراء التي

ارتكبتها ضحيتها المسكينة :

ـ تعرفون ايها الطيبون ان امها قد قضت . وظلت هي وحيدة لا تملك ما يسد رمقتها ، فحضنتها في بيتي اكراما للقديس « نيقولا » ، وها قد مضى شهران وانا اعيلها ، لقد انهكتني ، وشربت من دمي ، واكلت من لحمي ، هذه الحية ، هذه الجنية ، ترون انها لا تقول شيئا ! أجل لا تقول شيئا ! ضربتها ام لا .. لعنتها ام لا .. شتمتها ام لا .. كأن في فمها ماء ، وفي حلقها داء . انها تحطم قلبي ، وتزعزع كياني وتزلزل اركاني عندما لا تنطق شيئا ! ماذا تظنين نفسك ايتها الحشرة ؟ من تحسبين ذاتك ايتها البقرة ! ايتها الحشرة ! ايتها القردة ! لولاي لمت جوعا ، وقطست عطشا !

يجب عليك ان تقبلي قدمي ، وترتمي على رجلي ، وتقدري فعلي يا ملعونة .

سألتها امرأة من الحضور بكل احترام :

ـ ماذا فعلت اليوم حتى تغضبي ايتها المحترمة ؟

ـ ماذا فعلت ؟ ماذا عملت ؟ . لقد ارسلتها اليوم لشراء بعض الخيار فلم تعد الا بعد ثلاث ساعات ، انني لا أريد ان يخرج على ارادتي احد .

شعاري : « اعمل ما أريد ولو كان خطأ » ، خير من ان تعمل ما تريد ولو كان صوابا » . هكذا انا ! حين ارسلتها الى اين ذهبت ؟ أي حماة قد وجدت ؟ الم أغرقها بجميلي ، ألم اتبناها باحساني؟ الذكر لكم انني سددت عن والدتها اربعة عشر روبلا فضيا ، وانني

اتفقت على دفنها !؟ أليس من حقي ان أهزها ، قليلا بعد هذا .. أردت سعادتها ، فارادت شقاءها ! اردت أن ألبسها ثوب السعداء ، فارتدت ثوب « البؤساء » ! اشتريت لها ثوبا وحذاء ، والبستها كما تلبس الاميرات ولكنها فرقت ثوبها واصبحت كما ترون .

وفي الامس ضربتها ضربا مبرحا ، والزمتها بغسل الارض ، ثم نزعت جواربها وحذاءها ظنا مني أنها لن تخرج عارية القدمين . ومع ذلك خرجت . اين كنت يا « زوانة » ؟ ولمن وشيت بي ؟ قولي ! قولي يا عجرية !

وخرجت عن طورها ، وارتمت وهي في سورة الغضب على هيلين، وحملتها من شعرها ورمتها على الارض . فاملت الوعاء من يد هيلين وانكسر ، وقد زاد هذا غضبا الغولة السكرانة ، وزاد في تأجج نارها . فضربت هيلين على وجهها وعلى رأسها . « وهيلين » جامدة ، لا تحرك ساكنا ، ولم يخرج من فمها لا حسرة ولا آهة ، لا صرخة ولا صيحة رغم الضرب المبرح. فاسرعت الى الباهة باستياء ، وقد طار صوابي، وفقدت رشدي ، وتقدمت من المرأة السكرانة وامسكت بذراعيها صائحا :

ــ ماذا تعملين ؟ كيف تجرؤين على ضرب هذه اليتيمة ؟

ــ نعم ؟ من انت ؟ وماذا تصنع في بيتي ؟

ــ انت امرأة بلا شفقة ولا رحمة . لماذا تعذبينها كل هذا العذاب ، انها ليست ابنتك ولقد سمعتك تقولين ذلك .

فصرخت مهتاجة :

ـ مـن ايـن جئت ايها الرجل ؟ لعلك جئت معها ! اذن فهي تذهب اليـــك !

مـن انـت ؟ النجدة .. النجـدة ..

وهجمت علي ، ولكـن في تلك اللحظـة دوت صرخة عجيبة على حيـن فجأة ، فاذا « بهليـن » ترتمي على الارض وتضطرب في تشنجات عجيبة . وتجعـد وجهها وتغيـر لونها ، كمـن اصابها نوبة . فاسرعت امـرأتان مـن الحضور وحمـلاها .

فصرخت المـرأة المهتاجة :

ـ هي النوبة الثالثة في الشهـر ... ليتها تغطس ،

وهجمـت علـي وقـالـت :

اخـرج ايها المفسـد ، أخـرج ...

ولم يكـن بوسعي الا الخروج ، وأيقنت ان تدخلي كان عقيمـا . فخرجت مستاء ، والدم يتفـز مـن عروقي ، والغضب يسري في جسمي ، وظللت واقفـا قـرب الباب انظـر مـن الفتحـة .

وبعد لحظـة ، نزلت المرأة التي ساعدت « هيليـن » على النهوض وقد لمحتنـي فتوقفت ونظرت الي نظرة استطلاع

تقدمت منـها قـائلا :

ـ هل تسمحيـن لي بأن اسألك عـن هذه البنية وما تصنع بها هذه المـرأة ؟ لأن امرها يهمنـي كثيرا .

ـ اذا كان امرها يهمـك ، فمـن الافضل ان تأخذها وتجد لها مكانا آخـرا . والا ضاعت هنـا .

قالت ذلك وحاولت الابتعاد :

ـ ولكن ما الذي افعله ان لم تعطن بعض المعلومات ؟ فانا لا اعرف شيئا ؟

أليست المرأة الفظيعة هي مدام « بونبوفنا » ؟

ـ نعم هي .

ـ ولكن كيف وصلت اليها البنت ؟ وهل ماتت والدتها هنا ؟

ـ على كل حال فالمسألة لا تهمنا .

وهمت بالذهاب . فاستوقفتها :

ـ ارجوك ! هذا الامر يهمني كثيرا ! من هي والدتها ؟ ومن هي هذه البنت ؟

ـ يظهر ان والدتها غريبة . اتت من بلد آخر ، وكانت تعيش في الطابق السفلي ، وقد ماتت وهي مريضة .

ـ هل قلت انها كانت تسكن القبو ؟ اذن فهي فقيرة ؟!

ـ نعم . يا لها من بائسة ، كان منظرها يبعث على الالم والحزن ، ويمزق القلب تمزيقا . ومع اننا اناس فقراء ، فقد كانت مدينة لنا بخمسة روبلات . ونحن دفناها ، وزوجي هو الذي صنع لها التابوت .

ـ اذن ، لماذا تدعي « بونبوفا » انها هي التي دفنتها ؟

ـ غير صحيح !

ـ ما هو اسمها ؟

ـ انه صعب ، لا يمكنني ان انطق به . لكن يبدو انها المانية .

ـ سبيت ؟

ـ لا .. ليس هذا بالتمام . وقد اخذت « بونبوفنا » الصغيرة لتربيها فيما تزعم . ولكن الحقيقة هي غير ذلك .

ـ لا بد انها اخذتها لغاية في نفسها ..

ـ انها تقوم باعمال فاسدة وشاذة .

قالت ذلك في تردد كأنها لا تريد ان تتكلم ، واضافت :

ـ على كل حال ، هذا لا يعنينا نحن ..

وفي نفس اللحظة سمعنا صوتا يدوي وراءنا يقول :

ـ من الافضل انحفظي لسانك ..

فالتفت الى الخلف ، فاذا بي المح رجلا متقدما في السن ، من اصحاب الحرف . انه زوج محدثتي ، قال وهو ينظر الي شزرا :

ـ اسمع يا سيدي ، ليس لدينا ما نقوله لك ، فالامر لا يعنينا .

ثم تطلع الى زوجته :

ـ وانت اذهبي حالا .

ثم عاد ونظر الي قائلا :

ـ وداعا ايها السيد . ولا تنس اننا صانعوا توابيت ، فاذا لزمك شيئا يمت لمهنتنا بصلة فعلى الرحب والسعة ، وفيما خلا ذلك فلا شأن لك معنا البتة .

وتركت هذا البيت المعقد ، وفي نفسي حرقة ، لانه لم يكن بوسعي ان افعل شيئا . ولكن كان يصعب علي ان اترك كل شيء كما هو ، وخاصة بعدما سمعت ما قالته لي المرأة : ان في الامر شيئا قذرا

ووسخـــا : واخذت اردد :

لا تظلمـــن اذا ما كنت مقتـــدرا
فالظـــلم آخره يأتيـــك بالنـــدم
نامـــت عيـــونك والمظلوم منتبه
يدعـــو عليـــك وعين الله لم تنـــم

وفيمـــا كنت سائرا ، مطرق الرأس ، سابحا في تأملاتي ، غارقـــا بأفكاري ، تهادى الى مسمعي صوت خشـــن يناديني باسم عائلتـــي . فنظـــرت اليـــه ، فاذا بـــه رجل سكـــران ، يترنح يمينا وشمـــالا ، يرتدي ملابس نظيفـــة وعلى رأسه قبعة قذرة . فوقفت لاتفرس بوجهه ، فاذا به يغمزني ويبتسم لي ابتسامة سخريـــة وهو يقول :

ـ الم تعـــرفنـــي !؟

الفصل الثالث

ـ من ؟ آه ! هذا انت يا ماسلوبوييف ! انه للقاء !

بهذا صحت على حين فجأة حينما عرفت فيه رفيقا من رفاق المدرسة الثانوية في بلدتي . فاجاب :

ـ نعم ! ست سنين لم تلق خلالها .. الا تتنازل وتمن علينا ولو بنظرة ؟

ـ اسمح لي بأن اقول لك : انني صادفتك مرتين او ثلاثة في الشارع ولكنك انت الذي هربت مني. على كل حال دعنا من هذا ، وعم صباحا ! انني سعيد بلقائك .

اخبرني . كيف هي صحتك واشغالك ، اتمنى ان تكون على ما يرام.

ـ ما اطهر قلبك « يا فانيا » ، لقد مرت السنون والايام ، وانا لا ازال اضطرب وحدي ليل نهار ، ولكنني لا أنسى الماضي .

ـ وأنا ايضا اضطرب وحدي ..

ـ لا « يا فانيا » . انت شيء اخر . لقد قرأت .. ولكن هل انت مستعجل ؟

قال ذلك وهو ينظر الي نظرة فيها رقة وحب .

ــ الحقيقة هي ان هناك حادثا قد هزني هزا . ومــن الافضل ان تدلنــي على مسكنــك .

ــ سأدلك ، ولكــن سأقول لك ما هو أهم ، هل تقبل ؟

ــ مــا هـــو ؟

انظـــر هناك . مقهى ومطعـم . سنجلس فيــه ونثرثـر قليلا .

ــ ولكني على عجلة مــن أمـــري ؟!

ــ هل تستكثـر عشريــن دقيقة بصديق قديم ؟

ــ اذا كانت عشرين دقيقة فلا بأس . اما اذا اكثر فلا !

لان هناك اعمـــالا مهمــة يجب ان اقوم بها ...

ــ اذن ، هلم بنــا . ولكــن هل لي بكلمتيــن قبل كل شيء : تبدو لي كأنــك غيــر مرتاح ، كأن هناك ما يزعجك ، اهذا صحيــح ؟

ــ نعم ، صحيــح .

ــ اذن لنسرع الخطى . هيا بنا لنثرثر قليلا ثم ينصرف كل منا الــى سبيلـــه .

كان علينا ان نصعد الى الطابق الثاني متسلقين سلما خشبيــا .

وفيمــا نحــن نصعد ، اصطدمنــا برجليــن ثمليــن يترنحان يمنة ويسرى . كان احدهمــا فتى صغيرا لم تنبت لحيته بعد ، يرتدي ثيــابــا نظيفة وجميــلة ، ويزيــن اصابعه بخواتم مــن ذهب ، كان يبتســم ويضحك طوال الوقت . اما رفيقه فقد كان في الخمسيــن مــن عمــره ، اصلـــع ، تنطق هيئته بالخبث واللؤم والشهوانيــة ، ويلبس نظـــارة

سوداء . كانا يعرفان « ماسلوبويف » وحينما رآنا السمين كشر عن اسنانه كشرة استياء وخبث . اما الفتى فقد ابتسم ابتسامة خفيفة متطفلة ثم رفع قبعته وقال مدمدما :

ـ اغفر لي يا فيليب فيليبتش (هذا ما يعرف به « ماسلوبويف » في المقهى)

ـ اغفر لك ماذا

فاجاب الفتى :

ـ لا شيء ، ان متروشكا هناك . هذا كلب وغد .

ـ ما معنى هذا الكلام ؟

ـ طبعا ... وهذا رفيقي ،لقد رشوا وجهه بالقشدة بفضل متروشكا هذا نفسه .

وهنا قال له رفقه وقد دفعه بذراعه :

ـ ينبغي ان تأتي معنا يا فيليب فيليبتش .

ـ لا يا عزيزي . انني مشغول الان .

وما ان دخلنا الى الحجرة الاولى حتى جرني « ماسلوبويف » الى ركن منعزل وقال لي :

ـ ان الفتى هو ابن « سيزوبريوخوف » تاجر الحبوب المعروف.

لقد ورث ثروة أبيه ، فانفقها على ملذاته . ثم ورث ثروة عمه ، ولكنه اتلف كل ما ورثه . ولا بد من انه سيصبح شحاذا في اسرع وقت . اما الاخر ، المسن ، فهو « أرشيبوف » ، انه تاجر يعنى بالخمور . هذا الحقير هو رفيق « سيزوبريوخوف » يلازمه طوال

الوقت • ولا يتركه لحظة واحدة • وهو مخلوق شهواني أفلس مرتين ، وينفق عليه الفتى الآن • كنت اعلم انه يختلس مال الفتى، وانني انقم عليه •

ثم اشار الى رجل يجلس على النافذة وقال :

ـ اترى هذا الرجل ؟ « انه متروشكا » وهو يحنق عليه ايضا انه من سماسرة الخيل وهو يعرف جميع الفرسان • وهو يحنق على الرجل المسن لانه اختطف منه الفتى قبل ان ينفضه تماما • وانني اريد ان استفيد مما يكنه « متروشكا » للمسن من بغض وحقد ، لان هناك ما يحملني على ذلك ، ومن اجل هذا جئت الى هنا • وسترى الآن كيف سيأتيني « متروشكا » من تلقاء نفسه ويذكر لي ما انا في حاجة اليه • والآن فلندخل الى الغرفة •• جلسنا ، واخذ هو يحدثني عن نفسه ، وعن التطورات في حياته واخيرا قال لي :

ـ وصفوة القول انني اكسب مالا كثيرا دون تعب • اذ انني اتقاضى أجرا على التوسط بين الناس • واعمل في أمور شبه رسمية •

ـ هل تعمل جاسوسا ؟

ـ لا لست جاسوسا على كل حال ، ولكنني أقوم بأعمال بعضها رسمي وبعضها شخصي •

وظل يحدثني تارة عنه واخرى عني ، وكلما ازداد سكره ازدادت عاطفته ، وكلما ثمل أكثر ازداد حبه لي تألقا ، ففاضت الدموع في عينيه ، وسالت مدرارا على خده الوردي ، ولمع وجهه كأنما انعكست

اشعة الشمس على صفحته . لقد كان من خيرة الفتيان وأحسنهم ، الا انه ذا مكر وكيـد وخبث ، وميل عنيد الى المماحكة والمناقرة .

كان انسانا ضائعا ، مضطرب النفس ، يخالف ضميـره ، ولا يخشى تأنيبه ، فهو يكثر مـن الخمـرة ، ويغرق نفسه فيها ، ويتبع اهواءه ، وينجـرف في تيـار ملذاته وشهواتـه ،

فهو لا يضيـع نفسه فحسب ، بل انه يعمـد الى تضييعها بنفسه ، بالرغم مـن معرفتـه حق المعرفـة بأنه يسعى الى حتفه بظلفه .

ثم استطرد بعـد ذلك يقول :

ــ لقد وصلت الـي انباء مجدك ، وأخبار تألقك ، وقرأت العديد من مقالاتك . اتعمـل الان في الصحافـة ؟

ــ أجـــل .

ــ لا شك بانك محتاج لبعض المال . فقد صادفتك تسيـر على الوحل متنعلا حذاء خلقا ، بلا كاوتشوك وتعتمـر قبعة مجعدة . خـذ هذا المال ولا تكثر . ان لدي مالا كثيرا . خذه وتخلص مـن هـؤلاء الذيـن يستخدمونك ، وانزع هذا اللجام مـن عنقك ، وتخلص من هذا النيـر مـن رقبتك . وعش هادىء البال ، وانصرف الى تأليف رواية كبيـرة .!

ــ اسمع يا ماسلوبويف ! انني اقدر عرضك ، واشكـر لطفك ، وأثني على عطفك . انمـا لا استطيع الاجابة الان ! لماذا ؟ هذا أمر يطول شرحـه ، وذلك رهـن بالظروف . واعدك بأنني سأزورك ..

ولكـن بما انك كنت صريحا معي ، فاليـك بالامر الذي يهمني ،

سأستثيرك به ؛ ثم رويت له قصة « سميث » وحفيدته من البداية الى النهاية .

ولفت نظري وانا اروي له القصة بأنه على علم بها . وسألته :

ـ هل تعرفها ؟

ـ لا . لا اعرفها . انما سمعت القليل عن « سميث » وعن انه مات في المقهى . أما السيدة « بوبنوفنا » فانني اعرف عنها بعض الامور وكان لي شأن معها منذ شهرين . وقد ابتززت منها مائة روبل ؛ ولقد آليت على نفسي بألا اكتفي بأقل من خمسمائة روبل في المرة القادمة . يا لها من امرأة فظيعة !.. انها تقوم بتجارة حقيرة ، قذرة ! وكان الامر سهلا لو انها لا تسرف من الانحطاط في بعض الاحيان . لا تظن بي شيئا ؟ ولكن واقع الامر انني استفيد من ذلك ، ولقد ابتهجت كثيرا لانني صادفت « سيزو بريوخوف » منذ نصف ساعة . لا شك بأنهم هم جاءوا به الى هنا !.. أجل ! الرجل هو الذي اتى به ...

انني اعرف مالذي يتعاطاه هذا الرجل . سأقبض عليه !

وسرني انك اخبرتني بعض الشيء عن تلك الفتاة ؛ فقد اطلعت الان على شيء جديد .

اعلم يا عزيزي بأنني اتولى مهمات كثيرة ومتنوعة ، وفي المدة الاخيرة توليت مهمات عهد بها الي أمير من الامراء ..

فقاطعته وقد اوجست ريبة :

ـ من هو هذا الامير ؟

ـ ما لك ولاسمه ؟ ولكن ان كنت تصر على ذلك فاسمه فالكوفسكي!

ـ بطرس فالكوفسكي ؟

ـ اجل . هل تعـرفـه ؟

ـ قليـلا . سأسألك عـن انباء هذا السيـد غير مرة .

قلت ذلك وانا أنهـض .

ـ اسمع يا صديقي . انك تستطيع ان تسألني على كل ما تريـد . ولكنني لا اطلق للساني العنان ، بل اظل ضمـن تخوم معينة ، ونطـاق محدود . حتى لا افقـد ثقة الناس ، لئلا أفقـد شرفي ... في الاعمـال طبعـا .

ـ اذن . في الحدود التي يسمح لك بها شرفك ..

ما هو رأيك بالقصة التي رويتها لك منـذ لحظة ؟

قلت ذلك وأنا ممتقع الوجه فلاحظ هو ذلك .

ـ قصتك ؟ آه ! انتظر لحظة . سأدفع الحساب .

ثم عاد الي وهو يقول :

ـ ثانيـا . عد الي في الساعة السابعة .

فلربمـا هنالك ما أود ان اقوله لك . انني سكيـر لا املك عقـلا ولقد اخذت أزعج الان . فهاك عنواني : في شارع الدكاكيـن الست .. ستأتي الي وسأقدمك الى« الكسندرا ستمبنوفنا » ، ثم نتحدث عـن القضيـة المهمـة .

ـ اذن سأحضر حتمـا .

الفصل الرابع

كانت « آنا اندريغنا » تنتظرني على أحر من الجمر • ولقد ولقد استنفد القلق قوى العجوز المسكينة وخاصة بعدما وعدتها بأن أوافيها في الساعة العاشرة صباحا • غير انني وصلت اليها في الساعة الثانية ظهرا • فقابلتني باستياء وتجهم واستقبلتني بوجه بارد ، وما كادت تلقي التحية وما كادت شفتاها تتحركان لو لم تتحرق شوقا للاطلاع على أخبار « ناتاشا » •

كانت « آنا اندريغنا » تنتظرني قلى احر من الجمر • تظن هي • ولكنى قصصت عليها مشهد الامس كله بلا ابطاء • وعندما علمت ان الامير قد زار « ناتاشا » وقدم اقتراحه الرائع ، كادت تجن فرحا ، واوشكت تطير طربا • وتبدلت ملامحها بسرعة ، وتبدد الامتياء على حين غرة ، وارتسمت على أسارير وجهها الفرحة والسرور ، ونطقت عيناها بالغبطة والحبور ، فانا لا استطيع ان اصف فرحها بكلام : لقد اصبحت كمن فقد صوابه ، وغاب عن وعيه ، وخرج عن رشده ، فتارة تصلب ، واخرى تسجد ، ومرة تقبلني ، وثانية تريد ان تهرع الى أخمنيف وتخبره بالامر •

ثم قالت :

ـ ارجوك ، ان كل هذه الاهانات ، وتلك الاذلالات هي التـــي حطمته ، ولكنه متى علم ان كرامة « ناتاشا » قد ردت اليها فسينسى الامر كلـــــه •

ولم استطع أن أثنيها عـن عزمها الا بكثير مـن العنـاء ، فهي لا تعـرف زوجها جيـدا بالرغم مـن انها عاشت خمسة وعشريـن عاما • وكانـت تتمنـى لو تذهب معي حالا الى « ناتاشا » ولكني اخبرتها بأن زوجها لـن يرضى وستفسد الأمر كله • واخيرا عدلت عـن فكرتهـا وعزمها في كثير مـن الجهد والعنـاء •

وكانـت لا تنفك تقـول : « أتراني ابقى سجينة اربعة جدران ، وانا فيمـا انا فيـه مـن فرح وسرور ؟ » •
أخيرا اقنعتهـا بان تسمح لي بالانصراف قائلا لها ان « ناتاشا » تنتظـرني بفارغ الصبر • وحملتني تحيـة حارة الى « ناتاشا » ورسمت شارة الصليـب ، ثم اوشكت تبكي عندما أبيـت ان اعدها بالمجيء اذا لم يكـن هنـاك ما يستدعي ذلـــك ••

ولم أر « اخمنيـف » هـذه المرة : لقد اصيب بصداع شديـد ورعشات متواصلة ، وأرق طوال الليل ، وهو نائم في غرفته ويغط في سبـات عميـق ••

وكان مـن البديهي ان « ناتاشا » هي ايضا تنتظرني طوال النهار• فحيـن دخلت ، كانت تذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهي مطرقة الرأس ، مشبكـة اليديـن ، خافضة العينيـن ، ذاهبة آيبة ، بلا هدف •

قالت وهي تذرع الغرفة ذهابا وايابا : لماذا تأخرت ؟

فاخبرتها كل شيء ، وقصصت لها مغامراتي بالايجاز . ولكنها كانت قلما تستمع لحديثي ، فهي شاردة الذهن ، مشغولة البال . سألتها :

ـ هل من جديد ؟

ـ لا . لا شيء .

ولكنني عرفت اخيرا من نظراتها أن ثمة امرأ جديدا . ولكنها على عادتها لن تقصه لي الا عندما اهم بالانصراف .

بدأنا بالحديث عما جرى أمس ، وانا لنستعرض جميع تفاصيل زيارة الامير « لناتاشا » واذ بها تقول :

ـ اذا كرهت شخصا في اول الامر ، فتلك تكون اشارة الى أنك ستحبه فيما بعد . هذا يقع لي انا .

ـ ان شاء الله يا «ناتاشا» . وبما الامير يعبث ، ولكنه وافق على زواجكما موافقة جادة .

فتوقفت في وسط الغرفة ، ورمتني بنظرة قاسية ، وارتعشت شفتاها وقالت :

ـ ولكن كيف يمكنه ان يحتال ويكذب و ... يراوغ في ظروف كهذه ؟

فاسرعت أويدها :

ـ صحيح !

ـ لا شك انه لم يكذب . ولكن ما لنا وهذه الافكار ؟! ثم ما عسى ان اكون في نظره حتى يضحك علي ؟ ليس في وسع أي كان

ان يرتكب وقاحة كهذه .

ـ طبعا ! طبعا !

ـ آه ! ليته يعود بسرعة . كان سيقضي السهرة كلها معي ، ولكنه لم يحضر ! لا بد ان وراءه اعمالا هامة ، هل تعرف شيئا عن ذلك؟

ـ لا . انما اعرف انه يجمع الاموال ، وقيل انه سيساهم في مشروع مالي في « بطرسبرج » .

على كل . نحن لا نفقه شيئا في شؤون الاعمال يا « ناتاشا » .

ـ أجل ، لقد حدثني « اليوشا » البارحة عن رسالة تلقاها والده .

ـ لا شك انها تحمل اخبارا . ولكن هل جاء « اليوشا » ؟

ـ أجل .

ـ أجاء مبكرا ؟

ـ جاء ظهرا ، وقد بعثت به الى « كاترين فيدورفنا » .

ـ ألم يكن ينوي الذهاب اليها ؟

ـ بلى ....

وحاولت أن تضيف شيئا آخرا ، ولكنها صمتت .

ثم عادت تقول وهي تصعر شفتيها قليلا :

ـ عجبا من أمر هذا هذا الفتى !

أحدث شيء .

ـ لا ... لا .. لا شيء .. ثم انه كان لطيفا للغاية ، انما ..

ـ الآن تخلص من همومه،وانتهت كل أحزانه

فألقت « ناتاشا » نظرة متفحصة ، وامطرتني بوابل من الاسئلة،

كان بها تريد أن تعرف انطباعاتها ازاء تصرفها مع الامير البارحة : هل احسنت التصرف ؟ أولم تسرف من الانقياد للعاطفة ؟ ألم تكثر في اظهار فرحها أمامه ؟

أوهل يحتقرها ؟! وحين راودتها هذه الفكرة احمر وجهها والتهبت خدودها بحمرة شديدة .

ان « لناتاشا » قلبا نبيلا ، ونفسا صافية مستقيمة . يحز في قلبها ان يحتقرها أحد ، واذا احتقرها انسان فلا بد ان ترد عليه الاحتقار ، وان تكيل له بدل الصاع صاعين وتنعم « ناتاشا » بذات سمحة كريمة ، وسرعة الاندفاع لثناء شخص وتعداد محاسنه وميزاته ، والاصرار على تقديره فوق قدره ، والمبالغة في تصوير صفاته وميزاته .

كنت على عجلة من أمري . فهممت بالانصراف ، الا انها شدهت وانفجرت باكية وتقدمت نحوي برفق ، وعانقتني ، وتفرست في وجهي مدة طويلة ثم قالت :

ـ لقد أتاني « اليوشا » اليوم ، وهو يختال بمشيته وتلوح عليه أمارات السعادة ، وعلامات المرح ، وهو لا يحول نظره ابدا عن المرآة ، ولم يمكث طويلا . وتصور ... أنه قد اتاني بسكاكر .

ـ سكاكر ؟ شيء ظريف !

ثم استأنفت وهي تنظر الي نظرة متملقة

ـ اسمع يا فانيا . لقد ظهر لي خفيفا ... كان يضحك ويبتسم ويدور على رجل واحدة ، ويقفز بالهواء ، حتى كأنه طار صوابه من شدة الفرح . ثم أنه كان يتعجل الذهاب الى « كاترين » ، أكلمه فلا يصغي

لي ، أستشيـــره فلا ينصت لي ، أبتسم له فلا يعبأ لي أو يأخذ بالكلام ..

ماذا أقول ؟! .. كل ذلك هو ذنبي أنا . كنت على حق حينمـــا لمتني منـــذ قليـــل ! اننا ذوو نزوات ! اننا نخلق لانفسنـــا أحزانـــا واشجانـــا ، وسنبقى نشكـــو ونظل نتوجع !.. ليته يجيء اليـــوم ! ولكـــن ... لعله استاء مما حدث .

ــ ماذا ؟ هل تشاجرتما ؟ هل حدث شيء ؟

ــ لا ، لا ابدا . ولكـــن كنـــت حزينة جدا ، وكان هو فرحـــا ، فاذا به يسترسل في الوجوم على حيـــن غرة ، فخيـــل الي بأنه ودعنـــي وداعـــا جـــافـــا .

تعال الي غدا يا فاتيـــا ... سأرسل في طلبه .

ــ سأحضر ان لم يكـــن هنـــاك رادعا يمنعني . لقد أقحمت نفسي في بعض الامور ! ولكـــن اتمنى ان استطيـــع الحضور .

الفصل الخامس

وصلت الى منزل « ماسلوبويف » في السابعة تماما . كان يقطن في عمارة في شارع « الدكاكين الست » . كان بيته يشتمل على ثلاث غرف ليست على شيء من النظافة . ولكنها حسنة الاثاث . فتحت لي الباب فتاة على جانب موفور من الجمال ، ترتدي ثيابا بسيطة ، تناهز العشرين من عمرها ، نظيفة كل النظافة وتنطق عيناها بالمرح والفرح . حزرت أنها « الكسندرا سيمينوفنا » نفسها ، تلك التي نطق باسمها « ماسلوبويف » ودعاني لزيارته للتعرف عليها . فسألتني من اكون ، وعندما أخبرتها قالت لي أن « ماسلوبويف » كان ينتظرني ، الا انه نام الآن في غرفته . وقادتني الى غرفته . كان « ماسلوبويف » يرقد على أريكة وثيرة ، ملتحفا معطفه ويغط في نوم خفيف . وما ان دخلنا حتى ناداني باسمي :

— هذا أنت يا فانيا ! اذن لقد حان الوقت . هيا بنا .

— الى أين ؟

— الى تلك السيدة ؟

ـ أي سيدة ؟

ـ السيدة بونبوفنا .

لماذا ؟

ـ لكي ... وتابع وهو يلتفت الى « الكندرا » :

ـ يا لها من امرأة رائعة .

وغضبت « الكندرا » بعض الغضب ثم قام جدال بينهما خرجت على اثره « الكندرا » راكضة وقد ازدادت حنقا واشتدت غضبا

ثم قال هو :

ـ آن الاوان . هيا بنا .

وخرجنا .

ـ سنركب هذه العربة « يا فانيا » . وينبغي أن أقول انني عرفت شيئا بعدما تركته منذ قليل . لقد بقيت في « فاسيلي اوسترون » ساعة أخرى . ان ذلك السمين صاحب نزوات ، يثير الاشمئزاز ، وانه لشخص حقير ، شخص فظيع ، ذو ميول منحطة واخلاق دنيئة . ومدام « بونبوفنا » عرفت منذ مدة بأعمال ومكائد من هذا النوع . وقد اوشكت ، ان يلقي عليها القبض ذات مرة عندما اتهمت بأمر فتاة تنتمي الى عائلة ذات شأن .. ولقد حصلت على بعض المعلومات بالصدفة لكنها تبدو لي صحيحة . ما هو عمر البنت ؟

ـ ثلاث عشرة سنة ، كما يبدو من وجهها .

ـ وبامكان « بونبوفنا » أن تدعي ان عمرها احدى عشرة سنة او خمسة عشرة سنة تبعا للحاجات . والصبية بلا حام يحميها ، وبدون

معيل يعولها ، وبدون قريب يطعمها ، فيمكن للمرء أن ينال منها ..

ـ أهذا ممكن ؟

ـ ولما لا ؟ ماذا تظن ؟ أتعتقد أن « بونبوفا » قد حضنت الصبية شفقة منها ورحمة ؟ لا . لا . انه سبب غائي (ذو غاية) . واذا كان السمين قد ولى شطره نحو « بونبوفا » فذلك يعني ان القضية دبرت . لانه قد رآها صباحا ، حتى ان ذلك الحقير قد وعد « سيزوبريوخوف » بامرأة متزوجة . هذه هي مدام « بونبوفنا » واياك ان تحشر نفسك في مثل هذه الامور . فهي تريد ان تسخر من البوليس . ولكنها تخاف مني أنا ، لانها تعرف ان لي ذاكرة قوية .

ـ أثرت في هذه الكلمات تأثيرا رهيبا ، واسلمتني الى ذعر شديد واضطراب وخوف ، فاستعجلت الحوذي لئلا نصل متأخرين .

وقال « ماسلوبويف »

ـ لا تقلق . لقد اتخذنا الاجراءات اللازمة . ان « متروشكا » هناك . سيدفع له « سيزوبريوخوف » من ماله ، وسيعطيه السمين من جسمه المنتفخ . اما حصتي أنا فستكون « بونبوفنا » فهي من شأني .

وصلنا الى بيت « بونبوفنا » ، فألفينا متروشكا ينتظرنا في الخارج . وسمعنا ضحكات « سيزوبريوخوف » تتعالى بالجو وتسمع من الخارج . وكانت انوار ساطعة تخرج من النوافذ وتعكس انوارها على الشارع . قال لنا متروشكا :

ـ انهم هنا منذ ربع ساعة. وقد حانت اللحظة الحاسمة

قلـــت :

ــ ولكــن كيف سنــدخــل ؟

فاجاب ما سلوبويف :

ــ سندخل كمدعويــن . انها تعرفني وتعرف متروشكا .

وطرق الباب طرقا خفيفا فاذا بالخادم يفتـح الـباب ويتبـادل و « متروشكا » النظرات الخاطفة . ثم قادنا الى الداخل وغاب البواب .

كانت « بونيوفنا » تقف في المدخل وهي ثملة ، مكشوفة النحـر فقـالـت :

ــ مــن هنـاك ؟

ــ مــن عسى يكون هنـاك غيرنـا ؟.. فيليب فيليبتش .

ــ آه ! فيليب ! هذا انتم ايها الاعزاء !.. ولكــن .. كيف .. انا لا شيء .. تعال مــن هنا أرجوك

لقد اضطربت أشد الاضطراب ، وذعرت ايمـا ذعر . وطار صوابها .

ــ مــن ايــن ؟ سوف تستقبلينا أحســن استقبال . هل ثمة بنات جميـلات ؟

ــ اذا لم يكــن هنــاك بنات ، فابحــث لضيوف اعزاء مثلكم عن بنـات تحت الارض واجيء بهــن مــن الصيــن .

ــ هل «سيزوبريوخوف » هنا ؟

ــ أ .... جــل .

ــ كيف يجرؤ هذا الوغد على اللهو دون أن اكون معه ؟ أريد ان أراه .

— لا شك بأنــه لم ينساك . لقد كان ينتظر شخصا ربما هو أنت ؟

ودفع « ماسلوبويف » باب غرفــة صغيرة ، ذات نافذتيـــن ، وفيها كــراس وبيانــو ردي، . ولكـــن متروشكا كان قد اختفى مـــن قبل ان ندخـــل .

وعــرفت أنه ينتظـــر في الخارج ليستقبل شخصا قادما .

كان « سيزوبريوخوف » يجلس على مائدة مستديرة ، وقد اصطف عليــها ضروب الفواكه وانواع الفطائر وزجاجتان شمبانيــا ، وصحون فيــها سكاكــر وجوز . والى جانب « سيزو بريوخوف » كانت تجلس امرأة شعثاء ، تثير الاشمئزاز ، دقيقة الوجه تبعث على القرف ، وتحمل في معصميــها اساور مـــن نحاس . كانت تناهز الاربعين مـــن عمرها ، وهي الزوجة التي وعده بها السين . كان « سيزوبريوخوف » ثمـــلا وراضيـــا كل الرضى ، اما السيـــن فلم يكـــن هناك .

فدمدم الفتى يقول وهو ينهض للقائنا :

أهـــذا انـــت يا فيليـــب ؟

— نعم جئنا لنلهو معك بعض الوقت . انظـــر لقد جئت بضيف آخـــر . ونطق باسمي .

وبعد أن أخذنا نتحدث الاحاديث ونروي القصص ، تهادى الـــى مسمعنا على حيـــن غرة دوي وراء عدة ابواب .

دوي حاد رهيـــب هز الغرفة هزا ، انه صوت هيليـــن . فارتعشت ارتعاشا قويا ، واخذت ركبتاي تصطك من هول الصدمة . ثم سمعنـــا صراخا وجلبة وشتائم تبعتها قرقعة صفعات قوية ، واضحة رنانة ، لعلـــه

متروشكـا يقنص مـن غريمه . وفتح الباب فجأة بقوة وعنف ، وظهرت هيليـن مستقعـة الوجه شاحبة اللون ، مضطربة العينيـن ، ممزقة الثوب منفوشة الشعر . وما أن رأتني حتى ارتمـت علي واحاطتنـي بذراعيها . ودخـل على أثر هيليـن متروشكا ممسكا بالسمين ويشده بشعـره ويجره ، الى أن اوصله الى العتبة ورماه . وقال متروشكا والفرح يشيـع مـن وجهه :

ـ هذا هو ! خـذوه .

فتقدم « ماسلوبويف » مني وربت على كتفي وهو يقول :

ـ خذ البنـت وامض الى بيتـك . فلم يعد لك ما تعمله هنـا . اما نحـن فسنصفي الحساب غدا .

ولم انتظر ان يكرر كلامه ، بل امسكت هيليـن وخرجت بها مسرعا مـن هـذا الجحيـم القاتم . ولم اعرف ما الذي جرى بعد ذلك .

لم يكـن هناك مـن يمنعنـا مـن الخروج ولم يحاول أحد ذلك ، حتى ان صاحبة البيـت صعقت من الخوف ، وسيطر عليها الجـزع واصبحت جامدة لا تتحـرك .

كانت « هيلين » مضطربة ، أقرب الى الموت منها الى الحياة .

فلما وصلت بها الى البيت ، فككت عرى ثوبها ، ورششت عليهـا المـاء ، ووضعتها على الاريكـة . نظـرت الى وجهها المنتقع فاذا بـه اصفـر اللون ، أجل . فقد اصابتها الحمى واخذت تهذي . لقد فهمـت هذه الحكاية الفظيعـة .. ان حالتها تنتقل مـن سوء الى أسوأ فلـم أتركـها ، وعزمت ألا أزور « ناتاشا » هذا اليـوم . ولبث بالقرب منها

علـــى الارض .

كنـت انهض كل ساعة واقترب مـــن الفتاة وأتفرس بوجهها . لقد انتابتها الحمى وها هي تهذي لقد اصابها صداع وها هي تدمدم وتتألم . ولكنـــها نامـــت نوما عميـــقا عنـــد الصبـــاح .

استيقظـــت مـــن نومي مبكرا والمسكينة لا تزال نائمـــة ، وما ان نهضت حتى خرجت مـــن المنزل باحثا عن طبيب . واوصلتـــي قدمـــاي الـــى منزل طبيب عجوز ، طبيب القلب ، كنت اعرفـــه وهو يسكـــن في شارع « فلاديميـــن » فوعد بأن يحضر الساعة العاشرة ، ثم قفلت عائدا الى بيتي خوفا مـــن أن تستيقظ هيليـــن وتخاف لانها وحيدة .

وما ان دخلت الغرفـــة حتى استيقظت هيليـــن ، فاقتربت منـــها ، برفق ، وسألتها بهدوء وابتسامة ولكنها لم تجبنـــي لان هذه هي عادتها . ولقـــد ألقيت في نظرتهـــا هذه نوعـــا مـــن الشك وسوء الظـــن . انمـــا حدقت في وجهي ، وصوبت الي نظرة عنيدة ، تدل على التساؤل ولكنني اقتربت منها ووضعت يدي على جبينها لارى ان كانت ما تزال محمـــومة ، فابعدتها برفق وولت وجهها شطر الحائط ، فابتعدت عنها حتى لا أزعجهـــا .

وفي الساعة العاشرة ، وصل الطبيب العجوز كمـــا وعد . ثم فحص المريضـــة بكل عناية ودقة وأخبرني بانه ليس هناك أي خطر الان ، انما هي مصابة بمرض مزمـــن لعله خفقان القلب ، وهذا يستدعي ملاحظات خاصة . ثم اعطاها « الوصفة » وسمح لهـــا بتناول بعض المشروبات والمأكولات .

ثم قال لي وهو يخرج :

لا يوجد خطـر الان! انما اذا اقتضى الامر فاستدعني • وعزمت الامر الا أفارق هيلين الا في الضرورة القصوى • وقررت أن لا أزور لا «ناتاشا» ولا « اندريغنا » • ولكنني اعلـم انهمـا سينتظراني بفارغ الصبـر لذلك قررت ان ابلغ « ناتاشا » الامر وذلك بأن اكتب لها رسالة ، وتمنعت عـن الكتابة « لاندريغنا » لانها قالت لي واوصتني بالا اكتب لها رسالة حتى لا يغضب زوجها ، وتدعي بأن عشرة اسطر لا تكفي عـن ابنتهـا « ناتاشا » ، فان كنت موجودا فباستطاعتها أن تسألني هي وانا اجيـب • لذلك لم اكتب سوى « لناتاشا » وأودعت الرسالة في صندوق البريـد وأنا ذاهب الى الصيدليـة •

ونامت هيلـين بعد ذلك • وكانت أثناء نومها ترتعش مـن حيـن الى حيـن • وتارة تتأوه تأوها رقيقا ، واخرى ترتجف ارتجافا شديدا • لقـد اصيبت بصداع شديد ، فآلمها رأسها ، فهي تصرخ احيانا صرخات صغيـرة ، وتستيقظ مـن نومها وتنظـر الي بعداء وجفاء ، كأن عنايتي بها تؤلمها وضيافتي لها تحزنها •

وفي الساعة الحاديـة عشرة وصل « ماسلوبويف » ولم يمكث طويلا وكانت تبدو عليـه امارات الهم وعلامات الذهول والاضطراب•

وبعـد ان قلب الطرف في ارجاء الغرفة ، نظر الي مندهشا ويقول :

ـ ما هذا ؟ لم اخال ان منزلك سيكون واسع الثراء ، ولكـن ليس بمثل هذا ! ولا على هذه الدرجة مـن الفقر ، ان بيتك لشبيه بصندوق ! على كل ليس ذلك بمهم ولا ذات قيمة ••• انمـا الاهم مـن ذلـك

الامور التي تشغلك وتعرفك عن امورك ...

اسمع : ربما اتيت اليك غد او بعد غد ، وعليك انت ان توافيني صباح الاحد ، وعليه تكون قضية البنت الصغيرة قد سويت ، وستتحدث ونهتم بامرك وسنحاول ايجاد عمل لك ، ليس بوسع امرىء ان يعيش كما تعيش انت ، لقد اكتفيت البارحة باشارات سقتها على سبيل التلميح ، ولكنني ساناقشك الان مناقشة منطقية ، قل لي : هل تعتقد ، انه من العار عليك ان تقترض مني بعض المال ؟

فقلت مقاطعا :

ـ دعنا من ذلك الان ، ولا تشاجرني ، بل قل لي كيف انتهى الامر أمس ؟ وماذا حدث ؟

ـ لقد حصل ما ابتغينا ووصلنا الى هدفنا ، وجئت الى هنا لاسألك ان كنت تريد أن تعهد بتربية الفتاة الى أحد ، أو انك تريد أن تحتفظ بها في بيتك ؟ ان ذلك لضروري ويجب ان تتخذ قرارا بصدده .

ـ في الحقيقة انني لم افكر بذلك بعد ... والحق انني كنت انتظرك لاسألك رأيك .

ولكن ما هو العذر الذي اقدمه اذا احتفظت بها في بيتي ؟

ـ الامر بسيط جدا ، تحتفظ بها كخادمة ..

ـ اخفض صوتك ، فهي تملك وعيها كاملا بالرغم من مرضها ، ثم حدثته عن طباع هيلين ومزاجها وعن تصرفاتها وما لاحظته في عينيها ، وما رأيته فيها ، ثم ذكرت له انني ربما عهدت بها الى بيت اعرفه (وكنت اقصد بيت اخمنيف) ، ثم ذكرت له قليلا عن العجوزين ،

ولكم كانت دهشتي عندما علمت انه يعرف شيئا من قصة « ناتاشا » فسألته : ومن اين عرفت ذلك ؟ •

فاجاب :

ـ سبق لي وقلت انني عملت لحساب الامير « فالكوفسكي » : وانها لفكرة ممتازة بأن ترسلها الى بيت هذين العجوزين • لان وجودها سيزعجك حتما • ولكن اين هي ؟ هل هي نائمة ؟ •

ـ اظن ذلك •

وما ان خرج ماسلوبويف حتى نادتني هيلين :

ـ ما هذا ؟

انه « ماسلوبويف » الذي بفضله انتزعتك من « بوبنوفنا » البارحة واتيت بك الى هنا ، اذ انها تخشى بأسه ، وتخاف غضبه • فاحمر وجهها وتغير لونها لانها ولا شك تذكرت الماضي •

ولكنها عادت وسألتني وهي تنظر الي متفحصة :

ـ هل ستعود « بوبنوفنا » الى هنا ؟

ـ لا • لن ترجع الى هنا ، ولن تعود لتستردك •

فاطمأن قلبها ، وهدأ روعها ، وصمتت ، ثم تناولت يدي باصابعها المحترقة ، واخذت تلاطفها وتلاعبها ، ولكنها سرعان ما تركتها •• كأنها قد غيرت رأيها •

وخرجت من المنزل قاصدا الصيدلية لآتي بالدواء ، وفي طريق عودتي عرجت على مطعم قريب وابتعت قليلا من مرق الدجاج لهيلين • وعدت أدراجي الى البيت • ولكن هيلين رفضت ان تأكل شيئا •

وبعدمـــا جرعتها الدواء غطت في سبات عميـــق ، ونامت نوما هادئا ، دون هذيـــان ودون أنيـــن ، دون ألم ودون تأوه .

وفيمـــا أنا أجلس وحدي ، شعرت بارتباك كبير : ان « تاتاشا » التي تجهل سبب غيابي عنها ستغضب لعدم الحضور اليها . بل لســـوف تشعـــر بانها طعنة لشرفها اذ تخليـــت عنها في لحظة يمكـــن ان تكـــون عصبية وحاسمة ، وقد تعرض علي هموما جديدة ، او تريد ان تعهد الي بعمـــل مـــن الاعمـــال فلا تجدني قربها ، فكأنني قد غبت عنها عامـــدا متعمـــدا .

اما « اندريغنـــا » فلم أعد اعرف كيف اعتذر لها غدا . ستوجه الي النقـــد اللاذع ، وتوبخني وقد تضطر الى شتمـــي ؟!

فقررت أن أذهب اليهمـــا كليهمـــا ، وسأتغيب ساعتيـــن تكون خلالها هيليـــن نائمة . فاسرعت وارتديت معطفي ، واعتمـــرت قبعتي وهممت بالخروج، فاستوقفني صوتها ، فدهشت لذلك . اكانت تتظاهر بانها نائمة؟ فاقتربت منها بخطوات بطيئة فقالت لي :

ـ اين تريد ان تضعني ؟ لقد سمعتك تقول لصديقك انك ستضعني في بيـــت مـــن البيـــوت . انا لا اريد ان اذهب الى احد .

فانحنيـــت عليها واخذت اطمئنها ، ووعدتها باني لـــن ارسلها الى احد اذا كانت تريـــد ان تبقى معي . وخلعت معطفي وقبعتي وجلســـت بجانبـــهـــا .

ولكنها ما ان أدركت انني عدلت عـــن الخروج حتى قالت :

ـ أذهب وسأنام فـــورا .

ــ ولكــن ستبقيــن وحدك ؛ انمــا اذا خرجت فسأعود بعد ساعتين

ــ اذن أخرج . وهل لك أن تتعلق بي ؟ أتذا مرضت سنة كاملة ستبقى معي سنة كاملة لا تخرج فيها ؟

قالت هذا وقد تلاشت عــن وجهها سحب الذعر القاتم ، واشرق وجهها بابتسامة بهيــة ، وانقشعت عــن نظرها غبار الاضطراب والشك ونبض قلبها وانكشف على حقيقته .

ومضيت مسرعا الى « اندريغنا » فوجدتها تنتظرنــي بفارغ الصبر ، فاستقبلتني باللوم والتقريع . كان القلق يسيطر عليهــا ، والاضطراب يهيمــن على تفكيرها : لقد خرج اخنيف في المساء ولم يعرف الى ايــن ذهب . فاعترفت لي انها لم تستطع كبح جمــاح نفسها ، وأرادت أن تترك زوجها بفرحتها الكبيــرة ، فقصت عليــه كل شيء . ولكنه غضب غضبا شديدا ، واصبح قاتمــا كالغيــوم ، وخرج مــن البيــت فجأة دون ان ينبس بكلـــمة .

كانت تعتــرف لي وهي ترتعش خوفا ، وترتعد فزعا ، وتوسلت الي ان انتظــر معها « اخنيف » . ولكنني رفضت دو نمراعاة لها ، وقلت انــي قد لا أجيء اليها غدا . فاوشكنا ان نتشاجر ، وانفجرت باكيــة ، وترقرقت عيناها بالدموع ، ثم وجهت الي لوما حادا ونقدا لاذعا ، وتركتها اخيــرا عرضة للذعــر والاضطراب .

ووصلت الى « ناتاشا » فوجدتها كعادتها وحيدة ، مستسلمة لخيالها وعاطفتها ، ولاحظت انها لم تسر لمقدمي كمــا في سائر الايام ، حتى لكأنه قد ازعجها .وسألتها مستطلعا :

ـ هل جاء « اليوشا » اليـوم

ـ اجل . جاء ولكنـه لم يمكث طويـلا . وقد يعرج علي في المساء

ـ والبـارحـة .

ـ لا ... لم يحضر لانه كان مشغولا .

ثم حاولت ان تقيـد كلامنـا وقالت :

ـ ولكـن انت يا فانيـا ، كيف تجري امورك ؟

كان نريـد أن نقف في حديثنا عنـد هذا الحد وان انتقل الـى موضـوع آخـر .

واجبتها على سؤالهـا و « رويت » لها قصة هيليـن تفصيلا . فاهتميت لها كثيرا واعارتها الانتباه وتأثرت بها تأثرا شديدا ولاقتني على انني تركتها وحيدة فقلت لها :

ـ خشيـت أن تغضبي مني لانك قد تكوني في حاجة الى .

ـ أجل يا فانيـا . انني في حاجة ماسة اليـك . ولكـن مـن الافضـل ان ندع ذلك جانبا الان . هل زرتهم ؟

ـ أجـل .

ثم قصصت لها ما جرى في بيت والدها . فقالت :

ـ أجل . لست أدري كيف يمكـن لوالدي أن يستقبل هذه الانباء ... ولكـن أيـن ذهب هذه المرة ؟ في المرة السابقة خلت انه سيأتي الي ، ولكـن لا . لم يأتي . اسمع يا فانيـا . عد الي غدا وسأفضي اليـك بامر مهم جدا . عد الان الى مريضتك لقد تركتها منـذ ساعتين ، لعل شيـئا ما قد حدث او يحدث .

ـ الى اللقاء يا « ناتاشا »

ـ وداعـــا .

قالت ذلك ومدت يدها غير آبهة ، وادارت وجهها ، فتركتها مندهشا كل الدهشـــة وقلت : لا بد أن هناك امرا خطيرا ستقصه علي غدا مــن تلقــاء نفسهــا .

وعدت الى بيتي ، فألقيت هيليــن متكئة على أريكة ، وقد أحنــت رأسهـا على صدرها كأنها في حلم عميــق .

فاقتربت منها فاذا بي اسمع هذيــان ودمدمة فسألتها :

ـ هيليــن ؟ ماذا بك يا عزيزتي ؟

ـ اريــد ان اذهب اليها !

ـ الى مــن ؟ ولمــاذا ؟

ـ الى مدام « بوتبوقـــا » . لقد سمعتها تقول انني مدينة لهــا كثيرا ، وهي التي دفنت أمي على نفقتها الخاصة لا اريــد ان تهين أمي .. أريــد ان اعمــل لحسابها حتى أسد الديــن .. اريــد أن اعود اليها ..

تكلمت ويا ليتها لم تتكلم ، نطقت ومن الافضل الا تنطق ، لانهــا تذكرت الماضي وبشقائه وعذابه ، فاكبت على الاريكة تذرف الدمع وترسل الآهات والحسرات ، ولكني ادركت الموقف بسرعة وقلت لها :

ـ هدئي روعك .. لا تستطيعيــن الذهاب اليها ، لانها ستعذبك !

فقالت بحـــرارة :

ـ فلتضربني ، فلتعذبني فلتضيعني . لست الاولى والوحيـــدة التي تتعذب ، هنــاك الكثير مــن البنات هــن افضل مني بكثير ويتعذبن

••• كنت فقيرة ••• والان فقيرة •• وسأظل فقيرة • هذا ما امرتني به امي وهي تحتضر •• سأعمل •• سأكد •• سأجد •• لا اريد هذا الثـوب لا أريـد أن ارتديه •

ـ ستبعثين معي ولـن اضعك عنـد أحد • سأشتري لك كل مـا تريديـن هدئي نفسك •

ـ سأشتغل عاملة ـ سأعمـل ـ

ـ حسنـا • تمددي الان ونامي لتريحي اعصابك •

فارتمت هيلـين على الاريكـة خائرة القوى ، لا تلوي على شيء وعاودتها رعشات الحمى ، ونامت نوما مضطربا مرتعشا ، فكانت بيـن الفينة والفينـة تستيقظ مذعورة • وكنت اشعر بتعب شديد فأسرعت الى النـوم والافكار الاليمة تسيطـر على مخيلتـي ، وتهيمـن على تفكيري

وفي اليوم التالي ، نهضت من نومي متأخرا • وقد ألم بي صداع حاد • ونظرت الى سرير هيلـين فرأيته فارغا • و في نفس اللحظة سمعت « قرقعة » خفيفة مـن الغرفة اليمنى ، فخرجت فاذا بي امام هيلـين وهـي تكنس الارض ، ووجدت الحطب مكدسا في ركـن الغرفـة ، والمائدة نظيفـة وكل شيء مرتب •

هتفت بها قائـلا :

ـ من سمح لك بأن تكنسي الغرفة ؟ انت مريضة يا هيلين ولا أريد منـك هـذا ابـدا •

ـ لست الان مريضـة ؟

ـ ولكنني لم آخـذك لتعملي عندي ؟ ولكـن مـن ايـن أتيت بهذه المكنسـة ؟ لم يكـن لدي مكنسة .

قلت لها ذلك وانا انظر اليها مندهشا .

ـ انا اتيـت بها الى هنـا وقد خبأتها تحت المدفأة ، وقد كنـت انظف الارض لجـدي .

فعدت الى الغرفـة مطرق الرأس ، مستسلما لتفكيري ومنقـادا لعقلـي ، وبدأت تراود مخيلتـي افكار وخيالات ، ولكن هيليـن قطعت حبل تفكيـري عندما دخلت وجلسـت امامي وهي تبتسم . وبعد جولـة مـن الاسئلة والاحاديث ، استرعي انتباهي اخدود اسود في اسفل ثوبها فقلـت لهـا :

ـ وسخت ثوبك الجميـل يا « هيليـن »

لا أعرف كيف أبدأ بوصفها لك ايها القاريء عند سماعها هذه الكلمة ولا اعرف كيـف انتهي . فالكلام لا يغني ، والوصف لا يجدي ، والكلمة لا تعبـر عـن المنظـر بكامله .

وصفوة الوصف : انها فقدت عقلها ، وضيعت وعيها ، وغابـت عن رشدهـا ، وانقضت على الثوب في حنق ما بعده حنق ، وغضب مـا بعده غضب ، كمـن ضايقها سؤالي واحنقها طلبي ، ومزقت الثوب اربا اربـا ولسان حالها يقول :

ـ سأمزقه ! سأمزقه ! لا احب ان أرتديه ، لقد البستنيه عنوة ، لم اطلب منها ان تجملني به،لم اطلب منها ..

ـ ماذا تفعليـن يا هيليـن ؟ أأصابك مس مـن الجنون ؟

هتفت بها متدهشا .

واخذت اتأمل هذه الضراوة مشدوها ، وهي تنظر الي نظرة استفزاز وحنق كأنني انا المذنب في حقها . ولكني عرفت هذه المرة ما الذي ينبغي علي فعله .

وقررت دون ابطاء ان اشتري لها ثوبا جديدا في هذا الصباح نفسه .

كان بوسعي أن اشتري لها ثوبا بسيطا بسعر زهيد ، انما المصيبة الكبيرة ، في تلك اللحظة ، والطامة الكبرى هي انني لا أكاد املك شروى نقير . وقررت ان امضي الى مكان يمكنني ان احصل منه على مال فتناولت قبعتي وقصدت ناشرا كنت اعرفه منذ اكثر من سنتين ، وطلبت منه أن يسلفني خمسة وعشرين روبلا عن مقال وعدته بتقديمه له في بحر الاسبوع .

وبعد ما حصلت على المال ، مضيت الى السوق وانتقيت لها ثوبا هنديا زهيد الثمن . واشتريت بعض الأغراض والحاجات واغراض للسرير والغطية . وقفلت الى البيت عائدا مع حاجاتي .

وعندما فتحت الباب لم تحدث اية ضجة ، ولم تشعر هيلين بدخولي، فرأيتها على مقربة من منضدة تعبث باوراقي وتقلب كتبي كتبي . وما ان سمعتني حتى طوت الكتاب وكان احدى النسخ من روايتي ،وابتعدت جانبا وقد احمرت خدودها ، وغبق وجهها ، ربما من الذعر او الخوف ، ربما من الخجل ...

قالت لي بلهجة مضطربة :

ــ جاء احدهم وطرق علي الباب .

ـ السم يكلمك ؟

ـ لا .

ـ لعله الطبيب !

وفضضت الرزمة واخرجت منها الثوب وقلت لها :

ـ اسمعي يا هيلين . لا يمكنك ان تستمري في ارتداء هذا الثوب القذر . فقد أكل عليه الدهر وشرب ، لذلك فقد جئتك بهذا الثوب المتواضع ، الزهيد الثمن ، لم يكلفني سوى روبلا واحدا ، فالبسيه ، ارجوك .

فنظرت الي بخجل ودهشة ، كمن أدهشها عملي ، فوقفت صامتة لا تجيب ، وانتصبت ساكتة لا ترد ..

وبينما هي مستغرقة في التفكير ، سألتني فجأة تقول :

ـ من يغسل لك ثيابك ؟

ـ امرأة غريبة .

ـ من الان وصاعدا سأغسل انا ..

واين اكلت البارحة .

ـ في المطعم المجاور

ـ انا اعرف ان اطبخ وسأهيء لك الطعام .

ـ وماذا تعرفين ان تهيئي يا هيلين ؟ ما انك جادة فيما تقولين !

ـ سأهيء لك حساء .

ـ حساء ؟

ـ أجل حساء . فقد كنت اصنع لامي منها عندما كانت مريضة

فاقتربت منها ، وجلست بجانبها وانا اقول :

ـ اسمعي يا هيلين . ما انت بفاعلة ؟ اتحاولي ان تردي لي الجميل لانني اشتريت لك ثوبا ؟ هل تظنين انني كمدام « بونبوفنا » اريد ان تدفعي ثمن معونتي لك ؟ لا . لا تظني ذلك . عيب يا هيلين ان تفكري هذا التفكير ، وعار عليك ان تظني ذلك ، انك وحيدة بدون أهل واريد ان اساعدك ، وانني اعمل ما يمليه عليه قلبي ، هذا جل ما في الامر !

ولم تجب هيلين ، فبقيت صامتة ، وشفتاها ترتعشان ، وعيناها فاجرتان ، وتركتها ثم نهضت لاذهب الى « ناتاشا » وتركت لها المفتاح هذه المرة وسألتها ان ترد على من قد يطرق الباب وان تتعرف على اسمه.

كنت على يقين أن « ناتاشا » في حاجة الي ، وأن امرا ما قد حدث لها ، وقد قررت ان اذهب اليها واجتمع بها لوقت محدود ودقائق معدودة حتى لا أزعجها بزيارتي هذه التي في غير محلها وغير اوانها ..

وهذا ما تم فعلا . فاستقبلتني « ناتاشا » بنظرة ساخطة ، وحاولت ان ارحل فورا ، الا ان قدمي ضعفتا عن ذلك .

وبدأت قائلا :

ـ جئت اليك يا « ناتاشا » لاسلك النصح : ما عساي بفاعل بهذه البنية ؟

ثم رويت لها عن كل ما يتصل « بهيلين » بصورة مجملة وموجزة فلما انتهيت قالت :

ـ بماذا انصحك ؟ وكيف ؟ يجب أن انصح نفسي اولا . على كل حال ان هذه البنية الصغيرة مخلوقة عجيبة . لعلها تحملت الكثير

مــن العذاب والاذى . دعها تسترد عافيتها .
هل تنوي ان ترسلها الى بيت أهلي ؟ .
ـ لا أدري ماذا افعل ! ولكنها تقول انها لا تريد مغادرة منزلي .
:
ـ كيف حالك ؟ كيف هي صحتك ؟ كان يبدو عليك الالم بالامس !
ـ اجل . وما زال . هل رأيت احدا مــن أهلي ؟
ـ لا . ولكــن سأذهب اليــهم في الغد ..
وانتصبت امامي ، واخذت تحدق بي ، وكان يلوح في عينيها تصميم عتيــد وشــيء جديد ، ويظهــر ان ثمة ما يحرقها .
ثــم قــالت :
ـ ارجوك يا فانيــا ، انك تزعجني . دعني .. دعني ..
ـ « ناتاشا » ، ماذا بك ؟ ماذا حدث ؟ مالذي حصل ؟.
ـ لم يحدث شيء .. غدا .. غدا ستعرف كل شيء .. اما الان فاريــدك ان تخرج .. اريدك أن تذهب حالا ، لان رؤيتك تؤلمني كثيرا ، تؤلمنــي جــدا ..
ـ اسمعي يا« ناتاشا » ، ولكن قولي لي على الاقل ما ..
ـ أوه ! لماذا لا تذهب ؟ قلت لك غدا يعني غدا ..
وخرجت مذعورا كمــن صعقته عاصفة ، واصبحت وكانني قد فقدت رشدي .. وعند المدخل تقدمت مني الخادمة وقالت :
ـ ماذا بها ؟ أهي غاضبة ؟
ـ أجل . ولكن ما الذي حصل ؟

– الذي حصل هو أن صاحبنا لم يأت منذ يومين ..

فقلت مندهشا :

– ماذا ؟ منذ يومين ! يا الهي ! لقد ذكرت لي انه زارها صباح اليوم ، وينوي أن يعود اليها في المساء .

– غير صحيح . لم يأت منذ يومين . وقد امرتني امس أن اذهب اليه ، ولكنها عدلت عن ذلك ، ثم عادت وقررت ارسالي الا انها استوقفتني ... اما انت فينبغي ان تمضي اليه ..

فاسرعت اهبط السلم وسمعت الخادمة تسألني :

– هل ستأتي في المساء ؟

– لست أدري ... وربما آتي اليك لاسالك عما تم في الامر ..

مضيت رأسا الى « اليوشا » . وكان يسكن مع والده الامير في « موروسكايا » . ولم اجده في البيت فصعدت الى غرفته الخاصة وكتبت له رسالة :

« يظهر اليوشا انك قد فقدت صوابك . في مساء الثلاثاء حين تقدم ابوك بنفسه من « ناتاشا » وسألها ان تتشرف بقبولك زوجا لها ، كنت في غاية الفرح وغاية السعادة ، لقد شهدت ذلك بنفسي

فلا بد لك من الاعتراف بسلوكك الغريب . هل تدرك ما تفعله « بناتاشا » ؟ هل تعلم ما تصنعه بها ؟ مهما يكن من أمر ، فان كلمتي هذه ، ستذكرك بأن تصرفك مع زوجتك المقبلة تصرف شائن لا يليق بك ، تصرف طائش الى ابعد حدود الطيش ، تصرف أحمق الى اعلى درجات الحمق . على انني اعرف انليس لي عليك حق النصح ،

ولكـن هذا لا يعنى البتة » .

وحتى لا تظـن شيـئا ، ان هذه الرسالة لا تعرف عنها « تاناشا » شيئا ، بل انها لم تحدثني عنـك بكلمة واحدة . وغلفت الرسالة ووضعتها على المنضدة . ثم سألت الخادم عـن موعد رجوع « اليوشا » فاخبرني بأنه سيعـود في الصباح .

وقفلت عائدا الى بيتي وقد خارت قواي ، واصطكت ساقاي ، وزاغت عيناي ، لشدة التعب والاعيـاء . فوجدت اخميف في انتظاري يجلس على المنضدة ، ويتفرس بهيليـن دون أن ينبس بكلمة . وكانت هيليـن تنظـر اليـه صامتة مصرة على الصمت ، وتطلع اليه بدهشة وباضطراب

فلما رآني قـال :

ـ انني هنـا منـذ ساعة

ثـم استطـرد يقـول :

ـ جئتـك مسرعا لان ثمة امرا خطيرا يجب ان اخبرك به . ولكـن ما بك ؟ مالي اراك شاحب الوجه ؟

ـ لست على ما يرام .. ان رأسي يدور منـذ الصباح .

ـ يجب ان تحـترس .

ـ اجل . ولكـن كيف حالك انت ؟ وماذا هناك ؟

ـ حالة قلق هذا جل ما في الامر . لقد وقع أمر . اجلس .

وقربت الكرسي من العجوز ، فمال هو نحوي وقال بصوت منخفض :

ـ من هي هذه البنيـة ؟

ـ انها حفيـدة العجوز « سميـث » الذي مات في المقهى .

ـ اه ! اذن كانت له حفيدة . ولكـــن مالذي أتى بها الى هنـــا ؟

ـ في الواقع انها لم تكـــن تعلم ان جدها « سميث » قد مات .

ـ انها فتاة غريبة ، وتنظـــر نظرة عجيبة ! فلو تأخرت انت خمس دقائق لما بقيت انا هنا . لانها لم تسمح لي بالدخول الا بعد عناء شديد ، ثم انها لم تفتح فـــاهـــا .

على كل حال دعنـــا مـــن هذا ، سأكلمك بأمر هام جدا .

ـ مـــا هـــو ؟

ـ سأوجز لك الامر . ولكـــن ساوضح لك المسألة .

انمـــا جئت اليـــك لاطلب منـــك امرا خطيرا ... « أريـــد مبارزة الاميـــر » فمـــا أن سمعت هذا الكلام حتى انقلبت عـــن الكرسي ، ونظـــرت اليـــه مشدوها مـــن هول ذلك ، وقد أخـــذ مني الانشداه مأخذه ثم قـــال :

ـ لماذا تنظـــر الي هكذا ؟ أنا لست بمجنون !

ـ اسمع يا « اخمنيـــف » . قل لي بايته حجة تطلبه للمبارزة ؟ ولاي غـــــرض ؟

وهل يمكـــــن أن ...

فقاطعني العجـــوز قـــائـــلا :

ـ حجة ؟ لا . لا . شيء عظيم ! (بسخرية) .

ـ اعرف ما ترغب في أن تقوله . ولكن بماذا ستخرج من المبارزة؟ وفيـــم يفيـــدنا الانفجار ؟ انا لا افهم ذلك .

ـ اسمع يا فانيـــا . انت تعلم ان قضيتنا قد انتهت ، ولقد خسرت

القضيــة .. وقررت المحكمة ان ادفع عشرة الاف «روبل» . اوخمنيفكا هي الضمــان . ويعني ذلــك ان هذا الجرو واثق مــن أنه سيقبض المبلغ . وانا اذا تنازلت عــن اخمنيفكا اكون قد سددت ديني ، واصبحت غريبـا عنـه . عنـد ذلك باستطاعتي ان ارفع رأسي واقول له : « ايها الاميـر المحترم ، لقد بقيـت سنتيــن تهينني ، وظللت عاميــن تعيرني ، لوثت اسمي ، لطخت شرف عائلتي . وكان لا بد مــن الاحتمال !

كنت لا استطيع ان ادعوك للنزال لانني لو فعلت ذلك لاجبتني : « يا لك مــن رجل محتال ، يا لك مــن مغفل نصاب ، تريد ان تقتلني حتى تتخلص مــن دفع الديــن للمحكمة . لا . لا فلننتظر ما تقــرره المحكمــة وما ستؤول اليــه القضيــة ، ثم تدعوني للنزال » .

اما الان ايها الاميــر النبيل ، وقد فصلت المحكمة في القضيــة وربحت انت الدعوى ، ولم يعد هناك مــن رادع ، ولا ثمة ما يحول دون نزالنــا ، فهيــا واظهــر شجاعتك وبيــن قوتك والحق بي الــى السهل .

ـ هذه هي المسألة يا « فانيــا » الا يحق لي أن أثأر لشرفي؟

ـ اسمع يا أخمنيف . هل تثق بي وتصدقني ؟

ـ فاجاب مؤكــدا :

ـ نعم . نعـم

ـ قل لي بصراحــة . هل عاطفة الثأر تحدوك وحدها أم ثمة لــك اهدافـا اخــرى ؟

ـ أجل . هنــاك امور أخرى . يجب أن انقذ ابنتي مــن الغــرق

في بؤرة الشؤم والعذاب • يجب ان اخلصها من الطريق المشئوم •

فسـألتـه :

ـ ولكـن كيف ستنقذها هذه المبارزة ؟

ـ اسمع يا « فانيـا » • انني انتزعت مـن قلبي « ناتاشا » فهـي لـم تعد ابنتي • انما احاول الا يغلبني هذا الرجل • وسأطلب منه النزال فان قتلنـي فمـن غيـر المعقول ان تسيـر ابنتي على جثتي وتتـزوج ابـن الامير ، وان قتلته فـلا يمكـن لاليوشا ان يتزوج « ناتاشا » وأقولها بصراحـة : انني احارب هذا الزواج ولا أريده وارغب في أن افسده ، وسأبذل كل ما في جهدي لاحول دونه •

ـ لا افهمك يا أخمنيف • كيف تريد سعادة « ناتاشا » وترغـب في انقاذها وتحاول أن تنسف ذلك الزواج الذي تعتمد هي عليه لـرد اعتبارها ؟ وهي في حاجة الى سمعتها بيـن الناس •

ـ ان احسن جواب ترد به على الناس هي ان تحافظ على كبريائها ، ويجب أن تشعر بأن اعظم فضيحة هو ذلك الزواج مـن اناس او ابناء اراذل •

ـ هل تظن انها تحب لتصبح اميرة ؟ لا • انها اسما مـن ذلك • انها تحب وتهوى • انه القدر •

وأنت : تحاول أن تضحي بسعادة ابنتك ، لانك تحترق رغبـة للهزء بـه ، وللانتقام منه •• انك اناني •••

وظل العجوز جالسا مدة غير قصيرة لا يجيب ، واخيرا قال والدمع يترقرق في عينيه :

ـ انك ظالم يا « فانيا » انك تظلمني • ثم وقف وتناول قبعته وهو يقـــول :

ـ لقد تحدثت منـذ لحظة عـن سعادة ابنتي، فاعلم ، أنه اذا لم اتـدخل لـن أؤمـن بان ابنتي سعيـدة ، ولـن تكون سعيدة ابدا ، فهتـفت مـدهشـا :

ـ لماذا ؟ وكيف ؟ هل تعرف شيئا ما ؟

ـ لا • لا اعرف شيـا، خاصا • انما اذكرك بأن الامير ، هـذا الثعلب الخبيث ، لـن يقدم على فعل امر كهذا ، ولـن يزوج « اليوشا » لابنتـي ، انه خداع ماكـر ، انها خطة من خططه الخبيثة ، انها حلقة مـن حلقاته الماكـرة • تذكـر ذلك جيدا • اسأل نفسك واحتكم : هل يمكن لابنتي ان تسعد بمثل هذا الزواج ؟ ستكون حياتها معه قاسيـة ، ستكون سلسلة مـن المتاعب والمذلة • لسوف يحتقرها متى تزوجها ، لســوف يصب عليها الوان الاذى وضروب الهوان ، وعندئذ تأتي الغيرة ويأتـي العـذاب ، ثم يأتي الجحيم والقطيعة وربما اتت الجريمة ••

لا • يا فانيـا • فان كان هذا ما تهينه ، وهذا ما تدافع عنـه وتصر عليـه فانك ستندم كثيرا ولكن بعد فوات الاوان ؟

والآن وداعـــا !

وامسكت به واستوقفته :

ـ يجب ان تنتظر وربما انحلت القضية مـن تلقاء نفسها على ما تحب • واسمح لي ان اقول ان العنف والقوة لا يجديان ، وان ما تفكـر بـه لا يمكـن تحقيقه • وهل تظن ان الاميـر سيقبـل منازلتك

ــ ولمــا لا ؟

ــ اؤكد لك بانه لــن يقبل ، سيتدبر الامر برصانة واستعــلاء ، ثم انه سيجعلــك موضع هزء وسخرية .

ــ ارجوك لا تتحدث هكذا . ان هذا الكلام ليبعث على الغضب وليقطع مــن الايدي والارجل . كيف لا يمكنه منازلتي ؟ هل سيجد في منازلتي غضاضة ؟ أو لست كفء له ؟

ــ سترى على كل حال .. سيعرض مــن الحجج ما يجعلك اسرع منه لرفض النــزال .

ــ ليكــن ما تشاء . ولكــن ارجوك الا تكلم احد عما جــرى بيننا اليــوم حتى ولا « لاندريفنا » .

ــ لك مــا تــريــد .

واخيــرا لي رجاء واحد : اعرف أن زياراتك لنا قد تزعجك ولكن ارجو منك أن تكثر منها لان « اندريفنا » تحبك كثيرا وتضيق ايما ضيق حينمــا لا يأتي اليها .

ــ كمــا تريــد .

قال العجوز ذلك وقد شد على يدي شدا قويا ثم قــال :

ــ هل لديــك مالا يا فانيــا

قالها العجوز وقد احمــر وجهه .

ــ قــال ؟

ــ نعم ... لقد رأيت بيتك بحالته الحاضرة ، فقدرت ان نفقاتك كثيرة فخذ هذه المائة والخمســين روبلا لعلها تفيــدك الآن .

ـ ماذا ؟ تعطيني مئة وخمسين « روبلا » .. بعد أن خسرت قضيتك ؟

ـ فانيا . انك لا تفهمني ؟ قد تحتاج الى هذا المال ، خذ المبلغ ارجوك . فان لم تكن في حاجة اليه الان قد تحتاج اليه في المستقبل . الا ينبغي على المرء ان يفكر في المستقبل ؟ .

ولكن ما بك ؟ ما هذا الشحوب ؟ لعلك ولا شك مريض ؟

ولم اجب على سؤاله بل أخذت المال لانني في الحقيقة كنت في حاجة ماسة اليها ثم اجبته اخيرا :

ـ انني لا استطيع الوقوف على قدمي .

ـ حسنا يا فانيا . فينبغي الا تخرج اليوم من البيت .

وسأخبر « اندريغنا » بأنك مريض . وسآتي اليك غدا .. ويجب ان تنام الان . الان .

الى اللقاء ايتها الصغيرة . اسمع يا صديقي : هذه خمسة روبلات هي للصغيرة فاشترى لها ما تريد ولا تقل لها انها مني .

ومضيت الى السوق لاشتري طعاما لهيلين ، وقد بقيت هيلين طوال النهار لم تأكل شيئا . وما ان وصلت الى بيتي حتى اصابني صداع شديد ، وانتابني دوار فوقعت في وسط الغرفة . ولم اتذكر شيئا وغبت عن كل وعي ؛ الا من صرخة هيلين حين هرعت الي وهي تضرب كفا بكف . وهذا كل ما تذكرته في اللحظة الاخيرة ..

فلما صحوت من غيبوبتي ، الفيت نفسي ممددا على السرير . وروت لي هيلين ما حصل لي وكيف نقلتني الى السرير بمساعدة البواب

وقد استيقظت عدة مرات في اليوم • وكل مرة أرى وجه هيلين وقد تسمر متطلعا الي ، فائضا بمعاني الرحمة وناطقا بمعاني القلق والشفقة• كان طيف البنية الصغيرة لا يفارق مخيلتي ، كان يتراءى لي وانا نائم، ويظهر لي وانا مستيقظ ، شبحا رشيقا لطيفا • وكانت هيلين كآلة لا تهدأ عن الحركة ، فلا يقر لها قرار ، ولا يهدأ لها بال ، تروح وتجيء ، تجلس امامي وتنهض من قدامي ، تأتيني بجرعة ماء وتحضر لي صحن حساء • كانت قلقة مذعورة ، تظل امامي طوال الوقت ، وكانت تلوح على وجهها تباشير الحزن وامارات الخوف والجزع • تارة تلاعب شعري واخرى تلامس ثغري ، واتذكر انها قد طبعت قبلة انسانية على خدي •

وفي الليل ، نهضت على حين فجأة ، فرأيت في ظل شمعة منيرة ، ذابلة ، منضدة صغيرة بالقرب من منضدتي ، وقد نامت عليها هيلين، واستغرقت في سبات خائف وجل ، وقد انفرجت شفتاها الشاحبتان ، واستراحت يدها على خدها الفاتر •

وعندما بزغت الشمس باشعتها الجديدة ، وتلاشت خيوط الليل السوداء ، وتراقصت الاشعة الذهبية على الجدار ، وسطعت بلون الارجوان ، كانت هيلين ممددة على الكرسي ، وقد اسندت رأسها الى ذراعها اليسرى ، وغطت في نوم عميق • قبلت يدها الطرية الناعمة ، ثم عدت ونمت نوما هادئا مريحا •••

وعندما انتصف الظهر ، كان اول ما لفت نظري هي الاغطية التي اشترتها امس ، وقد صنعت منها هيلين زاوية لنفسها خاصة بها •

فمـا ان رأتنـي استيقظ ، حتى اشرق وجهها وانفرج ثغرها عن ابتسامة ناعمـة فرحة ، وهرعت الي فورا .

فامسكت بيدهـا وقلت لها :

ـ لقد سهرت علي الليـل يا عزيزتي . ولم اكن اعلم انك بنبيلـة الى هـذه الدرجـة .

فقالت وهي بتسم ابتسامة لطيفة متخابثة :

ـ وكيف تعرف انني قد سهرت عليك ؟ وما يدريك أنني لم انـم الليـل كلـه ؟

ـ لقد استيقظت ورأيت كل شيء . حتى ذلك لم تنامـي الا في الصبـاح .

فقاطعتني ، كأن مواصلة الحديث تزعجها ، وهذا قلما يـحدث الا للذيـن يتصفون بالحيـاء حيـن يوجه اليهم الثناء ، والذيـن يتحلون ويتميزون بالشرف والاستقامة . وقالت :

ـ أتريد القليل مـن الشاي ؟

ـ نعم . هل تناولت العشاء امس ؟

ـ لم اتعش . انمـا تناولت شيـئا مـن الطعام في الليل ، ولكـن دعنـا مـن ذلك وعليك الا تتكلم الآن ، وان تظل راقدا بهدوء . ثم قالت :

ـ انك لم تشف تماما بعـد .

ـ اجل . سأظل راقدا حتى المسـاء . ولكـن علي بالخروج بعـد ذلك .. لا بد مـن الخروج .. اجل يا هيليـن .. الى مـن ستذهب ؟

الى زائر الامس اليس كذلك ؟ (تقصد اختيف)

ـ لا .

ـ اذن ستذهب الى ابنته ؟

ـ ولكن كيف عرفت ان له ابنة ؟

ـ سمعت كل شيء .

قالت ذلك وقد عادت الى وجهها مسحة من الالم وقطبت حاجبيها واردفت تقول :

ـ هذا رجل شرير .

ـ بالعكس ؛ انت لا تعرفينه . انه رجل شهم .

واجابتني في حرارة :

ـ لا . لقد سمعت كلامه ؛ انه شرير .

ـ ماذا سمعت ؟

ـ سمعته يقول بانه لا يريد ان يغفر لابنته .. انه قاس ..

ـ لكنه يحبها ؛ لقد اساءت اليه ، وهو يعاني الوان العذاب بسببها !

ـ لماذا لا يغفر لها ويصفح عنها ؟ في رأيي أن على ابنته الا تعود اليه ولو تغفر لها .

ـ كيف ؟ ولماذا ؟

ـ لانه لا يستحق المحبة . فلتهجره الي ، وتتضرع الى الناس وتتطلب الصدقات من الناس ؛ حتى يراها تتعذب وتتسول ..

قالت ذلك بحرارة ، وقد التمعت عيناها واحمرت وجنتاها ، ثم اردفت تقول :

ـ أفي هذا البيت تريد ان تضعني ؟

ـ اجل .

لا . لا . افضل ان اعمل خادمة .

ـ خادمة ؟ ما هذا الكلام ؟ ماهذه الحماقة ؟ عند من تريدين ان تعملي خادمة

ـ عند أول فلاح القاه .

فقلت ضاحكا :

ـ الفلاح !.. ولكنه لا يستفيد من خادمة مثلك

ـ اذن سأعمل عند اغنياء .

ـ ولكن هل يمكن لك ، وانت صعبة المزاج ، غريبة الاطوار ، حادة الطبع ان تقيم مع اناس اغنياء ؟

ـ نعم .

ـ ولكنك لن تحتملي ذلك .

كان غضبها قد اشتد ، واجوبتها تحتد ثم قالت :

ـ بل سأحتمله . سأصبر على ذلك ، فان ضربوني أسكت ، وان انبوني اصمت ، وان نصحوني أنصت .

ـ ما دهاك يا هيلين ؟ مالي اراك حادة شديدة الحدة ؟ مالى اراك متكبرة شديدة الكبرياء ؟

واقتربت من المنضدة ، بينما بقيت هيلين جالسة على الاريكة،

مطرقة الرأس ، مستسلمة لافكارها ، وشاردة في خيالاتها ..

وفتحت الكتاب وفي نيتي ان اكتب مقالا ولكن هيلين سألتني :

ـ ماذا تكتب ؟

ـ أشياء كثيرة .. وانني اتقاضى اجرا على الكتابة .

وشرحت لها ، انني اكتب قصصا وروايات لاشخاص مختلفة وكانت تنصت الي بشغف وباهتمام بالغ . ثم قالت :

ـ وهل تقول دائما الحقيقة ؟

ـ لا . انما اخترع وابتكر .

وقد بدت لي مضطربة ، وكان يلوح الي ان ثمة شيء يختفي تحت اسئلتها . ثم تابعت :

ـ هل الاجر الذي تتقاضاه كبيرا ؟

ـ ذلك يتوقف على جودة الرواية . فان جاءت الرواية جيدة نلت اجرا كبيرا ، وان كانت القصة رديئة ترفض ولم انل شيئا عندها .

اذن ، لست غنيا ؟

ـ لا .

ـ سأعمل معك واساعدك ..

قالت ذلك وتطلعت الي بنظرة سعتها الحب والحنان ، ثم خفضت عينيها ، واقتربت مني ، واحاطتني بذراعيها وشدت وجهها الى صدري ، ثم قالت :

ـ انا احبك !.. لم يحبني احد غيرك :

ثم انفجرت في بكاء عنيف ، وسال الدمع على خديها مدرارا ،

وخرت راكعة على ركبتيها ، وشرعت تقبل يدي ، وتقبل قدمي •• وهي تسألني :

ـ هل تحبني ؟ انت الوحيد الذي احبني ••

كانت تشد ركبتي بذراعيها في تشنج • ان عواطفها الحبيسة ،انفجرت انفجارا عنيفا لا سبيل الى رده ، ولا لكبحه ، ان العناد الشديد الذي ظل مغلقا ، والذي كانت صلابته في الانغلاق على قدر قوته للانفتاح ، قد انفتح الان •

وظهرت لي « هيلين » بثوب لا اقدس منه ولا اجل ، ظهرت لي باجمل حلة قد يلبسها المرء ، حلة العاطفة والحب ، حلة النبل والاخلاق والامتنان •

ظلت تبكي وتبكي ، لم تستطع ان تسد هذه الثغرة الصغيرة من نفسيتها •• ودفنت رأسها بين الوسائد كانها تخجل من أن اراها بهذا الشكل وعلى هذه الحال • ولكنها لم تترك يدي ، وبقيت تشد عليها وترفعها الى صدرها ••

وعادت الى وعيها ، وعدت بينا فشيئا ، ولم تقو على رفع رأسها من الخجل ولكنها اختلست اخيرا النظر الي ، ورمقتني بنظرة رقيقة وابتسمت لي •••

قلت لها :

ـ هل تحسنت حالتك يا هيلين ؟

فدمدمت تقول :

ـ يجب ألا تخاطبني بهذا الاسم •

ـ لماذا ؟ وبأي اسم سأخاطبك اذن ؟

ـ باسم « نللي » ...

ـ نللي ؟ لا مانع عندي من ذلك ، فالاسم جميل وسأناديك به ،

ـ بهذا الاسم كانت تناديني امي ..ولم يناديني به احد غيرها ابدا .

وحين هدأت ، والي نظرت ، قلت لها :

ـ اسمعي يا « نللي » . سمعتك تقولين منذ برهة ان امك هي الوحيدة التى كانت تحبك ، فهل كان جدك لا يحبك ؟

ـ اجل . لم يكن يحبني !

ـ ولكنك بكيت هنا حينما أبلغتك نبأ وفاته ، هل تذكرين ذلك ؟

وظلت صامتة برهة من الزمن ثم قالت :

ـ لا .. لم يكن يحبني .. كان رجلا شريرا .

ـ ولكن ما كان ينبغي ان يطلب منه ذلك ! لقد مات كما يموت المجنون .

ألم أروي لك كيف مات ؟

ـ نعم . انما في المدة الاخيرة نسي نفسه تماما ، فكان يظل جالسا النهار كله اذا لم آت اليه ، وكذلك يبقى بدون اكل وبدون شرب يومين او ثلاثة . اما قبل ذلك فكانت حالته افضل بكثير .

ـ قبل ذلك ؟ كيف ؟

ـ قبل ان تتوفى أمي .

ـ اذن ، كنت تحملين له الطعام يا نللي ؟

ـ اجل .

ـ ولكن من اين كنت تأتينه بالطعام ؟ من بيت بونبوفنا ؟

ـ لا . لم أكن آخذ شيئا من بونبوفنا (بلهجة حازمة)

ـ ومن اين تحضرينه له اذن ؟ وانت لا تملكين درهما ؟

فصمتت لللي ، واحمر وجهها ، ثم تفرست بي وقالت :

ـ كنت اتسول في الشارع ، حتى اذا ما جمعت خمسة « كوبيكات» اشتريت له بها خبزا ...

ـ هل كان يقبل ذلك ؟

ـ في بادىء الامر لم اخبره . ولكنه عندما علم بذلك ، ارسلني من تلقاء نفسه لاتسول . فكنت أقف على الجسر ، واتضرع الى المارة واطلب الصدقة . وكان يقف هو قريبا مني ، حتى اذا ما وضع احدهم درهما في يدي أسرع هو الي وانتزع مني الدرهم خوفا منه بانني سآخذ الدرهم لنفسي ،مع العلم انني اتسول له ...

وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة ثم اردفت تقول :

ـ كل ذلك كان بعد موت امي . ويومئذ كان جد ي كالمجنون .

ـ اذن ، كان يحب امك كثيرا .

ـ لا ، لم يكن يحبها ... بل يكرهها . لقد كان شريرا قاسيا ، وكان لا يريد ان يغفر لها.. مثله مثل العجوز الذي جاءك امس ..

قالت ذلك برفق واناة ، وقد ازداد وجهها شحوبا

ارتعشت جزعا ، وارتعدت اضطرابا . ان عقدة الرواية برمتها قد التمعت في خيالي : المرأة المسكينة تحتضر في قبو عند صانع التوابيت، الابنة الشقية تزور جدها الذي غضب على والدتها

العجوز الغريب يفقد عقله ويموت في مقهى بعد موت كلبه !

ثم قالت نللي فجأة :

ـ ان الكلب آزور كان لامي في بادىء الامر ، وعندما تركته وتزوجت ، بقي آزور عنده . لذلك كان يحبه كثيرا . ثم اضافت بصوت قاسي وقد اختفت الابتسامة عن وجهها :

ـ لم يغفر لوالدتي !! .. ولكنه توفي .. اجل توفي بعدما مات الكلب آزور .. ومرت بنا لحظة خيم عليها الصمت وران فوقها السكون ، وعدت وسألتها :

ـ من كان جدك ؟ وماذا تعرفين عنه يا نللي ؟

ـ كل ما اعرف عن جدي انه كان غنيا ويملك مصنعا ، هذا ما قالته لي أمي ، والواقع أن والدتي كانت تناديني دائما : ايتها البنت الشقية ، ايتها البنت التعيسة ، يا طفلتي المسكينة .

وعندما كنت اتظاهر في النوم ، كانت تقبلني وتبكي وتنوح قائلة : ايتها الطفلةالبائسة ، ايتها الطفلة المعذبة !

ـ مم ماتت امك ؟

ـ من داء السل ، منذ ستة اسابيع

ـ هل تذكرين الايام التي كان فيها جدك غنيا ؟

ـ لم اكن قد ولدت بعد . لان والدتي تركت جدي قبل أن اولد انا .

ـ مع من ذهبت والدتك ؟

ـ لا أعرف . انما اعلم انها ذهبت الى بلاد اجنبية حيث

ولدت انا .

ـ بـلاد اجنبيـة ؟ ايـــن ؟

ـ الى سويسرا . ثم انني طفت في ايطاليــة وباريز .

ـ انك تجيديــن الروسيـة اجادة تامة ! فكيف ذلك ؟

ـ اجل . فوالدتـي علمتنـي الروسيـة هنـاك . لانها كانت روسيـة الاصـــل .

ولما عدنـا الى هنـا منـذ سنـة ونصف تقريبا اتقنت الكــلام بالروسيـة . وكانت والدتي قد الم بها الداء ومرضت في ذلك الوقت ، واصابنـا الفقـر ، والح علينا ، فكان يزداد يوما بعد يوم .

والدتـي تبكـي وتبكي ، ليل نهار ، صباح غداء ، عصر مساء ، لا تكف عـن البكاء ، وظلت مدة طويلة تبحث عن جدي في «بطرسبرج»

وكانت تقول انها اساءت اليه ، وكانت تبكي ! وحينما علمت انجدي قد اصبح فقيـرا ، اشتد بكاؤها ، فكانت تكتب اليـه في كثير مــن الاوقات ولكنه كان يغض الطرف ولا يرد على رسائلها ابدا .

ـ لماذا عادت امك الى هنا ؟ هل كانت رغبتها في البحث عـن ابيها هي السبب الوحيـد ، والدافع الاول الذي حمـلها على العودة ؟

ـ لا اعلـم ، انما كنا هناك على احســن حال . كانت والدتـي تعيـش وحدهـا معي . وكان لها صديق طيب القلب ، عفيف الفؤاد مثلك . تعرفت عليه من هنا . ولكنه قضى نحبه وعاد الى ربه ، ومن أجل هذا عادت ...

ـ اذن سافرت معــه ؟!

ـ لا . بل سافرت مع شخص اخر . ولكنه هجرها ..

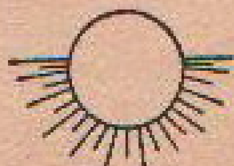
ـ من هو ذا الشخص يا تللي ؟

لم تكن ترغب « تللي » في ان تذكر لي اسمه ، لعله ابوها وهي حتما تعرفه . ولم ارهقها باسئلتي لانها ذات طبع غريب ، ومزاج عجيب ، فقد احبتني حبا مغنيا حاميا لا يضارعه في اضائته حب ، وفي صفاءه ود ، حبا يكاد يعادل حبها لامها التي ما أن تتحدث عنها حتى يحز الالم في نفسها وقلبها . كانت لا تفضي الي عن نفسها الا قليلا ، ولا تشعر بالحاجة الى ان تحدثني عن ماضيها الا نادرا ، فما خلا ذلك اليوم ، حتى لقد كانت تخفي عني ذلك الماضي بنوع من القسوة والضراوة . الا انها في ذلك اليوم قد اطلعتني على كل من كان من ذكرياتها تقض مضجعها ويعذبها اكثر من غيره .

ولن انسى قصتها طالما حييت . ولكن المهم من هذه القصة سيجيء حينه فيما بعد .

انها قصة رهيبة : قصة امرأة هجرها صاحبها وما يزال يعيش على انقاض سعادتها ، قصة امرأة مريضة قض مضجعها الداء وهدها الالم ، وانكرها الانسان الذي كانت تعقد عليه آخر رجاء ، قصة امرأة استبد بها اليأس ، فأخذت تطوف في شوارع « بطرسبرج » تطلب الصدقات من الناس مع ابنتها التي لا تزال صغيرة ، قصة امرأة قضت نحبها في قبو رطب منذ اسابيع قليلة ، ورفض ابوها ان يمن عليها بغفرانه الى اخر لحظة من حياتها ، حتى اذا عاد اليه صوابه هرع اليها ليغفر لها فلم يجد في مكان ابنته الا جثة هامدة . انها

قصـــة غريبة ، قصة عجيبة ، قصة بيـن عجوز ارتد الى « نعومة اظافره» وحفيــدة له تفهمه رغم صغر سنها • انها قصة مظلمة ، قصة قاتمة مـن تلك القصص السوداء الاليمة ، قصة اسرار تجري خفيـا تحت سمـــاء « بطرسبرج » في الزوايا المتسترة مـن المدينة ، وسط اصطخاب الحياة ، والانانية الضاربة ، والمصالح المتصارعة ، والفجور الكالح ، والجـرائـم الخبيثة ، في كل هذا الجحيم مـن الحياة المجنونة الشاذة •



القسم الثالث

الفصل الأول

صحوت مع اطلالة الغسق ، واستيقظت مع بزوغ الشمس ، وجاء الظهر ، وتلاه المساء ، ولم اتذكر الحاضر الا بعدما صحوت من هذا الحلم القاتم ، الثقيل •

وقلت لنللي :

ـ نللي • اعرف انك مريضة الان ، مهدودة القوى ، ورغم ذلك لا بد لي من ان اتركك وحيدة ، دامعة ، مضطربة اعلمي ان هناك شخصا اخرا نحبه ، شخص عزيز على قلبي ومقرب لفؤادي ، رفضوا ان يغفروا له ، شخص شقي مهان ، انسان مهجور •• انها تنتظرني •• أجل• تنتظرني •

وقد بلغ في الاضطراب بعدما رويت لها القصة ، انني لم اعد احتمل البقاء في البيت ، وقررت ان امضي فورا لاراها في هذه اللحظة •• وصلت الى « ناتاشا » في الساعة السابعة • ولمحت قرب المنزل عربة تشبه عربة الامير • وبينما كنت اصعد السلم ، تهادى الى مسمعي وقع خطوات خفيفة فوقي • هي خطوات رجل يصعد السلم تلمسا لئلا تزل قدمه • كان هذا الرجل المجهول يهمهم متذمرا ، ويسب ضجرا ، ويلعن مشمئزا ، ويشتم في اقذاع ما ينفك يشتد كلما صعد درجة ••

كان السلم قذرا وعرا ، يعث على القرف ، ولم يضأ بنور يوما • وحينما وصلت الى الدور الثالث انعكس نور قوي يضيء امام باب « ناتاشا » على وجه الرجل ، وكشف خلقته ، وبانت سحنته ، وظهر وجهه، وذعرت لانني لم اكن اتوقع ان الامير قد يصدر منه هذا الكلام البذيء • لم يعرفني منذ اللحظة الاولى ، ولكن وجهه ما لبث أن تبدل فجأة ، فاذا بنظرته التي كانت تفيض بالكره والخبث ، تصبح نظرة محببة مرحة ، واذ هو يمد لي يده في كثير من الفرح والمرح • وقال :

ـ كدت اقع على أنفي• هل سمعتني اسب والعن ؟

قال ذلك وقد انفجر ضاحكا ، ولكنه ما لبث ان اكتسب طابع الجد والغضب ، وقال :

ـ كيف يسمح « اليوشا » لنفسه بأن يسكن « ناتاشا » بمنزل كهذا ؟

ألا يؤنبه ضميره ؟ الا يخجل من نفسه ؟ والاسوأ من ذلك ، كان قد بلغني انهما يعوزهما الخبز احيانا !! أترى ؟ انني افكر بمستقبله ، وبمستقبل « آنا نيقولانفيا » عندما تصبح زوجته ••

كان الامير قد اخطأ في اسم « ناتاشا » انما لم يفطن لذلك ربما عامدا متعمدا ؟ ربما لم ينتبه ؟ لست أدري •• وعندما دلفنا الى الغرفة كانت المائدة مهيأة وهم في انتظارنا • وسألت الخادمة :

ـ هل اليوشا هنا ؟

فاجابتني مضطربة :

ـ لا . لم يحضر بعـد ...

ثم دخلنـا الى غرفة « ناتاشا » التي كانت منزوية في ركـن الغرفة، وقد اطلقـت العنـان لافكارها ، وفسحت المجال لخيالاتها ، كانـت شاردة اللب ، مضطربة ، هزيـلة ، شاحبة ، ذاوية الخديـن ، محمـرة العينيـن . مدت يدها يرود الى الاميـر دون ان تنبس بكلمة ، ولـم تعري اهتماما ولم تلق نظرة علي ، فظللت واقفا وانتظـرت في صمت . وهنـا قال الاميـر بلهجة فرحة :

ـ ها أنذا قد جئت أخيـرا .. وتأكدي بانك لم تغيبي لحظـة عن بالـي خلال هـذه المدة كلهـا ..

ثم استطـرد :

ـ في ذهنـي الكثير مـن الامور يجب ان اقولها لك .. ولكـن قبل كل شيء ، ايـن ذلك الطائش ؟ الم يصل بعد ؟

وقاطعته « ناتاشا » قائلة :

ـ هل لي بكلمة « لفانيـا » ؟ ... تعال يا فانيـا ...

ثم جرتني الى ابعد ركـن وامسكت بي وقالت :

ـ هل غفـرت لي يا فانيـا ؟

ـ ماذا دهاك يا « ناتاشا » ؟ هلا سكت ؟

ـ لا « يا فانيـا » . اعرف انك ستظل تحبني. ولكنك ستحسبني عاقة ، لقد كنت انانيـة ، قاسيـة نهار امس .. اغفر لي لانك غفرت لـي قبل الان ! ارجـوك .. ارجوك ... اغفر لي ..

ولم تتمالك نفسها ، ولم تستطع كبح عاطفتها ، فاسندت رأسها على

كتفي واخذت تبكي بكاء الاطفال فاسرعت وقلت لها :

ــ كفى بكاء يا « ناتاشا » . كنت مريضا البارحة طوال الليل ، ولم أزل حتى الآن . لذلك لم احضر اليك مساء امس . فلا تظني يا عزيزتي بانني قد تخلفت عن الحضور غضبا ؟ .

فقالت وقد شقت لابتسامتها طريقا عبر الدموع ، وشدت يدي شدا اليها :

ــ حسنا ، هذا ما أريده ، لقد غفرت لي اذن . هذا يكفيني الان ، ولنعد اليه ، وبعد ذلك سأقضي لك بامور كثيرة ..

ــ فلنعد يا « ناتاشا » لاننا تركناه في غير رفق ..

ــ سترى ما سيحدث .. ستقرر هذه السهرة كثيرا من الامور ..

لم افهم معنى ما قالته « ناتاشا » وارتبت للامر . وعبثا حاولت ان اطرح بعض الاسئلة الا ان الوقت لا يتسع . وتقدمت « ناتاشا » من الامير بخطى رصينة ثابتة ، وكان هو ما زال منصبا ممسكا بقبعته ، فتناولتها منه ، ودعتنا للجلوس الى المائدة ..

وابتدأ الامير بالحديث قائلا :

ــ هل تعلموا أنني لم أر « اليوشا » سوى دقيقة واحدة في الشارع منذ أربعة ايام ؟ ... أجل . وتصوروا انه لم يركب معي لانه كان مستعجلا يسير بخطى سريعة الى منزل اكوشية « زينائيد » ... والحقيقة ان الذنب ذنبي لعدم وجوده هنا .. اجل . فلقد حملته رسالة الى الاميرة لانني لن أذهب اليها بنفسي ... ولكنه سيأتي بعد لحظة

فنظرت اليـه « ناتاشا » وقالت :

ــ لا شك انه قد وعدك بالحضور هذا المساء ؟

فهتف الامـير مندهشا :

ــ ماذا ؟ كيف تسألـين هذا السؤال ؟ أيمكنه الا يأتي ؟

اعرف أنك حانقة عليه ، انما الذنب ذنبي . اقسم لك . فلا تلوميه . ان ثمـة ظروفـا يجب الا تهمـل ، صحيح انه ضعيف الارادة ، طائش انمـا لا ادافع عنـه . واغلب الظـن انه اصبح لا يخرج في هذهالايام مـن عنـدك ، بل انه نسي العالم كله ، فلا تؤاخذيني ان سلبتك اياه بضع ساعات ليقضي لي بعض الاعمـال ... واخال انه لم يذهب الى الاميرة « كاتريـن » منـذ مدة ...

فتطلعت الى « ناتاشا » فاذا بها تنصت الى الاميـر وقد علت شفتيها شبه ابتسامة خفيفة ساخرة .

ولكـن الاميـر كان يتكلم بصراحة ودون تكلف او تصنع ، حتى أنـه يستحيـل على المرء ان يشك في صحته وفي صدق ما يقول . وسألته « ناتاشا » بصوت هادىء :

ــ اتجهل حقا انه لم يزرني الا مرة واحدة خلال هذه المدة الطويلة !

ــ ماذا تقوليـن ؟ لم يزرك سوى مرة واحدة ؟ كيف ذلك ! .

اجاب الاميـر وقد بانت عليـه ايات الدهشة وامارات الاستغراب

ــ اتذكر يوم جئت الي في المسـاء ؟

ــ أجـــل .

ــ أتاني صباح اليـوم التالي ومكث عنـدي برهة مـن الزمـن ،

ثم لم أره بعد ذلك ..

ـ يا الهي ! أمر عجيب لا يصدق ! لا يصدقه العقل ! كنت اظن انه لا يتركك ابدا .. اللهم عفوك .. ومغفرتك ! ..

ـ في الحقيقة انه لامر مؤسف ... ولقد كنت انتظرك لاستعلم عنه واعرف منك اين هو !

آه ! يا رب .. كنت انتظر منه كل شيء خلا ذلك !

ان ما ذكرته لي الان ، نزل علي نزول الصاعقة ، وصفعتني صفعة أليمة ....

فاردفت « ناتاشا » تقول :

ـ هل أدهشك كلامي ؟.. كنت اظن انه لن يفاجئك !

بل ظنت أنك تعرف كيف ستجري الامور !

ـ اعرف ؟ ما هذا يا « ناتاشا » . الا تثقي بي ؟ أو لم أؤكد لك انني لم أره الا لحظة واحدة اليوم ؟! هل تشكي في أقوالي ؟ فاجابت « ناتاشا » بسخرية ، واتبعت جوابها بضحكة عالية امام أنفه :

ـ معاذ الله ! انني مقتنعة تماما بصحة ما تقول .

فانفجر الامير غضبا وهو يلفنا كلينا بنظرة حادة ، وقطب ما بين حاجبيه وقال مرتبكا :

ـ هلا شرحت لي ما في نفسك ؟ ..

ـ ليس ثمة ما اقوله وأشرحه . انني اتكلم فقط ـ

انت تعرف أنه طائش ، ضعيف الارادة ، والآن ، وقد استملك حريته كاملة ، ارخى لنفسه العنان ، وترك لذاته « اللجام » ...

ـ كيف يرخي لنفسه العنان ؟! سأجبره على ان يصلح سيرتـه ، ويعدل سلوكه متى جاء بعد قليل . والشيء الوحيد الذي ادهشني هو انك تلقي على تبعة هذا السلوك ، مع انني كنت غائبا . ألست حانقة علي لانني وصلت قبله ؟

أهـذا المذنب الاول لانني ارسلته لبعض الامور ؟

قال هذه العبارة وهو يلتفت الي يبتسم ابتسامة حنق وغضب ثم استطرد يقول :

ـ حسنا . لنسلم يا « ناتاشا » انني قد اذنبت ، ولكن ذنبي الوحيد هو انني سافرت بعدما تعارفنا بيوم واحد .

«لو لم اسافر ، لكان بوسعك ان تتعرفي علي تمام المعرفة ، ولم يكن « لاليوشا » ان يفلت من رقابتي ، ولو لم اكن غائبا لما فعل ما فعل . اسمعي ما سأقوله لك .

ـ أفهم من كلامك انك تريد أن تشعره بأني ثقيلة عليه

اليس كذلك ؟

أتعنين انني أرغب في أن اشعره انك عبء ثقيل عليه ؟

ما هذا ؟ انك تهينني يا « ناتاشا » !

ـ لا . انما احاول ان اتحاشى التلميح دائما ، كائنا من كان محدثي ، وأفضل عليه التصريح . لم أهنك ولا اريد أن أهينك ، وليس ثمة ما يدعوني لاهانتك !

ثم انك لم تشعر بأهانة من كلامي ! وجل ما في الامر انك لا تستطيع ان تحمل حديثي على محمل الجد ، واذا كنت قد اسأت لك ،

او آذيتك ، فأنا على اتم الاستعداد للاعتذار لك ..

الواقع انني لم أر « ناتاشا » مرة تبلغ هذا المبلغ من الغضب والحنق ، هي المرة الاولى التي تخرج فيها عن وعيها بهذا الشكل ، رغم لهجتها الليّنة ، وابتسامتها البيّنة التي ترتسم على شفتيها .

لقد ادركت كل شيء ، كما خاطبتني منذ لحظة . واصبح الامير عدوها اللدود ، وغريمها الحسود ، لقد غيرت رأيها فيه ، انها تعزو اليه ما عانته مع اليوشا من ضروب الاخفاق والشقاق ، فلهجتها الساخرة التي تلتزم بها في حديثها واضحة وظاهرة ، انها تتحدث الليّنة بدون مواربة او مجاملة ... كان كلامها قارصا وصريحا ، وخشيت أن يقوم بينهما شجار على حين غرة ، الا ان الامير تمالك نفسه ، وضبط اعصابه ، وتخلص من الموقف الحرج بالمرح ، فقال ضاحكا :

ــ معاذ الله ! انا لا اسألك الاعتذار ! انني اقل الناس رغبة في ان يعتذر الي ، وليس من شأني ان اطلب الاعتذار من امرأة . فلا حاجة الى الاعتذار الان ، انما قولي لي كيف سأبرهن لك على صدق ما أقول ، وعلى حسن نيتي ، وسلامة تفكيري وامانتي لوعدي الذي قطعته عليك انت و « اليوشا » ..

فاحمرت « ناتاشا » لجواب الامير وسألته وهي تنظر اليه بحدة :

ــ اترغب في أن تبرهن لي على انك صادق مستقيم ؟

ــ اجل .

ــ اذن ، عدني بتحقيق كل ما سأطلبه منك .

ــ اعــدك بذلك .

ــ لا تخبر « اليوشا » لا اليــوم ولا غدا بكلمة عني ، ولا تظهــر له انني لته ، اريــد أن استقبله استقبالا لا يشعره بان ثمة شيــئــا قــد وقع بيننــا ، حتى لا يلاحظ شيئا . انني في حاجة لذلك . اتعدني ؟

ــ بكل طيبة خاطــر . واعترف لك بانني لم أر اراه عاقلة واضحة في شؤون مــن هذا النــوع كارائــك .

هه . يخيل الي ان اليوشا قد وصل .

وفعــلا ، سمعنــا عنــد المدخل حركة واصواتا . فارتعشت ناتاشا ، واضطربت ، وبدت لي انها تتهيأ لامر مــن الامور . اما الامير فكــان منتصبا وقد ظهــر عليــه مظهر الجد ، وينتظــر ما سيقع ، وكانت عيناه لا تفارقان « ناتاشا » . وفجأة دخل علينا « اليوشا » كهبوب الريح .

الفصل الثاني

ودخل « اليوشا » مشرق الوجه ، والابتسامة تعلو شفتيه ، والفرحة تهلل في عينيه ، فرحا مرحا ، كان واضحا انه هادىء البال ، رائق المزاج ، كأنه خارج من متعة جميلة ، نزهة لذيذة . وصرخ بصوت قوي كأنما ثمة نبأ يريد ان يطلعنا عليه :

ـ هاأنذا قد وصلت اخيرا . انا الذي كان عليه اول من يصل . ولكن ستعرفون كل شيء ! لقد تبدلت كثيرا خلال الاربعة أيام هذه ، اجل . تبدلت تماما . وسأقص عليكم كل شيء .

ونا التفت الى « اليوشا » وقال :

ـ آه ! هذه هي « ناتاشا » ! حبيبتي ! سلاما يا ملاكي ! يا ثروتي وجوهري !

وجلس بجانبها وهو يقول :

ـ لقد اشتقت اليك كثيرا خلال هذه المدة ! ولكن ما حيلتي ؟ لم استطع أن افعل افضل مما فعلت . آه ! عزيزتي « ناتاشا » ماذا بك ، كأنك قد نحلت وهزلت ؟! انك شاحبة الوجه ، ممتقعة اللون ..

وانحنى عليها يغرقها بالقبلات ، ويلتهمها بالنظرات ، كأنه لا يرتوي من النظر اليها ، ولا يشبع من التطلع اليها . ونظرت الى

« ناتاشا » فاذا بها تفكـر بعمق كأن بها تقول : اي ذنب يقترفه هـذا البريء ، انني واثقة مـن أنه بريء كل البراءة . ثم اختلست نظرة ثانية

فاذا بحمـرة قانيـة تزدحم في خديها ، واذا بالدم المتجمـع في قلبها كأنمـا يريـد الانتقال ، يصعـد الى وجهها ، واذا بلمعان شديد يتألـق في عينيها ، وتنظـر الى الاميـر في كبريـاء وتقول بصوت متقطع حبيس:

ـ ايـن كنت .. اذن .. خلال هذه الايـام ؟

ـ قد يخيـل للمرء انني مذنب ، ولكـن هذا هو ظاهـر الامـر وليـس باطنه . والشيء الوحيـد الذي اذ نبت فيه هو انني لم آت اليـك منذ مدة . فهل يعني غيابي عنـك بانني لم اعد احبك ؟

الا تفكري بأن ثمة امرا قد منعني من الحضور وحال دون مجيئي ؟ كيف يمكنني ان نسى حبك ؟ هل هذا ممكـن ؟

لقد كان قلبي يحترق شوقا اليـك ... هل يمكـن لملاك مثلـك أن لا يعفـو ويصفح ؟ ستكوني انت اول مـن يرثني ويغفر لي ...

ثم استطـرد يقـول :

ـ سأقصى عليكم كل شيء . سأفضي بما في قلبي اليكم جميعا .

ومـن اجل هذا جئت : اجل . فقد بعثت لي كاتيا برسالة تطلب مني الحضور اليـها الامر هام ، ثم دعتنـي مرة ثانيـة حينمـا رأيتك يـا أبـي . ثم التفت الي وقال :

ـ فانيـا . مـن المؤسف انني لم أقرأ رسالتك الا مساء امس ! وانت على صواب . ولكـن ما بوسعي أن اعمل ؟ وما حيلتي ؟ كانـت الاستحالة مادية ! لذلك قلت في نفسي : سأمضى اليهم غدا وابريء نفسى

امامهم جميعـــا .

فانتفضت « ناتاشا » مذعورة وقالت :

ـ أي رسالة تعنـــي ؟

ـ لقد جاء الي امس ولم يجدلي . فترك لى رسالة يقرعنى فيها تقريعا شديدا ، ويوبخني على تصرفي ، ويؤنبنى على اعمالى ، لانى لم آت اليك

فنظرت الي ناتاشا ولكــن الاميــر قال :

ـ اذا اتسع وقتك لزيارة « كاتريــن » فا ...

قاطعــه اليوشا قــائلا :

ـ اعرف ما ستقوله : اذا استطعت ان تذهب الى كاتريــن فمــن الافضل أن تأتي الى هنا اعرف ذلك ووافق عليــه .

انمــا هناك امورا جانبيــة قد تحدث على حيــن غرة ، تشوش الامور ، وتقلب كل شيء رأسا على عقب . وقد طرأت علي احداث مــن هذا النــوع حالت دون حضوري الى هنــا .

وأكــرر لكم : انني قد تغيــرت كليــا ، حتى الاظافــر . ان امورا خطيــرة قد وقعــت ..

فابتسمت « ناتاشا » وقالت بحماسة :

ـ مالذي وقع ؟ اخبرنا ! انك تثير شوقنا ! ارجوك تكلم ،

فاستأنف يقول وقد امسك بيد ناتاشا :

ـ يا لروعة ما رأيت ، يا لفظاعة ما عمــلت ومن لقيت ..!

انها الكمــال يا « ناتاشا » ، انها النبل والاخلاق ! ليتك سمعــت ما قالته عنــك يا « ناتاشا » . حيــن رويت لها ما جرى بيننا ! ..

ــ وبالمناسبة ، تذكرت يوم جئت اليك واستقبلتني استقبالا حارا ، وشملتني بحبك وعطفك ، بينما كنت انا قاسيا متعجرفا احاول ان اقلد الرجل الذي سيتزوج عما قريب .. يا لحمقي ويا لسخافتي ، اردت ان اصطنع دور الرجل الرصين الرزين ، وامام من مثلت هذا الدور واصطنعته ؟! امامك انت ! آه لا شك في انك قد سخرت مني حينذاك ..

وكان الامير صامتا ينصت الى ابنه بسخرية كمن يسره أن يظهر ابنه بمظهر الاحمق الطائش ، وايقنت انه لا يحب ولده كما يدعي بل يكرهه كرها ليس بعده كره .

وتابع اليوشا قائلا :

ــ حين غادرتك ! ذهبت الى « كاترين » وما هي الا بضع كلمات حارة وتعابير عن العواطف والاراء حتى اتحدنا كلانا . أجل . يا « ناتاشا » يجب ان تعرفيها ، انها تتحدث عنك ، ولقد شرحت لها وضعنا فافهمتني أي كنز انت لي ! واوضحت لي بحماسة عن أرائها وافكارها ! وحدثتني عن رسالتنا ، عن واجبنا وعما نقدمه للانسانية من خدمات . وما هي الا فترة قصيرة من الزمن حتى كنا على وفاق تام ، وتعهدنا على ان نظل صديقين الى الازل ، وان نتعاون في عمل واحد في الحياة ..

فسأله الامير مستغربا :

ــ ما هو ذلك العمل ؟

فاجاب اليوشا بلهجة رصينة :

ـ لقد تغيـرت يا ابـي ، ولا شك في انك ستدهش ازاء كـل عمـل سأقوم به بعد ذلك . انكم اناس صارمون ، لكم مبادئكم العالية وتنظرون نظرة الشك والسخريـة والعداوة الى ما هو فتي جديد . انـا الآن شخص اخر ، لقد تغيرت يا ابـي ، إنني كجميـع الناس سأنظر الى الحياة نظرة جرئة ، وسأسيـر على الطريق القويم .. وبعد ذلك لـك ما تشاء وما ترغب في قوله ، طالما انا واثق في نفسي،

فاجاب الاميـر بهزء وسخريـة :

ـ شيء عظيـم ! عظيم !..

فقالت « ناتاشا » بغضب ، كمـن تخاف على اليوشا » ان يسترسل بالحديث ويظهـر بمظهر مضحك يجعله عرضة للهزء والسخرية ، وخاصة امام ابيـه الذي يبالـغ في ذلـك :

ـ ما هذا يا « اليوشا » ! هذه فلسفـة ! الاولى بك أن تحدثنا عما حصـل ...

فهتف اليـوشـا قائـلا :

ـ اسمعي يا « ناتاشا » . ان « لكاتريـن » قريبين هما ليـون وبوريس احدهمـا طالب والاخـر شاب بدون عمل . وحينمـا جلست مع كاتريـن تتحدث عن رسالة الانسان وواجباته ، كلمتني عنهما وحملتني رسالة اليهمـا . ولما وصلت مضيـت الى لقائهمـا وتعارفنا واتفقنـا منـذ ذلك المساء . كان هنالك ايضا اثنا عشر شخصا ، منهم الطـلاب والفنانون والضباط ... وقد استقبلوني بحرارة كمـا يستقبلون أخا . ونظـر الي وقـال :

ـ انهم يعرفونك يا « يافيا » ؛ اعني انهم قرأوا كتبك واعجبوا كثيرا فاخبرتهم اني اعرفك فاظهروا لي رغبتهم في التعرف اليك فتواعدنا على أن اقدمهم اليك ويتم التعارف بينكم .

ثم صمت برهة ، وعاد يقول :

ـ انهم يسكنون في الدور الخامس ، ويعقدون الاجتماعات نهار الاربعاء . انهم شباب وحيوية ، نضارة وحياة . يعملون من اجل الانسانية ومن اجل الوطن . ما اعمق الصلة التي تربط بينهم ، وما اعظم المهمة التي يعملون من اجلها ! ما أنبل قلوبهم ! اه « ناتاشا » يجب أن تتعرفي عليهم ، ان كاترين تعرفهم حق معرفة وهم يتكلمون عنها باحترام وتقديس .

كما ان كاترين قد وعدت بتقديم مليون من ثروتها حين تملك حق التصرف فيها ، ويستخدم هذا المبلغ في سبيل المصلحة العامة .
فسأله الامير ساخرا :

ـ مما لا شك فيه ان بوريس وليون وجماعتهما هم الذين سيتصرفون في هذا المليون .

ـ لا يا ابت . لا . عار عليك ان تقول هذا الكلام . انني ادرك ما يدور في خلدك . لقد تحدثنا في امر انفاقه وقررنا قبل كل شيء ان تنفقه على التعليم ...

قال الامير بسخريته المعهودة :

ـ لم أكن اتوقع ان كاترين سيخرج منها مثل ذلك !

ـ ما الذي يبدو غريبا لك ؟ألانها تريد ان تنفعوطنها ؟ ألانها ستعطي

قرشها للناس وللمصلحة العامة ؟، ام ماذا ..

ثم قام جدال عنيف بين الامير وابنه « اليوشا » ، اتهم فيه اليوشا والده بأنه يسخر منه ويضحك عليه ، ويعامله كالطفل ، فلا يحترمه امام الحاضرين ، ولا يقدره امام المجتمعين ، ويصفه بالغباوة والبلاهة.

واخيرا خرج اليوشا من الحديث وهو يقول :

ـ ليكون من الخير ان نعبر عن عواطفنا بصراحة فاجابه الامير:

ـ تكلم يا « اليوشا » . عبر عما يوجد في نفسك .

فاستطرد اليوشا قائلا :

ـ لا تلمني ان كنت صريحا كل الصراحة . لقد وافقت على زواجنا انا و « ناتاشا » ، واعرف أن هذا الامر ان يسرك ولا شك بانك قد قسوت على نفسك . واننا لنقدر لك هذا الشعور النبيل والعمل الجليل . انما أراك دائما تحاول أن تهينني وتذلني ، وتنعتني بالغباوة والبلاهة ، وتعاملني معاملة الطفل ، وتصفني بالسخيف الطائش ، وبانني لا اصلح للزواج ! والاغرب من هذا انك تشعر بفرح ومرح ، وتحس بسرور وحبور حين تظهرني بمظهر الانسان المضحك . لماذا ؟ لماذا يا ابي ؟ لماذا تحاول أن تجعلني اضحوكة ! أولست بابنك ؟ ألم تلدني من ظهرك ؟ ألم تحضنني في قلبك ؟ ماذا فعلت ؟ ماذا عملت ؟ مما أذنبت ، بما أخطأت ! أتحاول أن تبرهن لنا أننا على خطأ من زواجنا ؟ اذن . ارشدني ، صحح لي هذا الخطأ ... كان اليوشا يتكلم وعرق العزة والحب يتصبب على خديه ويسيل على شفتيه ، ويرفق كلامه بلهجة حادة حازمة و «ناتاشا» تنصت اليه باجلال ووجهها يحترق غبطة، وقلبها ينبض مؤكدا على كلامه ..

وارتجف الامير غيظا وقال مضطربا :

ـ اسمع يا ولدي . انك تلومني لانني ضحكت منذ لحظة ،ولكنني سأعمل كل ما في وسعي لاصحح خطأك .

انني لارتعش خوفا حينما افكر في مستقبلك مع « ناتاشا » . اعرف انك تحبها وتعبدها ولكن عليك ان تبرهن عن حبك بالاعمال الحميدة . كيف تتحدث عن الحب والانسانية وقد تركتها وحيدة مدة اربعة ايام تتعذب وتتألم من الفراق ؟ كيف تتكلم عن حبك للبشر ، وكيف تتحمس للقضايا الانسانية ، ثم تقترف جرائم في حق الحب ؟!

على أي شيء ، قد اعتمدت في غيابك ؟ على انها كريمة ،وستغفر لك ؟. وبأي حق تعتمد على عفوها وتتخذه موضع رهان ؟

هل فكرت لحظة واحدة بالوان المرارة ، وضروب العذاب والشك وانواع اليأس والضجر التي عرضت لها « ناتاشا » في المدة الاخيرة ؟ اتعرف ان « ناتاشا » كانت تعيش في جحيم لا يطاق في مدة يجب ان تقول لها : « عيشي معي اذ كنت وفية ، وتعذبي معي ان كنت أبية ، فيسعد كلانا »

انك المسؤول عن اعمالك وانت المذنب ..

فنظرت اليه« ناتاشا » نظرة الم وحزن ، وقالت مولية وجهها شطر اليوشا :

ـ لا تحزن ، فذنب غيرك اكبر .

ولكن اسمع ما سأقول لابيك الان .

فتطلع اليها الامير مدهوشا وقال :

ــ أفرغي ما في نفسك يا « ناناشا » قولي ! ماذا تريديـــن ؟

ــ لا تخال انني قد سحرت بليونة كلامك !

ولا تظـــن ، ان كلامك يخفي عنا حقيقة نواياك . انك تعرف كـــل شيء ، وتفهم كل شيء .

لقد ادركت انا و « اليوشا » انك تلعب بنا لعبة دنيئة ومهيـــنة ، وحسبت انه لـــن يدرك ألاعيبك .. انه يحبك ويؤمن بك ، ويحترمـــك ويقدرك ! ولكـــن ما الفائدة طالما انك لا تعامله بالمثل بل تحاول أن تذله وتظلمـــه ، وتقابل الخير بالشر ، والحب بالكره ! اهذه هي مبادىء الاب الصالح ! أهذا هو شعار الابـــوة !

فالتفت الامـــير اليها مشدوها وقال بحنق ما بعده حنق :

ــ ماذا ؟ لا افهم شيئا البتة ! هلا تفضلتي بشرح ما تريديـــن قوله؟!

ــ اذن ، انك تصر على معرفة ما اقوله ، رغم انك تعرف كل شيء ؟ لا بأس . سأخبـــرك .

ونهضت « ناناشا » واقفـــة ، وقد استبد بها القلق ، وخيم الوجوم على وجهها ، وسيطر عليها الغضب والاضطراب وراحت تتكلم والامـــير يصغي اليها ويصغي ، ونهض هو بدوره وانقلب المشهد الى مسرحية خطيرة مسرفا في الخطورة :

ــ هل تذكـــر يوم الثلاثاء حينما جئت الي واخبرتني انك تريد مالا وجـــاهـــا ؟

ــ أجـــل .

ـ أجـــل .

ـ انمـا لفقت هذه الخطبة مـن اجل تدارك ما كاد يفوتك ويفلت مـن أيـديك . أجل . فعندما ألفيت ان « اليوشا » قد خرج عن طاعتك واصبـح لا ينقاد لك ، حاولت أنت أن تفصله عني لئلا تفوتك الخطبة والمال . ولعلك قد لاحظت أن « اليوشا » اخذ يهجرني في المدة الاخيرة ، رأيت انه يهملني قليـلا ، وأنه يتغيب عني احيانا مدة اربعة أيام متتالية .

ـ اتريـد برهانا ايها الماكر ؟ اتريد دليلا ايها العاهر ؟ أهنـاك اوضح مـن البرهان على انك حاولت أن تأخذه مني ؟ ألم تكـن السبب في معيشتنـا هذه ؟ ألم تكن العلة في شقائنا وبؤسنا ؟ ثم قالت بسخريـة :

ـ آه . المعذرة ايا نك مـن اب حنون ، لقد لمته لانه اسكنني في هذا البيـت الحقيـر ..

ثم انفجـرت قائلـة :

أتلومه وانت الملام ؟! أتنتقده وأنت المنتقـد ؟!

اظننت ان خطتك ستنطلي علي ؟! لا . لقد وزنت كلماتك وامعنت النظـر فيـها وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهابا . لقد حللت تعابير وجهك فانتهيت الى الاعتقاد بأنه كان تكلفا وتصنعا ، خلصت الى انه لم يكـن الا مزاحا ، الا خطة مهينة خبيثة ، الا مهزلـة حقيرة . لقد كذبت علي .. كذبـــت .

فتطلع اليـها الاميـر وقـال :

ـ اهذا كل ما عندك ؟ اهذه هي البراهيـن ؟ هدئي روعك يـا « ناتاشا » . ان مـن حقي أن اوجه اليـك بعض اللوم ، لانك تحرضين

ابنـي علي . اجل . ولئـن لم يناصبني العداء في هذه اللحظة دفاعا عنك ، فانه ولا بد يشعر نحوي بالعداوة ..

فصرخ اليوشا قائـلا :

ـ لا أبت . فلئـن لم اناصبك العداء لانني أعتقـد انك لم تهنها .

فهتف الامير :

ـ هل تسمعيـن ؟ هل تريـن ؟

فانتعش قلبـك وهدأ روعك ، واعتقدت أنه سيسـأم تماما في ويتركنـي الى الابد . ولكـن الآية قد انعكست ، وتغيرت سلوكـه فقلبـت مشاريعك رأسا على عقب .. فتساءلت في ذلك المساء ما عساك أن تفـعل !ـ

وقررت أن توافق على زواجنا فقط لتهدئه . وكنت تبغي مـن وراء ذلك تأخيـر موعـد الزواج ما استطعت كي يعود وننشأ علاقـة حـب جديدة بينه وبيـن كاتريـن ؟ اجل . على هذا الحب قد بنيت خطتـك .

واجهشت « ناتاشا » بالبكاء ، وغطت وجهها بيديها وارتمت علـى مقعدها ، فاسرع اليها اليوشا يطيب خاطرها ويلاطفها .

وقالت وهي تبكـي بكـاء مـرا :

آه ما أشقاني .. هنا في هذه الغرفة كنت اقبع وحيدة حينما ينساني .. لقد كنت اقرأ في عينيه وفي وجهه .. لقد فقدته .. ضاع كل شيء .. مـات كـل شـيء .. اللهم عفـوك ومغفرتك !.

وكان اليوشا راكعا امامها وهو يبكي واخذ يدمدم خلال النحيب :

ـ نعم . اجل . انا المذنب .. الذنب ذنبي .. اه ...

ـ لا . لا اتهمك بشيء البتة يا « ايوشا » . ليس الذنب ذنبك الذنب ذنبهم .. هم .. هم .. اعداؤنا ..

فقال الامير وقد ضاق ذرعا واستنفذت بصيرته :

ـ على أي اساس تبني اقوالك ؟ على اي عماد تستندين الى هذه الجرائم ؟ ان كلامك مجرد خيالات وافتراضات لا برهان عليها ...

فصرخ اليوشا وقد نهض عن مقعده :

ـ اسمعي يا « ناتاشا » . الذنب كله ذنبي . فلا تتهميه . أرجوك فتطلعت الى « ناتاشا » وقالت :

ـ اسمعت يا فانيا ؟ انه ضدي .

وهنا صرخ الامير واضعا حدا لهذه المجادلة وقال :

ـ كفى الان . كفى . يجب أن ننهي هذا الفصل المؤلم . لقد تعجلنا كثيرا . أجل ، كثيرا . صحيح أن العهد الذي قطعته على نفسي عهد مقدس ، انما .. اريد سعادة ابني .

فصرخت ناتاشا مذعورة ؟

ـ اسمعتم ! انه ينكث بعهده ولا يوفي بوعده . اذن . هاءنذا أؤكد لكم جميعا : لن اتزوج « اليوشا » .

ـ معنى ذلك انك تريدين أن تجددي الالم والعذاب له .

ولكن حسبنا الان . وأملي في أن تغيري رأيك في ، وتقدريني حق قدري . وكنت سأخبرك بما انتويته بصدد اهلك ، انما الوقت ليس

منا‌سـا الآن .

وتطلع الي وقـــال :

ـ فانيـا . آمل ان تفهمني . ويسرني الآن أن نتعارف تعارفا اعمق. ويكون فخر لي ان سمحت لي بزيارتك عما قريب .

وتقدم مني ومد يده وصافحني وحيا « ناتاشا » وهو صامتا وخرج خروج مـن جرحت كرامتـــه ..



الفصل الثالث

بقينا واقفين لحظة من الزمن ، لا ننطق بحرف ولا نقوم بحركة، وخيم علينا الوجوم وسيطر القلق والاضطراب ، فالأعين متنقلة ، والافكار شاردة، والاذان ناصتة ، و « ناتاشا » واجمة تفكر ، و «اليوشا» يبكي ويكثر ، ويلقي عليها بين الفينة والفينة نظرة مستطلعة ..

واخيرا ، اخذ يعزيها بخجل، ويطيب خاطرها ويتهم نفسه ويلقي التبعة عليه ، ويبرىء اباه الامير ..

وشرع يشرح لها الدوافع التي اضطرته للغياب عنها رهطا من الزمن، ويبرر علاقته « بكاترين » ويوهمها بأنها علاقة الاخوة فقط . وقال لها اخيرا محاولا اظهار حبه لها :

ـ انني احبك حبا خالدا حبا أبديا لا يتغير ، ومن الان فصاعدا لن أتركك لحظة ولن افارقك أبدا ...

ولكنه عاد والقى عليها اللوم ازاء تصرفها مع والده الامير ولهجتها القاسية العنيدة ، واسلوبها السيء في الكلام .

فقالت له :

ـ اتلومني ؟ ألا تعرف أنه قد سلبني نصف قلبك ؟

ـ لا يا « ناتاشا » . ارجوك . لا تلوميه . الذنب ذنبي ، والاثم

اثمي ، والخطأ خطأي . انا المسؤول عن كل ذلك .

علي يقع كل شيء ، علي ان اصلح ما فسد . اتسمحين لي بالانصراف الى ابي فورا . لاسوي كل شيء ، يجب ان اواسيه ، ان اشرح له كل شيء ! لقد اهين ! لقد جرح ! سأتكلم بأسمي وحدي ولن افحمك بالموضوع . انه ابي وعلي باحترامه واجلاله مهما قسا واشتد ، وطغا واحتد ! سترين يا « ناتاشا » . اجل . سترين !

سيبرىء نفسه امامك . سأعود اليك غدا منذ الفجر .

ولم تمنعه « ناتاشا » من الخروج او بالاحرى انها لم تحاول ذلك لسبب انها لم ترغب في ان يجلس امامها مكرها او مجبرا ، وبدلا من أن يزداد حبه لها ينقص ، بل تركته يعمل ما يشاء لئلا تفقده وتخسره . وعندما هم بالخروج قال لها :

ـ « ناتاشا » . انني احبك اكثر من أي وقت مضى . لا تحنقي علي ارجوك . ولن نختصم بعد اليوم . ثم تقدم منها وتعانقا ، وغرقا في بركة من الدموع الطاهرة الصادقة واقسم لها « اليوشا انه يحبها كثيرا ولن ينفصل عنها كما كان « يثرثر » في بعض الاحيان . ثم تركها ومضى الى ابيه . فنظرت الي « ناتاشا » وقالت :

ـ يا له من ساذج طاهر ، انه يحبني الان وبعد مدة وجيزة سنراه مغرما « بكاترين » ويحبها اكثر مما يحبني .. ان ابيه لثعلب آثيم . انه لشيطان رجيم .. انه لن يغفل عن حبنا ..

فالتفت اليها وقلت :

ـ اخال ان هذا الامير يراوغ ويحتال ... ولكن ..

ــ ولكــن ماذا ؟ الــن ترى بأم عينك ؟ الــن تشاهد ؟ سترى من تلقاء نفسك اشيــاء جديدة بعد .. انه ثعلب غدار .. لا شك بانه قد لقن « كاتيــا » دروسا ليجعل « اليوشا » يحبها ويفتــن بها .

لي رجاء واحد منك يا فانيــا . واملي الاخيــر معقود عليك . لقد عرض عليــك الاميــر ان تتلطف بقبول زيارته لك ، فاطلب منــك أن تتعرف عليه جيدا وان توثق علاقاتك« بكاتريــن » وتقول لي من تكون هــــي !

ان كنت تريد ان تبرهــن عن مدى صداقتك لي فافعل ما اقول .

وحينما عدت أدراجي الى البيــت لقيت نللي بانتظاري وقد تطاير مــن بصرها النــوم واخبرتني أن احدهم قد جاء لزيارتي وانتظرني مدة مــن الزمن ولكنه عاد وخرج بعدما ترك لي رسالة تحت المنضدة . كان ذلك الشخص هو ماسلوبويف وهو يطلب مني ان أوافيه غدا في الساعة الواحـــدة .

وفي صباح اليــوم التالي اخبرتني نللي بتفاصيل زيارة ماسلوبويف وكيف انها لم تفتح له الباب اولا ولكنه اخبرها بأنه سيترك رسالة فقط عندئذ فتحت له .. وقالت أن ماسلوبويف اخذ يتودد اليها ويداعبها الا أنها كانت تنفر منه وأخيرا اعطاهــا بعض الحلوى واخبرها انه يعــرف والدتهــا .. وجدها .. ومدام بونبوفنا واخذت توجه اليه بعــض الاسئلة ودار بينهمــا حديث طويــل الا انها لم تخبرني ما دار في هــذا الحديث . ولم احاول ان اسألها كثيرا لانني سأعرف حقيقة ما جرى مــن ماسلوبويف . ولانني على عجلة من امري . وبعد أن ودعتها طلبت مني

الا أغيب مدة طويلة لانها تضجر لوحدها ..

ومضيت فورا الى منزل « اخمنيف » فالقيتهما كليهما مريفين « فاندريغنا » تعاني ألما شديدا واخمنيف قابعا في غرفته وحيدا مستسلما لآلامه واوجاعه . والغريب أن اندريغنا لم تندهش عندما اخبرتها بنبأ القطيعة بالرغم من أنه قد آلمها بل قالت :

ـ اجل يا ولدي . كنت احسب ذلك اليوم . هذا ما كنت اقدر أن يقع .

ثم اخذت تتكلم عن الامير واخلاقه السيئة ، ومكره وخداعه واضافت تقول :

ـ أن زوجي يعارض هذا الزواج ويحاربه ويحاول أن يفسده .

ثم كعادتها امطرتني بوابل من الاسئلة فاجبت عليها بصراحة تامة . وهنا دخل « اخمنيف » الى الغرفة وشكا مما يعانيه من الحمى واخذ ينظر الي نظرة حب وشفقة ، واستعلم عن صحتي واعمالي . وكان بين اللحظة والاخرى ينظر الى اندريغنا بحرقة وحسرة كمن يحزنه أن يراها مريضة وكان يشعر انه سيفقد كل شيء اذا ما فقدها ..

ومكثت عندهما ساعتين ثم ما لبثت أن تركتهما ودعتهما ولكن العجوز « أخمنيف » استوقفني وجرني الى غرفة ثانية وأبلغني عزمه الاكيد على تبني الطفلة « نللي » ، وسألني ماذا يعمل لكي توافق اندريغنا على هذا المشروع ثم قال :

ـ لا بأس . سنتحدث في هذا الامر فيما بعد وسأجيء اليك اذا ما ابللت من مرضي ولعزم الامر ..

تركته ومضيت الى « ماسلوبويف » • واشد ما كانت دهشتي عندما وجدت الامير عنده ، وقد سبق « لماسلوبويف » ان اخبرني بانه يعرفه وأوكله بمهمة • وعندما رآني الامير اضطرب كثيرا وارتبك ولكنه قال :

ــ يا لها من صدفة ! كنت سأزورك في هذه المدة القريبة ولكن الاعمال تتراكم فوق رأسي ولا بد أن يأتي يوم أزورك فيه • والان ، بما انني على عجلة من امري أستودعك الله والى اللقاء العاجل • ثم خرج •

وما ان دخلت حتى قلت « لماسلوبويف » :

ــ استحلفك الله قل لي ماذا يفعل هنا ؟ ••

فقاطعني قائلا :

ــ اعتذر لك • انني مستعجل الان • وحاول أن يخرج !

ولكن استوقفته وقلت :

ــ الم تكتب لي ؟

ــ كتبت لك ، ولكنهم عادوا وكتبوا لي ! هيا تقدم واصفعني صفعة جزاء ما حملتك من عناء دون طائل ••• هيا !

ــ يا لك من ظريف • ان الانسان لا يستطيع ان يتنبأ بالطوارىء • اضربك فلماذا ؟

وخرجت واياه على امل ان القاه مساء اليوم في بيته وتواعدنا على ذلك ، وكنت قد عزمت الهم في المساء على زيارة « ناتاشا » ولكنني عدت وذهبت اليها فورا فوجدت اليوشا عندها في البيت فرحا مرحا يتبسم ويضحك ، رقيقا ناعما معها ، سر للقائي وفرح لوجودي كثيرا • اما « ناتاشا » فقد كانت شبه حزينة ، ومضطربة واخبرتني ان

« اليوشا » يرغب في زيارة كاترين ، لكنه لم يجرؤ على البوح بذلك . واعلمتني انها لا تعارض خروجه لانه ان بقي بجانبها مكرها سيسأم منها ويمل لوجودها . مضيت الى « اليوشا » فرحب بي بحرارة واخبرني انه قد وعد « كاترين » بزيارتها مساء اليوم . وطلب مني مساعدته واخبرته عن مشاهدتي لابيه الامير عند ماسلوبويف ظهر اليوم، وانه قد سأل عنه وطلب موافقته الى منزل « كاترين » سر اليوشا كثيرا وطار فرحا وكاد ينسى نفسه لفرط سروره وشدة حبوره واتجه الى « ناتاشا » بقوله :

ـ ما العمل ؟ ان والدي يرغب في مشاهدتي ؟

ـ حسنا . اذهب اليه ، ويجب الا تنسى اصدقائك وخاصة « كاترين »

ـ يا لك من ملاك طاهر وانسان نبيل ... اني احبك كثيرا ولا ارغب في مغادرتك وليس هناك اية قوة او رادع يمنعني عنك ويبعدني عن شخصك .

تكلم اليوشا بحماسة شديدة وفرح شديد .

فاجابته « ناتاشا » :

ـ ليس هذا فحسب ، بل اريد ان اتعرف الى « كاترين » وجعلها صديقة لي .

فشده « اليوشا » وانفرجت شفتاه عن ابتسامة ناعمة ، وقال بصوت اجش :

ـ اصحيح ؟! اتريدين التعرف اليها ؟

ـ اجل . اتشك في قولي ؟ ولكن عليك ان تتدبر ذلك .

ـ لا بأس . سأخبر كاترين بكل شيء . وهي ستهيأ مناسبة لتلتقيا ...

ثم تقدم منها وقبل يدها . وخرج مسرعا .

ظللت مع « ناتاشا » فترة قصيرة لم ينبس اي منا بكلمة . وقالت لي اخيرا والدموع تهطل من عينيها ؟

ـ أرأيت ؟ اتعرف ما الذي يجري ؟ وما يحدث ؟

كان قلبي يخفق حينما افكر في وضعها ، وصدري ينقبض حين افكر فيها ، كنت اشفق عليها واحزن لحالها ولكن ماالعمل ؟ وبدلا من اشعال ثورتها وايقاظ غضبها رطبت الجو ببعض الفكاهات وحدثتها عما حصل معي اليوم ، وعن زيارة ماسلوبويف لي والموعد الذي قطعته على نفسي معه . وتجنبت الحديث عن المبارزة بين ابيها والامير حتى لا اضيف الى قلقها قلقا واضطرابا .

فارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة واهتمت بحديثي اهتماما بالغا . وودعتها اخيرا وقفلت الى بيتي .

الفصل الرابع

وصلت الى ماسلوبويف في الساعة السابعة مساء .

وما ان دخلت حتى شدهت كثيرا ذلك لانني شاهدت ما لذ وطاب من الاكل والفواكه والمشروبات مصطفة في جيش عرمرم على ثلاث موائد . فظننت لاول وهلة انه قد دعا احدا على وليمة . ولكن اخيرا تبين ان هذه الاشياء قد اعدت لي .

وبعد ان تبادلت الاحاديث الودية معه ومع « الكسندرا « سيمينوفنا » حاولا ان يخرجا بي عن صلب الموضوع الذي جئت من اجله .

وقلت :

ـ اسمع يا « ماسلوبويف » انما جئت من اجل الموضوع الهام الذي وعدتني ببسطه لي . ولن امكث هنا اكثر من ساعة ونصف الساعة ، لان ورائي امورا يجب أن اقضيها .

ـ اذا كنت ترغب في ذلك فلا بأس ، ثم تابع يقول :

ـ ارجوك يا « فانيا » ! لي طلب واحد ارجو أن تلبيه لي : ماذا تعمل ؟ اين تذهب ؟ اين تقضي ايامك بكاملها ؟

فدهشت لهذا وقلت له :

ــ لماذا ، وبم سيفيدك ذلك ؟

ــ اسمع « يا فانيا » انني افكر في مصالحك واريد أن اخدمك فما عليك الا ان تجيبني بالحقيقة ..

ــ ماذا تخدمني ؟ وبأي شيء ؟ دعنا من هذا الان . ولكن لماذا لا تحدثني عن الامير ؟

ــ انما سألتك عن ذلك بصدد الامير .

ــ وكيف ذلك ؟

ــ لقد لاحظته كثير الاهتمام بشؤونك فهو دوما يسألني عنك ودائما يستعلم من انت . فارجوك يا صديقي أن تحذر منه وتنبه له ، انه خائن ، ماكر ، عاهر يمكنك وصفه بكل شيء .

ــ ولكن قل لي ما هو السبب حتى احذر منه ؟

ــ اسمع يا صديقي . انت تعلم مهنتي ، فهي تتطلب مني ان اكون « قصير اللسان » لاكسب ثقة الناس . وذلك لانني اقوم بمهمات سياسية وتجارية فلا تؤاخذني اذن ان جملت حديثي وتكلمت بشكل عام . وهو ان هذا الامير شخص دنيء واتسان ماكر خداع .

فحدثني انت اولا .

ففكرت مليا ثم عدت ورويت له قصة « ناتاشا » من البداية حتى النهاية فاعجب بها كثيرا واكد على انها ذكية وسريعة البديهة وخاصة عندما اخبرته ما قالته عن الامير . غير انه اشفق على « الخمنيف » وحزن لحاله وعلى وجه التخصيص حينما علم بقصته

مع الامير وخسارته القضية ومعاقبته من قبل المحكمة . وضرب كفا بكف اسفا على ذلك . عندها قلت :

ـ هلا حدثتني عن الامير ؟

ـ ماذا باستطاعتي القول عنه ؟ ان كل ما أردته هو ان احذرك من هذا النذل اللئيم . هذا الماكر الاثيم ، لان كل من يتصل به يصبح في خطر . فأحذر مكره وانتبه لخداعه ، وهذا كل ما اردته منك ، فكن على حذر من امرك .

وروى لي رواية عن الامير الماكر النذل فضعفت لسماعها ، لغرابتها وقوتها . وصفوة القول : ان الامير قد احب فتاة ورغب في الزواج منها ، وعندما لمس منها الموافقة طلب من والدها ان يكتب له تعهدا ليتزوج من ابنته ، ثم اندس في اعمال والدها الذي كان يملك مصنعا وخدعه ونصب عليه واقترض المال دون ان يرده ثم ادعى انه هو الذي اسلفه اياه . ولم يكتف بذلك ، بل تزوج الفتاة وانجب طفلا صغيرا ولكنه طردها مع ابنها مدعيا ان هذا الابن ليس ابنه وان الفتاة كانت على علاقة آثمة مع غيره . وقد ابتدع هذه الحيل لكي يتملص منها .

وعندما عادت الى والدها لم يستقبلها وطردها مع ابنها ،

فعاشت مذلة ، مهانة ، يائسة واخيرا ماتت . اجل ماتت ...

وبعدما ثمل « ماسلوبويف » واخذ السكر مأخذه جعل يتحدث بدون وعي فنهضت واقفا وودعته ، ثم قبلت يد « الكسندرا » ووعدتها بالمجيء نهار الجمعة . ففرحت كثيرا واوصلتني الى الباب ثم قالت :

ـ لقد استمتعت اليــوم .. والى اللقاء ليــوم الجمعة .. .

وبينمــا انا في الطريق راودني الف خيال وخيال ، واثر بــي كلام « ماسلوبويف » تأثيرا كبيرا ، وما ان وصلت الى البيت كان ينتظرنــي متعمــدا حادث هزني هزا وزلزلني زلزالا وصعقني صعقا كأنه صدمــة كهــربــائيــة .

فلما وصلت الى مدخل البيــت ، وثب علي وجه غريب جــن جنونه مــن الذعــر ، وطار صوابــه مــن الخوف ، يــرتعش ارتعاشا قويــا ويتعلــق بــي صارخا . انــها نللي .

ـ صرخت قــائــلا :

ـ ماذا بك ؟ ماذا في الامر ؟

ـ انه فوق .. في البيــت ؟

ـ من هــــو ؟

ـ انــه رجل غريب لا اعرفه !

وعندما طلبت منها مرافقتي أبت وقالت لي انها ستبقى هنا حتى يخرج

فصعدت الى البيت فاذا بي ارى الاميــر جالسا على الاريكة وهــو يتصفح كتابي . فالقيت عليــه التحية فابتسم واخبرني انه هنــا منــذ ساعــة . وطلب مني ان اذهب معه الى الكونتيسة لانها تريد التعرف الــي ولكنني رفضت فألح مدعيــا ان الكونتيسة ستحزن لانها على موعــد للتعرف اليــك . ففكرت مليــا وقبلت اخيرا لان « ناتاشا » رجتني أن اخبرهــا عــن « كاتريــن » والتعرف اليــها .

فارتديت ثيابــي وهبطت الى نللي وحاولت جاهدا أن احملها على

الصعـود ولكنها رفضت رفضا باتا واتفقنا على أن تصعد الـى الغرفـة عندما يخـرج الاميـر . فحذرتها مـن أن تفتح لاحد مهمـا كان السبب وعندما سمعت انني سأخرج معه حاولت ان تمنعني ولكنها عادت وصمتت

وعندما خرجت مع الاميـر اخذ يكلمني عـن نللي قائلا :

ــ ان خادمتك غريبة الاطوار فبعدما كانت تكلمني بلطف في بادىء الامـر انقلبت علي وصرخت ، ثم امسكت بتلابيبي .. وحاولت الخروج ولكنهـا سبقتني الى ذلك ، هل هي خادمتك ؟

ــ لا . انها بنيـة تسكـن عنـدي !

ــ ولكـن كيف تحتملها !

ــ انها مصابة بالصرعة .

ــ اه . عرفت الان . اذن لا غرابة فيما حصل .

كان لمجيء « ماسلوبويف » الى بيتي وانا غائب ، ولحضور الامير لزيارتي ، وهرب نللي الى الشارع لسبب ، وهذا كله يرتبط ببعض . وان هذه الامور لتستحق التفكيـر والتأمل .

ثم مضت بنا عربة الاميـر التي كانت في انتظارنا .

وفي الطريق حدث ما لم اتوقعه ولم يكـن بالحسبان ، فقد ابلغنـي الاميـر رغبته في ارجاع العشرة الاف روبل « لاخمنيـف » التي قضـت المحكمـة عليـه بدفعها ، وقد دهشت كثيرا واستقبلت الامر بغرابة .

قـــال :

ــ ولكن كيـف اقدمه له ؟ وبأية صورة ؟ انه عجوز متغطرس عنيد سيقذف المال بوجهـي .

ـ وهل تعتقد أن المال هو مالك ؟

ـ أجل . لقد ربحت الدعوى .

ـ الا تشك في صحة الدعوة ؟ الا تخاف من وجدانك ؟ الا يؤنبك ضميرك ؟

ـ الواقع انك لا تعرف القضية جيدا . انك تعرفها عن ظهر قلب . اسمع « يا فانيا » . في بادىء الامر صدقت ما رجم عنه ، وما قيل بصدده ، انما الاهانات التي تبادلناها والمشاجرات التي قامت بنا جرحت كرامتنا كلانا ، وزادت من وطيس المعركة ، واستبدني الغضب لان العجوز قد جرحني بكلامه الفظ فشرعت في اقامة الدعوى ، وانا لا اتهم العجوز بأنه قد احتال علي وخدعني عن سابق تصور وتصميم . انني لم اتهمه بهذا قط ، ارجوك يا فانيا الا تظن انني في معرض تبرئة نفسي .

فقد ثلم شرفي واهين كرامتي ، والدفاع عن الكرامة لا يدل عن قلة النبل والطهارة ، وانت تعلم ذلك !

ـ مستحيل . ان « ناتاشا » ستعتقد ان رددت المال لابيها انما فعلت ذلك لترضيها عن « اليوشا » او ترضي ابيها عنها ... او بالاحرى ستظن انك تدفع لها تعويضا ..

ـ اهكذا تفهمني يا فانيا ؟ على كل حال دعنا من ذلك فثمة اشياء كثيرة يجب ان نتحدث عنها . واعلم ان هذه القضية تهم «ناتاشا» كثيرا وتتصل بها رأسا . فان كنت تحب « ناتاشا » ومتعلق بها فما عليك الا ان تتحدث معي بصددها .

وما ان شارفنا على الوصول حتى قال :

ـ لنرجىء الكلام .. لقد وصلنا .

كانت الكونتيسة تسكن في بيت لا تظهر عليه الابهة ولا يبين عليه الفخامة ، بالرغم من ان الاثاث الذي يدل على الرخاء والذوق . وكان يبدو لي ان الاقامة في هذا البيت هي مؤقتة ، لانه ما كان يليق بأسرة غنية ان تسكن بصورة دائمة . وكان يروج ان الكونتيسة ستقضي الصيف في « بسمبرسك » وان الامير سيصحبها .

استقبلتني الكونتيسة استقبالا حارا ومدت يدها الي برقة وابلغتني رغبتها الجامحة في رؤيتي منذ وقت طويل . وقد بلغ ترحابها بي ذروته فصبت لي الشاي بنفسها وهي الكونتيسة المتعجرفة الغنية . وجلسنا جميعا انا والامير وسيد من الطبقة الراقية بلغ من الكبر عتيا ، متصنع بعض التصنع ، متزين ، ويتصرف تصرف الدبلوماسيين . وكان الجميع يولونه الاحترام والتقدير الغير مألوف . قلبت الطرف في انحاء الدار باحثا عن كاترين فلم اشاهدها فعلمت انها مع اليوشا في الغرفة الاخرى . وعندما علمت بقدومنا دخلت علينا ، فقبل الامير يدها وقدمني اليها وسرعان ما عرفتنا الكونتيسة احدنا بالآخر .

كنت انتظر أن اشاهد فتاة آية ، الجمال وروعة في الكمال ، ولكن اخطأ ظني فليس لها من الجمال الا نضارة الصبا ، فلو مرت امامي في اي مكان لما كنت اوليها اي اهتمام او التفات . كانت فتاة شقراء ، بيضاوية الوجه ، قصيرة القامة ، زرقاء العينين ، ناعمة الخدين ، كثيفة الشعر ، يقظة النظر ، عذبة البصر . ابتسمت لي ومدت

يدها مصافحة وسرعان ما مضت الى اليوشا وجلست بجانبه فايقنت انني امام انسانة رقيقة القلب ، نبيلة الفؤاد ، مرهفة المشاعر والاحساس . اما اليوشا فقد حياني مبتسما وقال لي :

– لن امكث هنا الا دقيقة واحدة .

كان الدبلوماسي يتحدث بهدوء واتزان ويشرح فكرته شرحا مرهفا دقيقا كأنه رجل من رجال السلطة . كان الجميع ينصتون اليه ، ويشغفون بحديثه ويوافقون على فكرته ، فهم لحديثه ناصتون ولرأيه موافقون .

كنت اختلس النظر الى الكونتيسة فاذا هي تبدو لي جميلة ، لها نظرة غنية يمازجها ضرب من الطيش والمكر والخداع . كانت كثيرا ما تنظر الى الامير فهي متعلقة به وواقعة تحت سلطانه . وسمعت انها طلبت منه الزواج فرفض وبنى رفضه على اساس ان يزوج «كاترين» « باليوشا » ولاحظت ان الامير قد بدأ يضجر منها ويسأم لحضورها وهو من اجل ذلك سيرافقها الى « سمبرسك » عسى ان يجد لها زوجا مناسبا .

كنت استمع الى الحديث عن ظهر قلب واوافق على الاراء دون مناقشة او اعراض . وهنا ، تقدم « اليوشا » مني وربت على كتفي بدون ضجة واخبرني بانه يريد ان يحدثني . فايقنت ان كاترين هي ارسلته الي . وما هي . الا لحظة حتى كنت بجانبها . جلسنا ولكن لا نعرف من اين نبدأ ، وبأي شيء نتحدث ، و « اليوشا » . ينظرنا بفارغ الصبر وقال اخيرا :

ـ ما بالكم ؟ انجبكما ثم تصمتان ؟

فـاجـابـت كاتريــن :

ـ بلى • ولكــن هنــاك امورا يجب ان نتكلم فيها على انفــراد • انما لا نعرف مــن ايــن نبدأ

ثم قامت شبه مشاجـرة بينهمـا عندما انتقدته كاتريــن بأنه يسلك سلوكا مخزي ومعيب ، وتلومه على البقاء عندها طوال الوقت تاركـــا « ناتاشا » وحيــدة تتخبط بألوان البؤس والشقاء وتتألم في جحيم الحب والعذاب • واليوشــا يرد عليها ويؤكد لها حبه « لناتاشا » قائلا :

ـ ارجـوك يا كاتريــن •• لا تشكي في حبي « لناتاشا » فهـي تعرف ما اكنه لها من حب • ولكــن لماذا تراقبون تحركاتي ؟ لماذا توجهون الي هذه الملامات ؟ أأنتم رقباء علي ! لماذا تسائلونني كمــا يساءل المجرم ؟ وكــان الامير قد خدع « اليوشا » بكلامه متظاهرا بالحب له « ولناتاشا» يثني عليها ويصفها بالنبيلة • غــير انه كان يدس بين كلماته بذور الشقاق وبراعم الفراق • وعندما سمعت منــه كاتريــن هذا انفجرت غاضبة • واخذت تقرعه تقريعا شديدا وهي تقــول :

ـ ان اباك لم يبغ من وراء ذلك الا التظاهر بطيبة القلب ، ليقطع علاقتــك معها ، ويثير حفيظتك عليها ••

ـ كفى يا كاتريــن • كفى ، انك دائما على صواب • سأمضي اليها رأســا دون أن امضي الى ليــون •••

وقبل ان يخرج تقدم مني وقال بصوت منخفض حتى لا تسمـــع كاتــريــن :

ـ اسمع يا « فانيا » . لقد سلكت سلوكا مخزيا ودنيئا اليوم .. اجرمت في حقهما .. اخللت في حبهما .. اجل . فقد عرفني والدي بعد الغداء على الكسندرين وهي فتاة فرنسية جميلة ..

استسلمت لها ولاغرائها ، وزلت بي قدمي .. الى اللقاء يا «فانيا»

وبعد ان خرج « اليوشا » اخذت تتكلم عن طيبة قلبه ورفعة فؤاده ولكنها عادت اخيرا وقالت :

ـ ما لنا وللحديث عنه . فهناك ما هو اهم .

شرعنا بالحديث وتبادلنا وجهات النظر فكنا متفقان على رأي واحد وفكرة واحدة : الا وهي ان الامير سافل منحط . وامطرتني بوابل من الاسئلة حول « ناتاشا » وعن سعادتها مع « اليوشا » وبلغتني رغبتها في مشاهدتها والتعرف اليها . وبعدما اخبرتها ان سعادة « ناتاشا» في طريق التدهور وان اليوشا قد بدأ يبتعد عنها ويسأم منها ، وانه قد جعل يزيد من حبه لها (لكاترين) افصحت عن رغبتها في التخلي عن سعادتها وحبها « لاليوشا » في سبيل اسعاد « ناتاشا » . ثم اظهرت لي العطف والشفقة حينما علمت بقصتي مع « ناتاشا » وعن حبها لي فقلت لها مندهشا .

ـ من اخبرك بقصتي هذه ؟

ـ اليوشا نفسه . وهو الشيء الوحيد الذي احبه فيه : الصراحة

ثم لزمت الصمت، ولم تعد تملك نفسها وتكبح عاطفتها ، فاطرقت باكية كالطفل .

يا لها من طفلة رائعة ! لقد ازداد حبي واحترامي لها اكثر من

قبل ، احببتها كثيرا ، وبدت لي من جديد بحلة من الجمال والكمال ، ليس جمال الوجه فحسب ، بل جمال الروح والاخلاق ..

وتساءلنا كيف ستدبر امر لقائها « بناتاشا » فاخبرتني انهم يراقبونها ولا يسمحون لها التعرف اليها .

وعندها قالت لي :

ـ الوقت سيأتي بحل . ولكن بما انك تصدع راسك في الاهتمام بنا فهل لك ان تزورنا من حين الى آخر ؟

ـ ذلك رهن بالظروف . وبما لن احضر اليكم البتة

ـ اذن سأزورك ان لم تعارض ذلك !

ـ ما رأيك انت في ذلك ؟

ـ لا ضير فيه ! سأزورك لانني احترمك بل احبك كثيرا واشعر نحوك بعاطفة شديدة .. اليس من المخزي أن اقول هذا كله ؟

ـ لا . ابدا . انك بمثابة القريبة بل الاخت لي !

ـ اذن هل تقبل في أن تكون صديقي ؟

ـ اجل . طبعا .

تذكرت « بوريس » و « ليون » وسألتها عنهما واستعلمت منها ان كانت حقا ستقدم لهما مليونا . فاجابت :

ـ يا لهم من ثرثارين . لقد اصبح ذلك لا يطاق . لم يتركوا مكانا الا وتكلموا فيه .. على كل حال انهم اناس اذكياء وطيبون ..

اجل . فقد قررت التبرع بمليون في سبيل المصلحة العامة ..

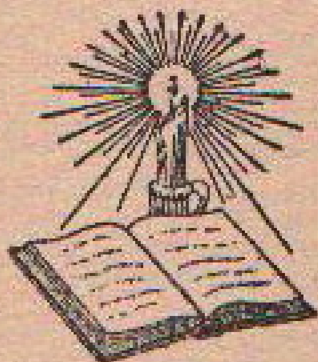
وتحدثنا طويلا وسردت على وقائع حياتها من أولها ، الى اخرها

تقريبا ، وكانت تستمع الي بشغف وتلتهم كلامي بشراهة بالغة . وطوال الوقت كانت تطلب مني الحديث عن اليوشا و « ناتاشا » ولكن الامير قطع علينا حديثنا ،

واسمعني بانه يجب ان نذهب . فاستأذنت بالانصراف وقبلت يد كاترين التي نظرت الي نظرة معبرة ، ورجتني الكونتيسة ان ازورها من حين الى اخر . وخرجت مع الامير حوالي منتصف الليل .

خرجت وفي نفسي ملاحظة لا املك المقدرة على اخفائها :

فقد كانت « كاترين » مثالا للفتاة النبيلة الطاهرة جلست واياها حوالي الثلاث ساعات خرجت منها بقناعة غريبة ؛ اذ انها ما تزال طفلة ! والاغرب من ذلك انها تجهل العلاقات السرية التي تقوم بين الرجل والمرأة ، وهذا ما يضفي طابعا مضحكا على بعض ارائها .



الفصل الخامس

جلس الامير بجانبي وقال :

ـ اسمع يا فانيا ستتعش معا اليوم •

ـ ولكنني لا اتعش ابدا ؟

ـ لا • لا • ستتعش اليوم معا انني سأتحدث اليك بأمر مهم •

ـ اذن ، كما تريد •

ولم يكن بالوسع أن ارفض لانه سيفضي لي بما انا في حاجة ماسة اليه • فامر الحوذي بالتوجه الى المطعم •

طلب أجود المشروبات واطيب المأكولات فنظرت اليه مدهوشا ، ولكنه عاجلني بجوابه :

ـ لا تقلق • انا سادفع ثمن العشاء •

فصمت لا الوي على حركة •

ثم استطرد يقول :

ـ ليس من الحشمة ان يفرض المرء صداقته على الاخر ، انني اعرف ذلك حق المعرفة • انما لم تجالسني لانك تحبني وتستطيب

صحبتي ، وتلتذ بصداقتي ، بل لانك تسهـر على مصالح شخص مـن الاشخـاص وترغب في سمـاع حديثي .

فقلت وقد نفذ صبري :

ـ احسنت التقديـر ايها الاميـر ولم تخطىء . انما مـن اجـل ذلك جئت ، ولولاه لما بقيت هنا .. او بالاحرى لما ظللت معك ..

فانفجـر الاميـر ضاحكا وربت على ركبتي وقال :

ـ لا اعـرف . انـني مرح المزاج اليـوم . على كل حال ستتكلم عـن ذلك الشخص ... يجب ان تفهمني هذه المرة . سبق ان حدثتك عن العجوز الابله ، والمبلغ الذي اريـد ان اعطيه ياه .. ثم تابع :

ـ وهـذه البنت ، « ناتاشا » ، اؤكد لك انني أقدرها واحبها . حقيقة انها ذات نزوات ، انمـا «لا ورد بدون شوك » .

ومـن جهة ابني « اليوشا » اخبـرك بانني قد عفوت عنه بعـض العفـو بالرغم مـن انه احمق بعض الشيء .

فهتفـت قائـلا :

ـ لا اعـرف . لا أعلم . ماذا اصابك ؟ ما الذي جعلك تتبدل ؟ لا أفهم ابدا هذا التغيـر المفاجيء ؟!

ـ صديقي . اريـد ان اسألك سؤالا : هل انت تكـن لها التقدير والاحتـرام ؟

ـ حتمـا . حتمـا .

ـ هل تحبهـا ؟

فنظرت اليـه غاضبا وقلت :

ـ ارجوك . ارجوك ان تنتقل الى موضوع آخر .

ـ هدىء روعك . سأسكت .

ودعاني الى شرب كأس من الشمبانيا ولكني رفضت متذرعا بانني لا اشرب فقال :

ـ بلى . يجب ان تشرب . ان تشاركني في سهرتي . ان تشاطرني اليوم ، ضحكي ودموعي ، حزني وفرحي ، انك لا تعرفني ، وانا واثق من انك متى عرفتني ستحبني . على كل حال انك لم تحضر معي الا لانك تريد ان تعرف شيئا ؟ فاختر واحدا ـ اما الشرب ـ واما السكوت .

كان هذا الكلام بمثابة تهديد خطير الي ، فقبلت مرغما ..وروى عن الامير انه دائما يختار الليل لمواعيده ، وهو يلح على المرء أن يشرب لكي يسكره ، وقد رويت عنه الاقاصيص الفظيعة من هذا القبيل ، حتى ان اليوشا كان يعرف ذلك ، ولكنه كان يجهد في اخفائه على الناس ، واتفق أن زل لسانه امامي ولكنه عاد وغير مجرى الحديث .

وبعدما ملأ الامير كأسين من الشمبانيا ، اخذ يكلمني عن « ناتاشا » ويطريها ويناجيها ويتغنى بها فكأنما يعمد الى ذلك قصدا

ولم استطع كبح جماح نفسي فقلت غاضبا :

ـ ارجوك . لا اريد انكلمني عن « ناتاشا » ابدا .

ـ حسنا . كما تريد . سنتكلم عنك اذن . ليتك تشعر بمدى الحب الذي اكنه لك . انت كاتب تجهد نفسك في الكتابة لكي تنشر بعض المقالات في الصحف ، فتقبض الاجر سلفا وتدفع ما يترتب عليك

من الديون والباقي يكفي ، لمدة معينة . انك فقير معدم ولكن هذا شرف لك من أن تسرق وتسلب ، تسمسر وتنهب ، الخ . .

ـ دعك من الحديث عن شؤوني الآن ..

ـ اسمع « يا فانيا » . اعرف ان اليوشا قد انتزع « ناتاشا » منك ، وها أنذا اراك تمزق نفسك من اجلهما وتقدم لهما الخدمات وتكاد تكون بينهما كساعي البريد . كيف لا تسأم من ذلك كيف لا تضجر من هذا الوضع ؟ الا تشعر بالخزي والعار ؟ فلو كنت مكانك لمت غيظا .. انني اعد هذا نوع من الكرم الفاسد ..

وعرض علي فكرة الزواج من فتاة لا اعرفها بحجة انه يريد سعادتي ويشفق علي وقال :

ـ ما رأيك في ان تتزوج فتاة من نوع « ناتاشا » مع تعويض مناسب ؟ ما عساك تقول في هذا ؟

ـ اقول . انك مجنون ... مجنون ..

ـ تمهل قليلا . هدىء روعك . يحسب من يراك انك تهم في ضربي ...

حقا لقد كنت مستعدا لضربه ، لانه يتلذذ بالسفاهة والانتقاد ، ويطيب له ان يعبث في كما تعبث القطة بالفأرة ، كنت ارى فيه حشرة ضخمة ، حيوانا حقيرا ، ادركت انه يستمتع بالوقاحة والغطرسة ، ويسره ذعري واندهاشي . فصرخت به وقد خرجت عن طوري من فرط الحنق :

ـ ايها الامير ! أمن اجل أن تحتقرني وتهزء بي دعوتني الى العشاء ؟

ــ لا يا صديقي • يجب ان تتحمل قليــلا ، ينبغي ان نتفاهم ، اود ان اشرح لك رأيي في بعض الامور ، اريد أن اعبر لك عما في فكري ، لان الظروف الحاضرة تحتم علينــا ذلــك • •

ــ لا تحزن يا صديقي ! ! انك لتحتقرني وتهزء بي • ولكــن عليك ان لا تحكم علــي بشيء ، انني نبيــل القلب ، انظــر ما تنطوي عليه نفســي مــن صغار النيــة وطيبة الفؤاد ! انني اعترف لك بكل شيء ، حتى بنزواتي الطفولية ، وتصرفاتي الهزليــة ••• لا تندهش مما سأقوله:

ان هذه الاندفاعات والبراءات مــن جانب اليوشا ، وهذه المراسب التي وصلت اليها تلك العلاقة « بناتاشا » جعلنــي هذا كله اسأم واضجر ، واصبحت مفتونا بانتهاز فرصة للعبث • بهذا الموضوع •

ــ انك تدهشني ايها الامير • اكاد لا اصدق ، اكاد أنكرك ولا اعرفــك • انك اشبه بمهرج •

ــ تشبيه ظريف ! نعت لطيف ! انني سعيد ، انني في عيد ! ثــم استطــرد يقــول :

ــ اعلم يا فانيــا ان تلك السهرة في بيت « ناتاشا » قد دمرتنــي تدميــرا ، وزلزلني زلزالا ، وخرجت حاقدا ، ومضيت غاضبا ، رغم مــا أظهرت لي مــن اللطف واللياقة •• ولكــن دعنا الان مــن ذلــك •• وبعدما وجدت أن اللقاء هذا لا يجدي ، وقد مضى بنا الــوقت دون ان يحدثني عــن الامر المهم نهضت واقفا وهممت في الخروج •

ولكنه استوقفني وقــال :

ــ هوه ! فيم العجلة ؟ ما اقــل صبــرك • دعنــا نستمر بحديثنــا

على مودة واخلاص ، اتستكثر علي القليل من الوقت ؟ انك اناني وبخيل .

ثم ان ذلك يتصل بموضوعنا ..

وجلست على مضض ، وقد تغيـر كليـا ، ولعب الخمر في رأسـه وبدأ يشكـر ، ولكنه ظل مالكا زمام نفسه .

وشرع يحدثني عـن حياته وعـن نفسه ، واخبرني انه كان مـن رجال البر والاحسان انما لمجرد النزوة . واخـذ يغازل البنات حتـى انـه قد سلب فلاحا زوجته وأمر بمعاقبته وجلده .

ثم تطلع الـي وقال :

ـ ربمـا انك تتهمنـي بالفسق والفساد ، انما لا ذنب لي ، وانني اصدق مـن الآخريـن ، فانا اعترف مـن بأمور قد تخفيها البعض حتـى عـن انفسـهم .

فقلت لـه :

ـ لا بد انك تهذي . وقد افرغت في جوفك زجاجتين من الشمبانيا و ... ثملت !

ـ تريد ان تقول انني سكرت ؟ يا لك مـن دمث الاخلاق ؟

ـ اذا لم تسكـر لماذا تفضي الي باسرارك ؟ ولم اخترتني انـا بالـذات ؟

ـ ستعـرف فيمـا بعـد ...

اتريـد أن اروي الك نكتة ؟ اسمع : قيل أنه كان في باريز عامـل مجنـون ، ادخلـوه في مستشفى المجانيـن .

وحينما خرج منها ، كان يجلس في بيته عاريا تماما الا من فردة الحذاء وعندما يطيب له أن يخرج كان يرتدي معطفا فحسب ، ويسير على الطريق كأنه رجل اعمال ، ترتسم على وجهه علامات الجد والعمل . ثم يقف فجأة امام احدهم وجها لوجه ويزيح بمعطفه جانبا ، ويظهر جسمه عاريا تماما . وكان يفعل ذلك دائما امام الناس نساء ورجالا واطفالا .

ثم استطرد يقول :

ـ يا لها من فكرة . اريد ان اقص عليك مغامرة بخطوطها العريضة مع سيدة في ريعان الصبا : كانت في عنفوان الشباب ، رائعة الجمال ، تشيع نضارة ، لها نظرة عنيدة كنظرة النسر ، متغطرسة متعالية ، يخافها الناس وتهابها الفتيات ، قاسية الحكم دقيقة الملاحظة

كانت محترمة من الكبير والصغير ، حتى أن الرجال انفسهم يخشون بأسها ، انها امرأة قلما رأيت مثلها بين الناس .

ثم تابع يقول :

ـ هل ترغب في أن تعرف امر هذه المرأة ؟ انها اكثر النساء فسقا ومجونا ، وليس بينهن امرأة تضارعها فسادا . كنت خليلها سرا وكنا تدبر امر لقائنا ببراعة محكمة . حتى أن احد من الخدم لم يراوده شك في ذلك .

كانت هذه السيدة من شدة الفسق ، بحيث ان المركيز «ساد» كان يأخذ عنها دروسا في الفسق والفساد ..

كانت الشيطان بعينه ؛.. كانت لها فتنة لا تقاوم ، واغراء لا سبيل الى الصمود امامه ، حتى انني كلما تذكرتها سرت في جسمي حمى

اللذة والنشوة .. كانت تضحك وهي في نار اللذة المتأججة ، العنيفة الحارة كمن اصابها مس من الجنون . حتى اليوم ، حين اتذكر ضحكتها هذه تخرس انفاسي وتصمت تنهداتي في صدري ... وبعد سنة استبدلتني بشخص آخر ..

لقد كانت امرأة تعرف كيف تستفيد من حياتها !

ـ كيف ؟ هل تستفيد من حياتها وتصل الى هذه الدرجة الحيوانية ؟

ـ حيوانية ؟ ماذا تقصد ؟

ـ اجل الحيوانية التي وصلت اليها هذه المرأة وبلغتها انت !

ـ انك ما زلت طفلا .. ولكن لنتكلم ببساطة لان هذا كله باطل ...

ثم قص علي قصة أخرى من اقاصيصه الفظيعة ، ولكنني ضقت به ذرعا . وقد اخذ مني الغضب مأخذه ، ولعب الحقد والحنق في رأسي، ونهضت مودعا .

فصرخ بلهجة جادة :

ـ لي كلمتان يجب ان نختتم حديثنا بهما ثمة أمر اخير . قد تكون كونت عني فكرة من خلال حديثي لك ، ويظهر لك جليا وواضحا انني احب المال والنساء . اجل . انني انسان لا ادع فرصة تفوتني و لاتفلت من يدي . حقا انا احب المال ، انني في حاجة اليه، وكاترين تملك الكثير منه ، انها تملك ثلاثة ملايين ، سأسوي قضيتي بها على احسن وجه ..

ثـــم تـــابـع :

ـ ان كاتريـــن واليوشا متناسبان كل التناسب • سأسعى لزواجهما وهذا ما سيفيدني كثيرا لانها كلاهما غبي كل الغباء • ستسافر الكونتيسة مع كاترين بعد خمسة عشر يوما وسيصطحبها اليوشا ، ابلغ « ناتـاشا » ذلك ، اننا لا نريــد مشاهد رائعة ولا درامات ابلغها حتى لا يعارض كل منـها الاخـر ويفسد فيـما عزم عليه • انني امرء حقود ، اثأر لنفسي، وابطش مـن خصمي وانتقم مـن غريمي ، واعرف كيف اتدبـــر امـر مصالحي •• يجب ان تحذرها ولا تدعها تقترف سخافات وحمـاقات ، واحمـلها على أن تلتزم في سلوكها سبيل الحكمة والتعقل لان هذا مـن مصلحتها • انني لا اخافها وسيتم كل شيء وفق ارادتي ، حذرها مـن مغبة تصرفاتها والا الحقت بها شرا مستفيضا • يجب أن تشكرني لانني لم اعاملها حتى الان حسب القوانيــن ، وكـما تعلم أن القوانيـن تحمي هدوء الاسرة وامنها واستقرارها ••

لا تخف : فهناك انظار شاخصة وعيون مترقبة ، واذان ناصتة تراقب حركاتها وترصد تصرفاتها خلال الستة اشهر • وقد علمت أدق التفاصيل واكثرها • لذلك لم احرك ساكنا وانتظرت اليوشا ان يهجرها مـن تلقاء نفسه ، ولا بد أن هذا اليــوم يقترب فلا مانع مـن أن يتسلى بـها ويتلاعب قليـلا •• وما زيارتي لها يوم الثلاثا الا لانهاء تلك العلاقة • هل يكفي ما قلته ؟ ام تراك تريــد أن تعرف لماذا جئت بك الى هنا ؟ وكيف استطعت البــوح بكل ذلك وبصراحة تامة ؟ ولماذا اخترتك انت وعبث امامك كـل العبث

فكظمت غيظي وصمت لانه لم يكن ثمة ما اجيب به غير كلمة : نعم .

ـ انت تختلف تماما عن ذينك الابلهين الصغيرين ، ورأيت فيك من حسن التبصر لعواقب الامور ، ما حملني على أن اختارك الشخص الذي سأفضي له بكل شيء (وخاصة انك تحب الفتاة وتأثر عليها تأثير شديدا) ، لكي تجنبها الاخطار وتوقيها بعض المتاعب والا تعبت كثيرا ، واقسم لك ان الامر ليس مزاحا الان .

فقلت وانا أرتعد حنقا :

ـ لقد بلغت غايتك ، ووصلت الى هدفي وعرفتك حق معرفة ، واظهرت لي ما تحمله من بغض واحتقار لنا جميعا ، وكشفت عن عورتك اما مي كالمجنون صاحب المعطف . انك لم تعتبرني انسانا ولم تقدر كبريائي .

لقد حزرت يا صديقي ولكن علينا ان ننفصل بصداقة ولنشرب نخب صحتنا كلينا !

ـ انك سكران ولم ارد عليك كما كان ينبغي أن أرد .

ـ اي انك قد لجمت لسانك .

ـ اجل .

ـ هل تقبل في أن ادفع عنك ؟

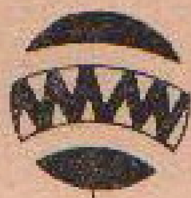
ـ لا . شكرا . استطيع الدفع بنفسي . لا تحمل نفسك العناء

ـ كنت متأكد من ذلك . هل اوصلك ؟

ـ لا .

ـ اذن وداعا يا صديقي واتمنى لو تكون قد فهمتني جيدا .

وخرج وهو يترنح دون ان يلتفت الي ، فاصعده الحوذي الى العربة ومضى به الى بيته ... كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ليلا ، مضيت في طريقي والمطر يهطل والسماء تهدر ، والليل مظلما ...



القسم الرابع

الفصل الأول

لقاء ويا من لقاء ، كنت اتوقع كل شيء غير التي فوجئت بهذه الدمامة التي يسفر عنها . كنت مهدم الكيان محطم الاركان ، وكان يخفق قلبي بغم قاتم اسود وارتعد خوفا على « نانانشا » . كنت احس انها ستعاني آلاما كثيرة ، وستذوق الوان العذاب وضروب الهوان وفي قلق واضطراب كنت ابحث عن وسيلة توفيها هذه الالام وتهون عليها اللحظات الاخيرة التي ستسبق النهاية ، ويا لها من نهاية قاتمة تقترب رويدا رويدا .... خاتمة لا ريب فيها ، اعرف ما هي !...

وصلت الى بيتي دون أن اشعر ، بالرغم من هطول المطر الشديد ، وما أن فتحت الباب حتى وجدت نللي شاحبة الوجه ممتقعة اللون ، تنظر الي نظرة غريبة ، وعيناها تلتمعان بلهيب حمي ، كانت تنتظرني في العتبة تتفرس في وجهي فكأنما لا تعرفني .

انحنيت عليها واحطها بذراعي وقلت :

ـ ماذا بك ؟ ماذا حصل يا نللي ؟ هل انت مريضة ؟ فشدت جسمها الي وهي ترتجف واخذت تدمدم بكلام متقطع مفكك . فلم افهم منها شيئا لانها تهذي .

حملتها ووضعتهـا على السريـر ، ولكنها ما تنفك تنظر الـي طوال الوقت ، وتتشبث بي ، وتتوسل الي كأنها تخاف من شخص ما ...

وكنت قد بلغت من شدة الاضطراب انني اخذت ابكي حينما رأيتها فلما لاحظت دموعي تنهمر على خدي القت علي نظرة ثانية ، ومدت يدها الناعمة وشرعت تجفف دموعي واحاطتني بذراعها وشدتني اليها وطبعت قبلة على وجنتي . وادركت ان نوبة قد انتابتها في غيابي وهي تحـاول أن تفتح الباب ، وسقطت على العتبة ودهشت ، انني قد رأيتها تـرتـدي معطفها فتساءلت في نفسي : ترى اين كانت تريـد أن تذهب ؟ ولمـاذا ؟ هل كانت فريسة هذيان قبل أن توافيها النوبة ؟

ظللت واقفا بجانبها خلال ما يقـرب النصف ساعة اسهـر عليها ، وتمددت وقررت أن آتيها بالطبيب صباح غد اذا ما تفاقمت حالتها واشتد مرضهـا ...

وفي اليوم التالي احضرت الطبيب العجوز الذي سبق له أن فحصها في مرضها الاول . وعندما القى عليها نظرة ووصف لها الدواء لكي تشفى من الداء ، جرني الى المطبخ وقال :

ـ لم يعد ثمة خطرا الآن . غير انها لن تعيش .

ـ ماذا ؟ لن تعيش ؟ كيف ؟ هذا مستحيل .. مستحيل !

ـ نعم . لن تعيش طويلا ، لان في قلبها آفة عضوية ، ستشفى الان ولكنها ستعود للمرض عند اول حادث سيء .

ـ وليس ثمة اية وسيلة لانقاذها ؟

ـ لا . متأسف . انما يجب ان تتناول الدواء وتهتم قليلا بنفسهـا ،

وتعيش حياة رحبة ناعمة ، سخية هادئة حتى يمكن انقاذها .

ـ ما العمل اذن ؟ رباه ... رباه ...

ـ ليس هناك الا أن تشرب الدواء كما قلت ، وتنعم بحياة هادئة .

ـ ولكنها رفضت أن تجرع الدواء منذ لحظة ، وقد عمدت قصدا الى صدم الملعقة فوقعت على الارض وحينما اردت ان املأ لهـا الملعقة مرة ثانية ، سرقت مني الدواء ورفضت أن تعطينيه .

ـ على كل حال سأكلمها عن الدواء وعن فائدته .

وخرجنا من المطبخ وتوجهنا الى غرفة تللي ولما شاهدتنا اندست في الفراش وغطت رأسها وابتسمت ابتسامة ماكرة خبيثة ، فتقدم منها الطبيب وقال :

ـ اسمعي يا تللي .. اشربي هذا الدواء سيفيدك كثيرا وهذا أمـر لا بـد منه .

ونهضت تللي ، ورفعت رأسها فاصدمت يدها بالملعقة فوقع الـدواء على الارض وسفح كله ، فايقنت عند ذلك انها فعلت هذا متعمدة .

فصاح الطبيـب :

ـ لا بد انك فعلت ذلك عامدة ، وهذا شيء غير محمول . هه . هذه ملعقة جديدة .

فكبحت تللي ضحكتها وحبست ابتسامتها وقالت :

ـ لا تحزن سأشرب الدواء رغم عني ، ولكن هل تحبني ؟

ـ ان كنت حسنة السلوك سأحبك حتما .

ـ كثيرا

ـ نعـم كثيرا

ـ والآن تحبني ؟

ـ اجل احبـك .

ـ وهل تقبلني ان اردت ذلـك ؟

ـ نعم ان كنت تستاهلين القبلة .

ـ سآخذ الدواء . ولكن قل لي هل ستتزوجني عندما اكبر ؟

فابتسم الطبيب وقال مرتبكا :

ـ نعم ان كنت مطيعة ومؤدبة ووافقت على ....

ـ تناول الدواء ؟

ـ اجـل .

فهمس العجوز في اذني قائلا :

ـ انها ابنة طيبة ، ذكية ... ولكنها لماذا تريد ان تتزوجني ؟ وقـدم لها الجرعة ولكنها هذه المرة لم تخف حيلتها بل عمدت الى ضرب الملعقـة بيدها فدلق الدواء على قميص العجوز فانفجرت نللي ضاحكة ونظـرت الى العجوز نظرة هزء وسخرية وانتظرت ما سيفعلـه العجوز . ولكـن الطبيب قال وهو يملأ الملعقة من جديد :

ـ ها .. هذه ملعقة ايضا .

فوجئت نللي بهذا فلقد كانت تتوقع منا ان نغضب ونثور ونقرعهـا ونؤنبها ، ولكنها فوجئت بهذه الطيبة الملائكية من الطبيب ، فاحمر وجهها واختفت ابتسامتها وهدأت اعصابها وتبللت عيناها ، فقدم لها الجرعـة فشربتها طائعة واندست في الفراش فجأة واجهشت بالبكاء ...

ـ اوه ! كفى بكاء . الامر يسير . لا تبك هذا من العصبية ، ولكن نللي لم تعره اهتمامها ولم تصغي اليه .

فتابع الطبيب قائلا وهو يهم في البكاء لانه انسان حساس :

ـ لا تبك ... لا تذرفي الدمع .. انني اغفر لك وسأتزوجك ان سلكت سلوكا جيدا و ...

ـ شربت دواءك .

بهذه العبارة اكملت نللي كلامه وهي تضحك ضحكة عصبية ضعيفة تكاد تكون صوت جرس .

فقال العجوز والدمعة الحرى تترقرق في عينيه :

ـ يا لك من فتاة طيبة ... يا لك من طفلة بائسة ... ومنذ ذلك الوقت ، توطدت بينهما عرى الصداقة الوثيقة وقامت بينهما مودة غريبة ، اما انا فقد تغير سلوكها معي وانقلب حبها لي الى عداوة ، واحترامها لكبريائي الى عصبية واهتياج . ولم اعرف السبب في ذلك . كانت في الايام الاوائل لمرضها تلاعبني وتمازحني وتمسك بيدي وتقبلني ، وتجلسني الى جانبها ، وكانت تشعر بالسعادة تغمر قلبها حين أعود الى البيت ، واذا حاولت الخروج حزينة ، وتناولت قبعتي ، نظرت الي نظرة قاسية حزينة ، مفعمة باللوم والخزي ...

وعندما كنت في زيارتي « نتاتاشا » وعدتها بأن لا اغيب عنها كثيرا ، وكنت قد قررت ذلك . ا لانني قد قضيت السهرة بكاملها عند « نتاتاشا » وان ثمة اشياء كثيرة يجب أن تحدث فيها من جهة ، ولانني كنت مطمئنا عليها لانها لم تكن لوحدها من جهة ثانية ، ذلك لان « الكسندرا

سيمينوفنا » حين علمت من ماسلوريف ان الصغيرة قد مرضت ، وان اعمالي كثيرة ، جاءت لزيارة المريضة محملة بمختلف الهدايا و ...

وما ان وصلت حتى فضت حزمة كانت تحوي العديد من انواع الاشربة والكثير من انواع الاكل والاغطية والتبغ وما هنالك من اشياء تكفي لمستشفى بكامله . واعلنت انها ستمكث هنا بعض الوقت لتساعدني .. وعندما لمتها ذلك اجابتني :

— انت رجل عازب ليس عندك هذا كله .

ثم اخذت تنظف البيت وترتب الاغراض وتجلي الاواني ، وقامت بخدمة نللي على اكمل وجه كأنها احدى قريباتها ، ولم يكن ثمة اعمالا كثيرة يجب أن تقوم بها فادهشها ذلك بل احزنها ، على انه لم يثبط من عزيمتها . وانعقدت اواصر الصداقة بسرعة بين الكسندرا ونللي فكانت تزورها بغيابي وتقوم بخدمتها . والواقع أن « ماسلوبويف » هو الذي يحثها على ذلك .

وقد احبت الكسندرا نللي واعجبت بها كثيرا ، وكانت تقص لها الاقاصيص وتروي لها الحكايات فتضطرب نللي لسماعها ولضحكها .

وفي الايام الاخيرة كانت تمل وتسأم عندما لا تحضر اليها الكسندرا.

وحين جاءت الكسندرا الى البيت لاول مرة دهشت نللي وتجهم وجهها واتخذت موقفا عدائيا . ولما استوضحت امر رمجتها سألتني :

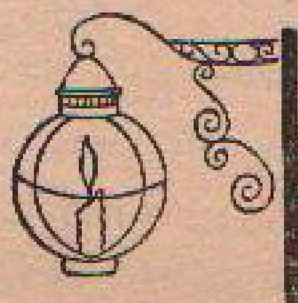
— لماذا جاءت الي ؟

— لكي تساعدك .

— تساعدني لماذا ؟ لم افعل لها شيئا في حياتي .

ـ الاناس الطيبون لا ينظرون ان يحسن اليهم احد لكي يحسنوا اليه بل يندفعون الى عمل الخير والاحسان بكل ما أوتوا به من قوة وعظمة ...

فصمتت تللي وطلبت مني أن اسقيها جرعة ماء ثم احاطتني بذراعها مبتسمة ضاحكة ... وحين اتت الكسندرا اليها في الغد ، استقبلتها بوجه بشوش فرح ، ولكنها كانت تبدو خجلة منها .



الفصل الثاني

في تلك الليلة ، قضيت السهرة بكاملها عند « ناتاشا » . وعندما رجعت الى بيتي في ساعة متأخرة من الليل ، كانت نللي نائمة . وكانت الكسندرا لا تزال مستيقظة ولكنها نعسة ، فلما وصلت شرعت تروي لي بسرعة أن نللي كانت مرحة في بادئ الامر ، وابتسمت كثيرا ، الا أن طابع الحزن والبؤس ما لبث ان ارتسم على وجهها واصبحت واجمة ، واصابها صداع شديد واخذت تبكي وتنتحب . لا أدري ماذا افعل ، وحرت في أمري الا انها نامت بعد مدة قصيرة . اما الآن فينبغي علي ان أعود لان ماسلوبويف لم يسمح لي بالتغيب اكثر من ساعتين ، ولكن احذرك من انني بقيت هنا من تلقاء نفسي . على كل حال لا تقلق من أجلها فستعود كما هي غدا .

وانصرفت الكسندرا ولكنها عادت ، وتوقفت تقول :

– لديك العديد من الكتب والمقالات ، انها ممتازة . لقد نظرت فيها وقرأت بعضها ...

وفي اليوم التالي نهضت نللي مكتئبة لا تنظر الي ولا تهتم بي ، كانت غاضبة مني لانني تأخرت البارحة عنها . واستمرت في اعمالها

الشاذة ونزواتها ، وغيرت موقفها مني ، ولم تعد تظهر لي العطف والحنان ، بل كانت تناصبني العداوة وتبين لي مشاعر الكره والحنق الخوي •••• الى أن جاء اليوم الحاسم ، اليـوم القاسي ، جاءت الساعـات الرهيبة واللحظات الغريبة ، جاء اليوم الذي اصبحت فيه لا تعيش معي ، وحلت الكارثة التي ختمت قصتنا •••

وسنعود الى ذلك فيما بعد •••

لقد تغيرت كليا ، لحظة تنظر الي وتسترد حنانها نحوي ، ولحظات تعرض عني وتتطلع بعداء وجفاء • غير أن مودة غريبة قد نشأت بينها وبين الطبيب العجوز كما سبق وذكرت ، واصبحت تحبه كثيرا وتستقبله دائمـا بابتسامة مشرقة متألقة • وفي المدة الاخيرة اخذ العجوز يتردد عليها ويكثر من زياراته لها حاملا معه الهدايا من سكاكر والعاب وكتب ، يصل رافـع الرأس متألق الوجه يتبختر بمشيته ويفتخر بهديته ، وهو سعيد كأنه في عيد ، يجلس امامها وينظر اليها بحزن وعطف والابتسامة تعلو شفتيـه ويقـول :

ـ هذه الهدية لعروستي الصغيرة •

وثم يحملها على التكلم ويسدي اليها النصائح بلهجة مؤقتة وقد قال لها ذات مرة :

ـ لكي يعيش المرء سعيدا هانئا في حياته عليه الاهتمام بنفسه ، وعليه أن ينسى الآلام والاحزان التي تخامره ، فلا تفكري اذن باحزانك وحاولي الا تفكري الا في امور مفرحة مسلية •

فسألته قلقي :

ـ بم يجب ان افكر ؟

فاحتار الطبيب وارتبك ولكنه قال :

ـ في لعبة بريئة مثلا ، بأقصوصة أو في شيء من هذا القبيل .

ـ العب في لعبة ، لا . لا احب اللعب بل احب الاثواب الجديدة .

ـ ماذا ؟ الاثواب الجديدة ؟

ـ اجـل

ـ على كل حال يمكن للمرء أن يحب الاثواب الجديدة .

ـ هل تنوي شراء اثوابا جديدة لي حين تتزوجني ؟

ـ اتزوجك ؟ ما هذه الفكرة ؟

هذا ما قاله الطبيب وقد قطب ما بين حاجبيه .

اما تللي فقد ابتسمت ابتسامة دلال ونسيت نفسها فنظرت الـي مبتسمة .

ثم اردف الطبيب يقول :

ـ سأشتري لك ثوبا ان كنت تستحقي الثوب .

ـ وهل سأستمر على تجرع الدواء حين اصبح زوجتك ؟

ـ قد يجوز أولا ....

ابتسم الطبيب وهو يقول ذلك . ثم التفت الي وقال :

ـ انها مرحة . تملك روح النكتة ، ولكنها ما زالت تحتفظ بمـزاج كثير النزوات والاهتياج الشديد ...

اجل . كان الطبيب على صواب ، لا اعرف ماذا اصابها وما الـذي انتابها حتى اصبحت لا تكلمني ، كأنني اذنبت في حقها . ولقد آلمني ذلك

كثيرا وحز في قلبي ، وكثيرا من الاوقات كانت تبكي وكنت لا اعـرف كيف اواسيها ....

وكنت قد عدت قبيل الفسق الى البيت ، فلمحتها تخفي كتابا تحـت منضدتها . كان هذا الكتاب هو احدى رواياتـي اخذته لتقرأ فيه اثنـاء غيابي . ولم أجرؤ على مفاتحتها بالامر بل اخلدت الى السكينة ولكـن تساءلت : لماذا تخفي هذا الكتاب وتخجل من قراءته امامي ؟ ولكنها ما لبثت ان نادتني وهي تقول :

ـ هل ستذهب الى « ناتاشا » اليوم .

ـ اجل . يجب ان اراها حتما .

ـ هل تحبها ... كثيرا ؟

ـ نعم . كثيرا .

ـ وانا ايضا .احبها كثيرا .

قالت ذلك بصوت منخفض ثم تابعت تقول بخجل :

ـ أريد أن اذهب اليها واسكن معها .

فقلت مذعورا !

ـ مستحيل ! مستحيل يا نللي ... هل أنت متضايقة من قبل هنا ؟

فاجابت وقد اصطبغ وجهها بحمرة قانية :

ـ لماذا مستحيل ؟ او تنصحني بالذهاب الى ابيها ؟

ـ نعم .

ـ اذن اوفر ان اذهب اليها . هل لديها خادمة ؟

ـ أجــل .

ـ ستطرد الخادمة وأحل انا محلها وسأتولى مهمتها وخدمتها ، وسأرفض أن اتقاضى منها اجرا وسأطبخ لها . أخبرها ذلك ارجوك

ـ لماذا يا تللي ؟ ماذا اصابك ؟ ما هذه الفكرة ؟ هل ستظنين انها ستأخذك خادمة ؟ فهي ان ضمتك انما تضمك لها قرينة او اختا صغيرة ..

ـ لا . لا . لن اقبل . لا اريد ان تأخذني قرينة ..

ـ لماذا ؟

ثم صمتت وارتعشت شفتاها ، وهمت بالبكاء .

ثم استطردت تقول :

ـ غير ان الشخص الذي تحبه هي سيتركها وحيدة .

فدهشت من ذلك وقلت مندهشا :

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ سمعته منك ، وقاله لي زوج الكسندرا حين جاء الي صباح البارحة ؟

ـ من ؟ زوج الكسندرا ؟ ما سلوبويف ؟

ـ نعم

ـ هل جاء اليك صباح البارحة ؟

ـ نعم

ـ ولماذا لم تقولي لي ؟

ـ هكذا

واطرقت افكر واتساءل : لماذا يحوم ماسلوبويف حولي ؟ ماذا يريد مني ؟ وما دهاه ؟ كان يجب ان اراه ؟

ثم سألت نللي :

ـ ماذا يعنيك ان تركها او سيتركها ؟

فاجابتني مطرقة الرأس ، خجلى :

ـ انـك تحبها اليس كذلك ؟

ـ اجـل

ـ اذن ستتزوجها ان تركها •

ـ ولكنها يا نللي لا تحبني كما احبها

فقالت بما يشبه الهمس :

ـ سأخدمكما معا ، سأساعدكما على امركما وستسعدان •

فتساءلت في نفسي : ترى ، ماذا دهاها ؟ ماذا حل بها ؟ ثـم نعتت ولم تعد تقول شيئا • ولكنها انفجرت باكية حين فرحت وظلت تبكـي وتنوح اثناء الليل كله ، تبكي وتتكلم ، تبكي وتتألم هاذية ••• ومنـذ ذلك الحين اصبحت اكثر صمتا واشد كآبة وتجهما ، اصبحت لا تكلمنـي ابدا ، وكانت تزداد عبوسا من وقت الى اخر : تعبس امامي وامام الطبيب نفسه ، وقد دهش الطبيب لهذا التغير المفاجيء وذعر منه • وعندما استردت صحتها سمح لها الطبيب بنزهة في الهواء الطلق •

وفي يوم مشرق مشمس ، الجو دافيء ، اصطحبت نللي الى نزهـة قصيرة وعند المساء تركتها وحدها تعود الى البيت ومضيت الى ناتاشـا ولكنني عاهدت نفسي ان اعود مبكرا لاصطحب نللي بنزهة ثانية لايستطيع لساني ان يقوى على وصف الصاعقة التي كانت تنتظرني في البيت ، ولا يستطيع كلامي ان يعبر على أسجاني وخلجات قلبي ، كنت اسير بخطـى

سريعة ، فلما وصلت الى المنزل وجدت المفتاح خارجا . وما ان دخلت حتى استرعى انتباهي ورقة صغيرة كتب عليها بخط قلم الرصاص :

اني احبك كثيرا - لقد ذهبت ولم ارجع ابدا .. اني احبك كثيرا .

صديقتك المخلصة « نللي »

فصرخت مذعورا ثم خرجت من المنزل .



الفصل الثالث

وقبل ان اصل الى الشارع سمعت وقع حوافر خيل ، فوجدت عربة وقد هبطت منها الكسندرا وهي ممسكة بيد نللي خوفا من ان تهرب مرة اخرى . ثم هتفت تقول :

ـ ماذا دهاك يا نللي ؟ ماذا اصابك ؟ اين ستذهبين ؟

ثم التفتت الي وهي تقول :

ـ انظر قليلا . ستعرف كل شيء . ستعرف حالا ساقص عليك ما لا تصدقه ابدا .

فلما وصلنا الى الغرفة اتجهت تقول لنللي :

ـ هلا استلقيت قليلا ، انك متعبة . ان مسافة طويلة ليست بالامر اليسير وخاصة بعد مرض مرهق هيا استلقي يا عزيزتي .

ولكن نللي لم تتمدد على السرير ، بل جلست على الاريكة وقد غطت عينيها بيديها .

ثم اتجهت الي الكسندرا واشارت بوجهها الى المطبخ بغمزه :

ـ يجب ان نمضي لئلا نزعجها .

دخلنا الى المطبخ فاخبرتني ان نللى قد ذهبت الى الطبيب العجوز

بعد ان خرجت من المنزل وتوسلت اليه ان يضمها اليه كخادمة ، واظهرت له انها لن تهزء به بعد الان ولن تسخر منه ، وان طلب الزواج منه كـان مزاحا الا ان العجوز اجابها بالرفض وابى ان يضمها اليـه واخذ يقرعهـا ويلومها ، ويحثها على الرجوع الي . وكلما ازدادت تعلقا به كلمـا زاد من عناد رأيه ونفاذ بصبر

وعندما لم يجـد الامر نفعـا تركت منـزل الطبيب وذهبت الى ماسلوبويف الذي دهش من وجودها عنـده وطلب مـن الكـندرا ان تعيدها الـي .

وعلى الطريق قالت لها الكسندرا :

ـ لماذا هربت من عنده ؟ هل هو يسيء معاملتك ؟

ـ لا . لا .

ـ لماذا اذن ؟

ـ هكذا ... لانني شريرة معه وهو طيب القلب ...

اما عندكم فلن اكون شريرة ابدا .

ـ ولكن لماذا انت شريرة معه ؟

ـ لا اعـرف . هكذا .

قالت ذلك واجهشت بالبكاء .

ثم عدنا الى الداخل فوجدت نللي مستلقية وقد دست وجهها بـين المخدات ، وهي تذرف الدمع ، فتقدمت منها راكعا واخذت اقبل يدهـا فسحبتها وازدادت بكاء ونحيبا . وفي هذه اللحظة دخل علينا العجـوز الخميف .

ـ عم صباح يافانيا . جئت لاجل عمل من الاعمال قال ذلك وهـو مندهشا ، ومستغربا ان يراني راكعا على ركبتي .

فنظرت الي الكسندرا وهي تقول :

ـ الى اللقاء يا فانيا .

فقد اوصاني ماسلوبويف بالا اتغيب كثيرا ولكنني سارجع في المساء لابقى ساعة او ساعتين .

وهنا سألني العجـوز :

ـ من هذه ؟

فشرحت له الامـر بالتفصيل .

ـ لقد جئتك لامر من الامور يا فانيا .

وواقع الامر انني اعرف الامر الذي انما جاء من اجلـه اخمنيف . فقد وافقت اندريفنا على تبني نللي واخذها الى بيتها . وكـانت هـذه الموافقة ثمرة محادثات قامت بيني وبينها فاقنعتها ان مشاهدة العجـوز « لنللي » ربما غيرت من نفسه وردت اليه عواطفه . وعمد العجـوز عند ذلك لتنفيذ الامر بسرعة وكان يريد قبل كل شيء ان يحظى باعجاب نللي.

وتجدر بنا الاشارة هنا الى ان نللي سبق لها ورأت العجوز عندمـا قام بزيارته لي ، ولم يعجبها ولاحظت ان بعض البغض يرتسم على وجهها حين اذكر لها اسم اخمنيف . وبادر العجوز بدخول الموضوع رأسا وبدون تمهيد ، ومضى قدما الى نللي ، وسألها ان تكون بمثابة ابنته وان تاتـي معها الى البيت .. وذكر لها انه كان له ابنة قد توفيت ولقد كنت احبهـا كثيرا ، ثم اردف يقول :

ـ هلا قبلت ان تحلي محلها في بيتي و ... في فؤادي ؟

قال ذلك العجوز وترقرق الدمع في عينيه ، سرت حمرة قاتمة على خديه فاجابته نللي :

ـ لا . لا . لا اريد !

ـ لماذا يا بنتي ؟ ان فانيا لا يستطيع ان يحتفظ بك ابديا ، وليس لك احد ستعيشين في جو الاسرة .

ـ لا اريد ، لانك شرير . ثم اضافت :

ـ أجل . انك شرير . انك قاس . وانا قاسية وشريرة ولكنك انت شرير اكثر مني .

قالت نللي ذلك وقد احمرت وجنتاها والتمعت عيناها واصفرت شفتاها ، والعجوز ينظر مرتبكا .

ثم تابعت :

ـ نعم . انك قاس لانك لم تغفر لابنتك ولم تسامحها .

انك تريد ان تنساها لذلك فكرت في ان تحضنني ، لا حبا في ، ولا انسانيا منك بل لتنسى ذكرها ....

هل يمكن لك أن تنساها ؟ هل يمكن ان تحبني في المستقبل ؟ انك قاس ، جبار ، وانا لا احب ان اعيش عند اناس قساة .. لا احب ... لا اريد ....

كانت نللي تتكلم والحمرة تصبغ وجهها ثم التفتت الي وقالت :

ـ غدا يطل فجر العيد .. عيد الفصح المجيد .. غدا يتعانق الاحباب ويفرح الانساب ، غدا سيتصافح الناس ويتصالح الاناس ، غدا

يعفو المرء لاخيه ، والاب لابنه .. الا انت ! انت وحدك ! يا لك من قاس اغرب عن وجهي ، اذهب عني ، ثم ذرفت دموعا حارة غزيرة ، وتلـــون وجهها ، ووصلت الى اعلى درجات الغضب وهي تقول :

ـ لماذا ؟ لاي سبب ؟ من انا كي يهتم بي جميع الناس ؟ لماذا هـذا الاهتمام كله ؟ لا اريد .. لا اريد . سأمضي لاتسول واطلب الصدقات ، سأمضي ...

فنهضت وقد بلغت ذروة الغضب :

ـ نللي ، بنيتي ماذا اصابك ؟

ولكن صرختي لم تزد النار سوى اشتعالا فذعرت نللي تقول :

ـ اجل . افضل ان اتسول في الشارع ، وخيـر لي ان اطلـب الصدقات . لن ابقى هنا . ساعيش كما كانت تعيش امي ، ساحيـا كمـا حيت . لقد ماتت وهي تقول لي : ظلي فقيرة ، ابقي معدمة ... خير لك ان تتسولي من ان ... ليس من العار ان اطلب الصدقات ... اريـد ان اتسول .. اريد .. انا شريرة اكثر من اي انسان انظروا ! انا شريـرة .. شريـرة .

وتناولت فنجانا ورمته الى الارض وهي تقول :

ـ ارأيتم ؟ ألم اقل لكم انني شريرة ؟ ها قد انكسر الفنجان .

فتطلع الي العجوز وقال :

ـ لا بد أنها مريضة او انها ... أنا لا افهم هذه البنية ابدا !

الى اللقاء .

وتناول قبعته وصافحني عن ظهر قلب كان مهدما ، محطما لقدجرحته

نللي جرحا بليغا ما بعد جرح ، لقد اهانته وذلته ، لم تحترمه ، لم تقدره .. فلما اصبحنا لوحدنا ، كان الحنق والغضب قد اشتد علي فقلت لها صارخا :

ـ لم تحترميه ، ولم تقدرينه ! لم تشفقي عليه ولم ترحميه ! لماذا ؟ الا تستحي من ذلك ؟ انك شريرة حقا ... شريرة .

قلت ذلك وهرعت في اثر العجوز محاولا ايصاله الى الباب الرئيسي ، ولما رآني قال لي وهو يبتسم :

ـ لا تحاول أن تؤاسيني وتخفف عني . اعرف شعورك نحوي . ارجع الى البيت وخير لك أن تحافظ عليها لئلا تهرب بين ساعة واخرى .

ثم تابع سيره وهو مطرق الرأس .

عندها عدت الى الغرفة . وما أن دخلت حتى تملكني الرعب وسيطر علي الجزع ، وخيم علي الفزع ، ذلك لانني وجدت الغرفة فارغة . لم اصدق انها هربت ثانية ولا اردت أن اصدق ! فهبطت اسأل عنها عند الجيران ، هذا .. وذاك . فلم اعثر عليها . فمضيت الى منزل ماسلوبويف وسألت عنها فاخبرتني الخادمة ان ماسلوبويف والكسندرا قد خرجا . ثم ذهبت الى بيت « تاتاشا » فاعلمتني انها لم تأت اليها فعدت ثانية الى منزل « ماسلوبويف » فعلمت انهما لم يرجعا بعد .

كان التعب قد اخذ مآخذه مني ، واشتدت وطأة الداء ، وهدني الاعياء ، فابتهلت الى السماء ان يحفظها من كل مكروه ويعيدها الي سالمة . واتخذت سبيلي الى بيتي لانني ايقنت ان بحثي عبث لا طائل تحته .

وتساءلت : اهو نتيجة لمرضها ؟ اهي مجنونة ؟ ما معنى هذا ؟ ما

معنى هذا ؟ اين هي الآن ؟ اين يمكن ان اجد ..؟ وقبل ان اكمل كلامي لمحتها من النافذة ، وهي قابعة على حافة الجسر ، ولم تلمحني هي . فانتظرت عشر دقائق لارى ماذا ستفعل هنا . وبعد قليل رايت رجلا حسن الهندام تقترب منه نللي وتمد يدها ضارعة ، ولاحظت الرجل يمد يده الى جيبه ويخرج شيئا ثم يقدمه لها ، فارتمت نللي على يده لتقبلها وتشكر له صنيعته .

يا له من عزيز على قلبي كنت احبه وادلله ،

يا له من علق مضنة كنت الاطفه واداعبه ، وهاءناذا اراه يتلوث شرفه ، ويتسخ في هذه اللحظة . وهطلت الدموع على وجهي ، وبكيت بكاء الاطفال . اجل . بكيت على صغيرتي ، التي اصبحت جزء لا يتجزأ من كياني ووجودي ؛ قسما لا يتقسم من وجداني وروحي ، ولكن في الوقت نفسه ؛ كنت حاقدا عليها ومستاء من تصرفها لانها لم تهرب من بيت اناس طغاة قساة ، بل من منزل اصدقاء احبوها ولاطفوها ، من بيت اهل لها دللوها وداعبوها . كان واضحا انها اهينت ، وجرحت ، ولم يمكن لجرحها ان يلتئم ، فحاولت ان تغطيه بتصرفاتها ونزواتها وهذا شان كثير من المذلين المهانين الذين اضطرهم القدر وظلمهم الدهر ، ووعوا الظلم الذي احاق بهم .

وتركت نللي الجسر ، واتجهت الى مكان ما واخذت تعد ما وصلت اليها يداها من صدقات الناس ، ثم قبضت يدها واتجهت الى دكان قريب ، ثم دلفت اليه . وخرجت بسرعة لاراقبها ، فوجدتها تمد يدها الى البائع وتعطيه مبلغ المال مقابل فنجان لفه لها البائع وغلفه بورقة ، ثم خرجت وقد

ارتسمت على وجهها اسارير الفرح وامارات الرضى والسرور . ولما وصلت الى المكان الذي اقف فيه صرخت قائلا :

– نللــــي !

فارتعدت نللي وارتعشت ، ونظرت الي وافلت الفنجان من يــدها فانكسر . كانت ترتجف بشدة ، وهي محتقنة اللــون لانها علمت انــني راقبتها . فامسكت بتلابيبها وقدتهــا الى البيت دون ان تبس بكلمــة واحدة اثناء السير . فلما وصلنا ، جلست على الاريكة وظلت نللي واقفة، واجمة مضطربة . فقلت لها بدوء :

– نللــي !

– نعم .

– هل كنت تتسولين ؟

– اجــل .

– لماذا ؟ هل لمتك على كسرك للفنجان ؟ هل اهنتك ؟ هل انبتك الا تشعرين بالعار ازاء هذا التصرف المخجــل ؟ الا ...

فدمدمت بصوت يكاد لا يسمع :

– بلى . اشعر بالعار !

– تشعرين بالعار ؟! بنيتي الغالية ! اذا كنت قد اذنبت في حقك او اسأت اليك فاصفحي عني ولنتصالح !

فنظرت الي نللي وهي تنفجر ببكاء وارتمت على صدري ... وفــي هذه اللحظة بالذات دخلت علينا الكسندرا كهبوب الريح وصرخت :

– هل عادت نللي ؟ نللي . نللي . حبيبتي اين كنت ؟ اين وجدتهـــا

يا فانيا ؟ على كل حال ها هي قد عادت

فغمزتها بطرف عيني ان لا تسأل شيئا بهذا الصدد ، ورجوتها ان تبقى بجانبها ريثما اعود ، لانني وعدت « ناتاشا » بالذهاب اليها . فحثت الخطى ...

كانت هذه الليلة حاسمة ، وفيها يتقرر كل شيء . وثمة اقوال كثيرة كان ينبغي على كل منا ان يقولها للاخر ، ورغم ذلك حدثتها عن نللي فتأثرت كثيرا وقالت :

ـ لا بد انها تحبك ؟

ـ ماذا ؟ تحبني ؟ وكيف ؟

ـ اجل انها تحبك وهو بداية حب أمرأة !

ـ أأنت تحلمين يا « ناتاشا » ؟ انها ما زالت طفلة .

ـ سيكون عمرها بعد قليل اربعة عشر عاما . لا بد أن هذا الغضب الشديد والحنق العتيد ناجم عن عدم فهمك لحبها . فهي انما تحاول ان تظهره لك ولكنك لم تعرها اهتمامك وكثيرا ما تحدثها عن وجل وما تركتها وحيدة واتيت الي ... وها انت الان قد جئت وتركتها منفردة ، في هذا الظرف العصيب ... سترجع اليها وتراها قد مرضت ... ما كان عليك ان تتركها ابدا ... ارجع اليها حالا .

ـ ولكنني ما كنت اتركهالولا ..

ـ اعرف ذلك . انا استدعيتك والان اذهب !

ولم اشأ ان ارفض بل عدت الى المنزل في ساعة متأخرة ، فاخبرتني

الكسندرا انها نامت وهي تبكي وظلت تبكي وترتعد الى ان نامت ... ثم طلبت مني العودة الى منزلها لان ماسلوبويف قد امرها بذلك . فشكرتها على حسن نيتها وعلى اخلاقها ونبلها ، وحمدت لها صنيعها . ثم جلست اسهر على نللي وبقيت امامها الى ساعة متأخرة من الليل غارقا في التأملات وسابحا في الخيالات ... يا لذلك العهد ما كان اشقاه .

الفصل الرابع

بعد تلك السهرة الخالدة مع الامير ، بقيت عدة ايام خائفا على « ناتاشا » . بم يهددها هذا الامير الخبيث ! وكيف سينتقم منها ؟ انه يصر اصرارا عنيدا على القطيعة بين اليوشا « وناتاشا » وهو يفعل كل ما في وسعه ليبقى اليوشا راضيا عنه ولكي يستطيع السيطرة عليه وعلى كاترين ويتصرف بهما حيثما شاء وكيفما اراد . كان يظهر له بمظهر الاب الرؤوف والوالد العطوف ، الذي يسعى لسعادة ولده وهنائه .

انما يفعل ذلك من اجل الوصول الى غاياته الدنيئة واهدافه السافلة .

ولقد لاحظت في المدة الاخيرة ان « ناتاشا » قد بدأت تنزعج مني فلا تهتم لي ولا تجيب على اسئلتي واصبحت تضيق ذرعا بها .

اصبحت كمن يرتاب بي ويحذر مني ، كانت تذرع امامي الغرفة جيئة وذهابا تفكر بامر وتتامل في قرار فلا يهدأ لها بال .

لقد تحولت عني على حين غرة وفي ظرف هي في حاجة الي اكثر من اي ظرف اخر . لقد اقتنعت انها ستقدم على القطيعة وعلي ان اتحمل هذه الصدمة العنيفة وان انتظر هذه الخاتمة ...

لم اعد اوجه اليها كلمة علـى سبيل المواساة ولكن كنت على يقين أنها ستعود الي اخيرا وتنشد ما في قلبي من عزاء وسلوى .

وعندما قابلتها اخفيت عنها حديثي مع الامير ، لانني لو فعلت ذلك لزدتها اضطرابا وانهيارا . غير اني قد رويت لها عـن لقائي مع كاترين فاستمعت الي بشفق والتهمت كلامي بشراهة . ولما انهيت من كلامي لم تضف شيئا بل لزمت الصمت .. ثم المحت لها اعجابي بكاترين وعـددت مزاياها وصفاتها واعترفت لها بصراحة ان هذه الفتاة قد خلقت في نفسي انا ايضا اروع صورة في الانسانية . ويقيني انها لا تزال تجهل ان اليوشا سيرافق الكونتيسة في سفرها ، ولكن ما كان اشد دهشتي حين علمت انها تعرف ذلك منذ بضعة ايام .

فهتفـت قائـلا :

ـ من اخبرك بذلك ؟

ـ اليـوشا بنفسه !

ـ اليوشا ؟ اليوشا هو الذي قال لك ذلك ؟

ـ اجل يا فانيا وانا مستعدة لكل .

قالت ذلك وقد ارتسمت علـى اسارير وجهها علامات الاضطـراب ونفاد الصبر وظهر انها تؤثر ان يقف الحديث هنا ...

ويوم ذكرت لي « ناتاشا » انها واقفة على امر سفره ، هرع الـي يائسا وعانقني ، ثم أرتمى على صدري واخذ يبكي وينتحب كالاطفـال وهو يقـول لي :

ـ انني احبها كثيرا ولم اقدر على تركها وفراقها ... ثم عاد يقول :

ــ انني فاسد ، انني سيء الخلق ! ان « ناتاشا » ستشقى بسببي ، ستعذب ، ستألم ... ارشدني ارجوك .. دلني على الصواب واين هو الباب ... ارجوك .

ثم هدئ روعه واستطرد يقول :

ــ على كل حال عزمت على أن اتزوجها . ربما ان هذا الشهر هو شهر الصوم الكبير ، وحرام علينا ان نتزوج «فسرجي» زواجنا الى ما بعد رجوعي من السفر وان لم يوافق عليه والدي ، ولا شك ان والدي سيوافق على ذلك . وظل اليوشا مقتنعا انه لن يفارقها ابدا وان الزواج سيتم بعد عودته . اما ناتاشا المسكينة فقد ادركت كل الادراك ، وعرفت كل المعرفة ان مصيرها سيتغير ، وان اليوشا لن يرجع اليها ابدا ...

وبدأ الزحف الحاسم ، وبدأت الخاتمة تتقدم ... وها هو يوم الفراق قد جاء ، ووقت الشقاق قد اتى ، كانت ناتاشا مريضة ، طريحة في الفراش ، مصفرة الوجه ، ملتهبة النظرة ، لا تبكي ولا تجيب ، ولا تسأل ؛ ولما سمعت صوت اليوشا يدوي ارتعشت واضطربت واحمر وجهها فاصبح بلون الارجوان ، ووثبت عليه تغرقه بالقبل ، فاخذ يعانقها عناقا قويا ويشدها الى صدره وهو يضحك ، ويواسيها بقوله : انه سيعود بسرعة وان الزواج سيتم بعد عودته . ثم ترك لها مالا يكفيها طوال مدة غيابه .

وقبل سفر اليوشا بيوم تم اللقاء الاول والاخير بين كاترين وناتاشا على اثر رسالة وجهتها كاترين لها مع اليوشا ترجوها فيها ان تسمح لها بزيارتها غدا . كما كتبت الي ترجو مني ان استر هذا اللقاء .

الا انني قد تأخرت عن الموعد المضروب لان ثمة عوائق تعترضني

وما اكثر هذه العوائق . فهناك نللي وهنالك العجوزان اللذان يسببان لي الهموم منذ مدة وجيزة ...

بدأت هذه الهموم حينما استدعتني « آندرنفيا » راجية مني ان ادع كل شيء واوافيها حالا لان ثمة امر خطير جدا لا يتحمل اي ابطاء ، مضيت اليها ، فوجدتها تذرع الغرفة ذهابا وايابا وهي مطرقة الرأس ، مضطربة الاعصاب ، يسيطر عليها القلق والخوف ، منتظرة عودة « اخمنيف » . فلامتني على غيابي لهذه المدة الطويلة وقالت لي ان هناك اشياء كثيرة تحدث في غيابي لا يعلم بها الا الله . واخبرتني ان اخمنيف في حالة يرثى لها من الحزن والاضطراب لا يمكن وصفها . وتابعت تقول :

ـ انك اذا رايته تكاد تنكره ولا تعرفه ، اذ انه ينهض من فراشه ليلا وهو في غمرة الحمى الشديدة فيركع امام صورة العذراء ويأخذ يصلي . لقد اصبح كالمجنون ، تسأله عن شيء فيجيبك عن آخر . وهو يخرج من البيت كل لحظة مدعيا انه يذهب الى محاميه لبعض الاعمال . وفي النهاية ، حبس نفسه داخل الغرفة متذرعا انه عليه أن يحرر ورقة ضرورية للدعوى . فراقبته من ثقب الباب فالفيته يكتب والدمع يترقرق في عينيه ويتدفق على وجنتيه تدفق الماء من الينبوع . ما عسى ان تكون هذه الورقة ؟ أهو يتحسر على ضياع ارضه اخمنيفكا ؟ اجل لان ارضنا قد ضاعت يا عزيزي فانيا .

وبينما انا افكر في ذلك نهض فجأة ورمى بالقلم وقد احمر وجهه وتطاير الشرر من عينيه وتناول قبعته وجاء الي يقول :

« سأخرج ثم اعود بعد قليل » وخرج .

فمضيت مسرعة الى مكتبه اذ ان هناك اكداس من الاوراق تتصل بالدعوى لا يسمح لي بلمسها • وكم من مرة طلبت منه ان أرتبها له وانظفها من الغبار ، ولكنه كان يصرخ ويهز يديه • اقتربت من المكتب وبحثت عن الورقة التي كان يكتبها ، كنت اعلم انه لم يأخذها معه وانها لا تزال هنا بين اكداس الورق • ووجدتها اخيرا واليك ما كتب فيها يا صديقي :

كانت ورقة يكتب عليها الرسائل ، وكانت الكتابة تملأ نصف الصفحة على وجه التقريب ولكنها كانت من الامتلاء بحيث لا يمكن لنا ان نقرأها بوضوح تام •

مسكين هذا العجوز ! ان الانسان يعرف منذ قراءة الاسطر الاولى الموضوع الذي تدور حوله الكتابة ، والشخص الذي ستوجه اليه هذه الرسالة :

انها رسالة الى « ناتاشا » ، اجل • الى حبيبته « ناتاشا » • انه يبدأ رسالته اليها بلهجة رقيقة ناعمة حارة ، يغفر لها ويغفر عنها ويصفح لها ذنبها ويدعوها الى ان تعود اليه ••• ولكن هذه المحبة لم تلبث ان تبدل فجأة ، اذا بالعجوز يقرع ابنته تقريعا عنيفا ، ويتهمها بالقساوة والضراوة ويلعنها الى أبد الابدين جزاء كبريائها وصلفها ••• ثم يختم رسالته بقوله : ان عليها ان تعود الى البيت خاضعة طائعة ، وتعيش بين الاسرة وفي احضانها حياة سعيدة هانئة •

كانت « اندرنفيا » تقرأ لي الرسالة وهي امامي ، وقد كتفت ذراعيها بانتظار ما سأقوله بشأن الرسالة ، فقلت :

ـ لا بد أن العجوز لم يعد يستطع ان يعيش بدون « ناتاشا » ولا شك ان الصلح اصبح قريبا ولا ريب فيه . والعجوز انما يغضب لانه خسر القضية وخسر ابنته على السواء . وذكرت لها ان « ناتاشا » تنتظرني وهي في حاجة الي ويجب ان امضي اليها فورا . وقبل ان اخرج حدثتها عن المسكينة نللي فلامتني لانني لم احدثها عنها من قبل ووعدتني بأن تلح على زوجها كي يحضرها لها . حتى انها اخذت تسألني السؤال تلو الاخر عن نللي وكثيرا ما حملتني بالهدايا والسكاكر لها .

ولما وصلت الى مدخل العمارة حيث تسكن « ناتاشا » سمعت وقع خطوات على السلم ، فاذا بي المح العجوز اخمنيف واقفا على العتبة . فدهشت كثيرا وجزعت لانني لم أحسب لذلك حسابا . فلما رآني اخمنيف احمر وجهه وبادرني يقول :

ـ فانيا ؟... ماذا ؟ ماذا تف ... لقد جئت لاقابل كاتبا من كتاب العرائض من اجل القضية ، وقيل لي انه يسكن هنا من مدة قريبة ... ولكن اظن انني قد اخطأت .. الى اللقاء !

قال ذلك وقد اصطبغ وجهه بحمرة قانية وبد عليه الاضطراب والحيرة ثم هبط مسرعا يسابق الريح .

ولما قابلت ناتاشا لم اذكر لها انني قابلت والدها بل اكتفيت في التحدث عن الامور المهمة . ولما غادرت « ناتاشا » كانت رغبتي في مقابلة العجوز قد وصلت الى الذروة ولكنني لم افعل ذلك ظنا مني بانه سيشك في لقائنا وسيخال انني قد لحقت به اثر مقابلتنا في البيت .

وفي اليوم التالي مضيت اليه فرأيته حزينا مطرق الرأس مستغرقا في

افكاره • فسألني :

ـ اين كنت ذاهبا البارحة ؟

ـ الى صديق عزيزي يقطن في ذلك البيت !

ـ اما انا « يا فانيا » فقد كنت ذاهبا الى احد الكتاب لاستشارتـه بأمر القضيــة •

واحمر وجهه وهو يتحدث عن القضية هذه ، ثم اخبرني انه قد التقى موظفا يعمل عند الامير واخبره انه أي الامير سيرد لاخمنيف مبلغ عشرة آلاف روبــل وذلك لاسباب عائلية رغم ا ن اخمنيف خسر الشكوى •

وطار جنون اخمنيف والتمعت عيناه شررا وهو يروي لي الحديـث وفجأة نهض وقد استبد به الغضب وناشدني ان اذهب الى الامير حــالا وأن ادعوه لمبارزته • فذعرت كثيرا ، وبلغت مني الانشداه بحيث انني لم استطع ان اجمع شتات فكري وأن أرد صوابه وارجعه الى رشده ، ولم يجد الاهتياج فاسرعت الى المطبخ لاحضر له كوبا من الماء ، غير انـنـي لم أجده عندما رجعت ••••

وفي اليوم التالي علمت أنه قد زار الامير حوالي الثلاث مرات ولم يحظ بمقابلته ، فترك له بطاقة وذكر له فيها ان الموظف قد ابلغه عرضه ، واتهمه بالجبن والرياء وقال له انه يعد هذا الكلام اهانة قاتلة ، ودعــاه الى المبارزة ونصحه بالا يرفض هــذه الدعوة ، واذا رفض فان شرفـه سيتلطخ امام الناس • الا أن الامير عندما استلم البطاقة ، ارسل رسالـة

الى اخمنيف يهدده فيها بتسليمها الى الشرطة بتهمة التهديد والوعيد .

وعاد اخمنيف الى بيته وهو مرتاعا ، فارتمى على سريره كالمجنـــون وهو يلعن ناتاشا وينزع عنها بركته الابوية ومع الضحى جاء الي اخمنيف ليطلب نللي ...

الفصل الخامس

سبق وقلت انني قد تدبرت امر لقاء ناتاشا وكاترين . كان ذلك نهار الجمعة عندما وصل اليوشا ليخبر « ناتاشا » ان كاترين قادمة . وفعلا بعد مرور وقت قصير وصلت كاترين مع المربية الفرنسية على ظهر عربة . وعندما علمت بوصولها هبت « ناتاشا » واقفة للقاء الضيوف وقد ارتدت ثوبا ابيضا ، وصقلت شعرها الكستنائي ، وتعطرت وتبودرت . وبينما هي تصعد السلم قالت كاترين :

ـ اعتذر لانني لم استطع ان ازورك قبل هذه المدة . واعلمي ان النصف ساعة هذه قد ظللت اداور المربية الفرنسية مدة خمسة عشر يوما كي توافق على مرافقتي . كانوا يتجسسون علي ويراقبونني ، ما بيدي حيلة ابدا ...

ودخلت كاترين الى الغرفة وهي خجلى ، كأنها مجرمة ، والقت نظرة ناقدة على « ناتاشا » فابتسمت لها ، وتقدمت منها بحرارة ثم صافحتها وامسكت بيدها ثم اطبقت شفتيها السفرتين على شفتي كاترين . وتطلعت الى اليوشا ورجته ان يتركها على انفراد لان ثمة امورا تختص بهما فقط ولكنها طلبت مني أن ابقى معهما .

وقالت لناتاشا بعدما خرج اليوشا :

- سبق أن رأيت صورتك ... اراتيها اليوشا .

- هل اشبه الصورة ؟

- بل اجمل منها بكثير .

- وانت ايضا جميلة يا كاترين .

ثم اردفت كاترين تقول :

- « اليد قصيرة والعين بصيرة » وليس امامنا الا نصف ساعة نقضيها معا وهناك اشياء يجب ان نتكلم بها حالا . سأسألك بكل بساطة :

- هل تحبين اليوشا ؟

- اجل . كثيرا .

- اذا كان الامر كذلك فلا بد لك من أن تريدي له السعادة ...

- نعم . انني اتمنى له السعادة الدائمة .

- وانت هل تحبينه ؟

- اجل .

ثم تابعت كاترين تقول :

- اريد ان اسألك : لماذا تحبينه ؟

- لا ادري ...

- هل ترينه ذكيا .

- لا ابدا ... انني احبه هكذا فقط ، احبه وكفى ...

ـ وانا ايضا يا « ناتاشا » اشفق عليه .

ـ وانا كذلك .

وهتفت كاترين قائلة :

ـ ولكن لماذا تركك ؟ أمن اجلي ؟

ـ اجل .

ـ لا شك انه سيكون زوجي قريبا ، فنحن سائران في هذا السبيل والجميع يتكلمون عنه ، وسوف تعودين الى بيت اهلك يا « ناتاشا » اليس كذلك ؟

فاجابتها « ناتاشا »

ـ اتمنى لك السعادة .

ـ وانا ايضا . على كل حال انني احبك كثيرا وسأظل احبك الى الابد ... سنتراسل ... سنكتب ... انت لي بمثابة الاخت انني احبك كثيرا .

ثم ارتمت عليها وجعلت تقبلها ، ولفت ناتاشا بذراعيها وتشبثت احداهما بالاخرى واخذت الاثنتان تبكيان ... وفي هذه اللحظة المؤثرة ، والمشهد الانساني الرائع ، دخل اليوشا ، ولم يستطع ان يقاوم عواطفه فخر راكعا امامهما مهدود القوى ويبكي . فقالت له ناتاشا :

ـ لماذا تبكي ؟ الانك ستفارقني ؟ الانك ستبعدني ؟ لا . لا . لا تحزن ففراقنا لن يطول وحبنا لن يزول ، ستعود ، اجل ستعود .

– لا يا « ناتاشا » لا . لا استطيع أن افارقك ولو لحظة واحدة .. لا اريد ان ابتعد عنك ولا يوما واحدا ... بدونك اموت .. أنـت لا تعرفي مقدار حبي لك يا ناتاشا .

فهتفت كاترين تقول :

– اسمع يا اليوشا . اذا كنت حقا تحبها فانصت الى ما سأقوله :

لا بد ان الكونتيسة ستتوقف في موسكو .

– اجل . ثمانية ايام .

– حسنا . فترافقها انت يوما واحدا وتعود الى ناتاشا وتقضي معها الباقـي .

– يا لعظمة تلك الفكرة ، يا لروعة تلك النظرة انه لاقتراح لا مثيـلـه .

لا استطيع ان اصف هذه الحماسة التي تأججت في اليوشا والهبت نفسه ، لا اقدر على وصف هذه العواطف الجياشة التي اشعلت قلبه ، والمرح الذي ارتسم على وجهه . وقبل يد ناتاشا ثم يد كاترين وتقـدم مني وقبلني .

وفجأة دخل الخادم ليعلن عن لسان المربية ان موعد اللقاء قد انتهى وينبغي الذهاب . فتقدمت كاترين من ناتاشا التي نهضت بدورها وجعلتا تنظران في بعضهما كأنهما تريدان ان تتناقلا بالنظرات كل ما تجمع فـي القلب وان تعبرا بالعبرات كل ما حوته النفس .

وقالت كاتريـن بحركة :

ـ الى اللقاء ... لـن نلتقـي بعد ابدا يا ناتاشا .

ـ اجل . لن نلتقي ابدا .

ـ وداعا ... وداعـا .

وتعانقتا عناق الاحباب وقبلت كل منها الاخرى وقالت كاتريـن بصـوت منخفض :

ـ لا تلعنيني يا « ناتاشا » ارجوك . وخـذي العهد الاكيد علـي عمـري ان سيكون سعيـدا ..

ثم امسكت بذراع اليوشا ومضيت وأياه الى حيث ما ارادا .....

وطلبت مني « ناتاشا » بعد خروجها ان اذهب لانها متعبة محطمة ، ورجتني ان اعود اليها في الساعة التاسعة .

وفي الموعد المضروب وصلت الى ناتاشا (بعد حادثة كسر الفنجان في منزلي) فاستقبلتني بالابتسامة المشرقة واجلستني قربها وهي تحدق الـى وتقـول :

ـ لقد انتهى حبنا الى الابد ...

ثـم تابعت :

ـ انتهى كل شيء وكأن شيئا لم يكن في ستة اشهر والى الابد ...

هدىء روعك يا « ناتاشا » وعليك ان تنامي ، انك متعبة ومحطمة.. ان بك حمى ـ داوي نفسك .. ولكنها لم تكترث للكلام بل تابعت :

هل تعلـم انني ادركت الآن ان حبي له لم يكـن حب الند للند كما تحب امرأة رجلا في العادة . لقد احببته تقريبا ... كما تحب الام ابنها .. ربما كما تحب الاخت اخاها ... كنت احبه حب اشفاق عليه لا اكثر ولا اقل ...

قالوا : انه لا ارادة له ... وهذا ما قلته انت ايضا ... قالوا : ان عقله ليس انمى من عقل الاطفال ... اجل . وهذا بعينه ما كنت احبـه فيه ، هل تصدق ذلك ؟ ولكن لا اعرف ان كنت احب فيه هذا وحده ... وبقينا على هذه الحال طوال السهرة ، تارة تحدثني عن صفاته الحسنة واخرى عن مزاياه السيئة ، وكانت تتأوه وتتحسر على الذكريات الماضية ، لقد استعرضت امامي جميع الذكريات وحدثتني عنها بالتفصيل ، ثـم شرعت بالحديث عن كاترين وعن شخصيتها الفذة وارادتها القوية ، واذا بها لا تستطيع مقاومة عواطفها ، فاخذت الدموع تنهمر من عينيها ، ثـم افلت النحيب يخرج من اعماق قلبها على حين غرة ، فلبثت حوالي النصف ساعة على هذه الحال لا تستطيع ان تثوب الى رشدها ولا ان تهـديء روعهـا ...

يا لها مـن ملاك ... لقد شاركتني همومي والآلامي ، وعاشـت احزاني واوجاعي في تلك السهرة فحدثتها عن نللي فبكت ... وعندمـا هدأت اسلمت للنوم فتركتها في ساعة متأخرة من الليل ... وفي الساعة التاسعة تماما من صباح الغد وصلت الى ناتاشا . وكان اليوشا قد وصل اليها ايضا ليودعها . لن اتحدث عن هذا المشهد المؤثر ، لا اريد أن اتذكر هذه المسرحية المضنية . لا ريب في ان ناتاشا قد آلت ان تسيطر عـلى

مشاعرها وعواطفها ، وأن تبدو مرحة فرحة لا تبالي . ولكنها لم تقو على ذلك . وعانقت اليوشا عناقا قويا ، ولم تكلمه الا قليلا ، غير انها تأملته بالحاح ونظرت اليه نظرت تائهة معذبة . كانت تلتهم بشراهة كل كلمة ينطق بها ، وكان يظهر انها لا تفهم شيئا مما يقوله . لقد سألها الغفران ، طلب منها أن تغفر له هذا الحب ، أن تغفر له ما سببه هذا الحب من آلام أن تغفر له جناياته ، ان تغفر له سفره وحبه لكاترين . كان يسوق كلامه مفككا متقطعا تخنقه الدموع وتحبسه العبرات . وفجأت اخذ يواسيها ويفرج كربها فيقول لها انه لا يتركها الا شهرا واحدا في اكثر تقدير ، وانه سيعود عما قريب وانهما سيتزوجان ، وان اباه سيوافق حتما على هذا الزواج ، وانه سيعود من موسكو غدا ويقضي معها اربعة ايام .

ودقت الساعة الحادية عشرة ، ودق معها قلب « ناتاشا » ، وخفق فؤادها ايذانا ببدء المأساة ، فنظرت الي ناتاشا نظرة مؤلمة ورسمت شارة الصليب على صدرها وقبلته ثم غطت وجهها بيدها واسرعت تعود الى غرفتها ... وصعدت الى « ناتاشا » مهدم القلب ، محطم الكيان ، مزلزل الاركان ، فرايتها مكتفة اليدين في وسط الغرفة ، تطلعت الي كأنها لا تعرفني . كانت تائهة النظر ، عمياء البصر ، متهدلة الشعر طائشة العقل ، ملتاعة مذعورة ، وفجأة التمعت عيناها وصرخت تقول :

ـ ها كانت .. لم يبق لي سواك . كنت تكرهه ! كنت تكرهه ! أجل . وها أنت تريد ان تواسيني وتحضني على العودة الى والدي الذي لعنني وهجرني .. لا اريد .. انا ايضا العنه .. اذهب عني .. أغرب عن وجهي لا اريد ان اراك ابدا ..

كانت رؤيتي قد ايقظت في نفسها حنقا مجنونا وغضبا مسموما . فرأيت انه من الصواب ان ابتعد . فخرجت وجلست على اول السلم . كان قلبي ينهار ويطحنه عذاب أليم لا نهاية له ، وقضيت على هذه الحال حوالي النصف ساعة فتح على اثرها الباب فجأة وخرجت ناتاشا مرتدية اجمل الثياب واروع الاثواب معتمرة قبعة وتسير بخطى سريعة على السلم.

حاولت ان اختبىء ولكنها لمحتني فجأة وانتصبت امامي بلا حراك كأن صاعقة ألمت بها .

ـ لقد تذكرت فجأة انني طردتك ؛ انت يا من غمرني بفضله ، يا من كنت صديقي واخي .. منقذي ومخلصي ... ما كان افدح جنوني واشد قسوتي ... فعندما لمحتك جريح الكبرياء تنظر على السلم اناديك ... يا الهي يا رب ... ليتك تحس بما احسست عندئذ ... لقد شعرت بقلبي يطعن ونفسي تطحن... وتقدمت مني والقت بنفسها على ذراعي فامسكت بها وحملتها الى غرفتها . كانت فاقدة الوعي مغشيا عليها . فاتضيت ان نوبة شديدة من الحمى ستنتابها .

فهرعت مسرعا انشد الطبيب العجوز ولحسن حظي وكبير جدي (خطير) التقيت به خارجا من بيته . فاركبته العربة بلمحة البصر وطرفة العين ومضيت به الى ناتاشا .

لقد رأف بي الله واشفق علي ، لانه وقع حادث قبل وصول الطبيب كاد يؤدي بحياتها لولا وصولنا في الوقت المناسب ان الامير قد جاء اليها بعدما ودع المسافرين ، جاء مستكشفا ومستعلما يريد أن يعرف وضعها ويجس نبضها ، وقدم لها عشرة الاف روبل كتعويض لوالدها

لانه خسر القضية • وهو انما اعتمد على هذا المال لعلمه بانها اصبحت وحيدة بلا مورد ••• وعرض عليها فكرة التعارف مع قريبه الكونت وهو رجل شهواني وقد خدمه الامير خدمات كثيرة في امور من هذا النوع ••• وجعل الامير الماكر الحقير ، يحثها على أن تتخذه كصديق مخلص وتترك اهلها وهو يقـول :

ـ ما الذي تنوين فعله ؟ هل ستصالحين مع اهلك ؟ الا تعرفي أن اباك ظالم متكبر ! قاسي مستبد !؟ كوني وثيقة بانك لن تجدي في بيـت ابيـك الا اللوم والتقريع •• فنهضت « ناتاشا » مذعورة ، كما لسعتها افعى واشارت الى الباب وهي تقول له :

ـ اذهب عني ! اخرج من هنا ! اغرب عني وجهي ! يا لك من حقير فاسد ، يا لك ماكر محتال ! اخرج ! اخرج •••

فقال لها بصوت ترتجف :

ـ لا يحسن لك أن تغضبي يا طفلتي ! لا يحس ابدا • عليـك ان تشكريني لانني اقدم لك الحماية والخدمة !•••

كنا قد سمعنا قهقهته ونحن بصعد السلم ، ولكننا ما ان اصبحنـا قرب الباب حتى سمعت الجملة الاخيرة التي قالها ، وسمعت ضحكـة تسبقه تدوي في ارجاء الغرفة ، وسمعت ناتاشا في الوقت ذاته تصرخ يائسة « يا رب ! » « يا رب ! » •

ففتحت الباب فجأة ، وهجمت على الامير ، وبصقت في وجهـه واخذت اصفعه بكل ما اوتيت من قوة وبأس ، وحاول أن يهجم علي ولكنه خشي ذلك لاننا كنا اثنين ، ففر هاربا يسابق الريح ولحقت به وانا احمل

عصا ... ولما عدت الى الغرفة استولت علي فكرة ، فسألت الطبيب ان يمكث بعض الوقت مع « ناتاشا » لانني سأذهب الى نللي .

ولما وصلت اليها ، استقبلتني بوجه عنيد قاسي ونظرت الي نظرة عابسة غريبة فتقدمت منها قائلا :

ـ نللي أرجوك أن تنقذينا ! نللي ملاكي ! املنا الوحيد كله فيك . هناك اب لعن ابنته وهو يريد أن يضمك اليه بدلا من ابنته ، تلك هي« ناتاشا » التي قلت انك تحبيها . لقدهجرها حبيبها الذي الما من اجله تركت اباها انه ابن ذلك الامير الذي جاء اليك منذ مدة وهربت منه ! اتذكري ذلك ؟ انه رجل خبيث لئيم ، جاء اليها بعد ان ودع ابنته وهددها بزجها في السجن واخذ يقرعها ويهينها ويذلها ويهزيء بها ، هل تفهمينني يا نللي ؟

ـ أجل .

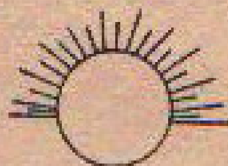
ـ يا لها من مسكينة « ناتاشا » ، انها مريضة الآن ، كئيبة وحيدة ، تركتها مع الطبيب واسرعت اليك . ارجوك يا نللي قمي لنذهب الى « اخمنيف » انه مريض الآن لانه لعن « ناتاشا » سأخبره بانك قبلت ان تجيئي اليه وتكوني بمثابة ابنته ، ستقصين عليه قصتك من البداية الى النهاية ...

نللي تعالي معي ... انقذي ناتاشا . هل تريدين ؟

ـ اجل .

وتنفست بكثير من العناء ، والقت علي نظرة خرساء وكان في نظرتها شيء يشبه الاستياء ، فاحسست بهذا في اعماق نفسي ، ولكنني لا اقدر على ترك مشروعي هذا لانني اؤمن به ايمانا قويا . امسكت بيدها وخرجنا ، وكانت الساعة قد قاربت الثانية بعد الظهر .

ركبنا العربة وظلت تللي ملتزمة الصمت طوال الطريق وبين حين وآخر ، كانت تستطلعني بنظرة غريبة كأنها لغز ...



الفصل السادس

بدا لي الطريق طويلا لا نهاية له . ووصلنا اخيرا ، ودخلنا على العجوزين وانا خائر القوى ، متعب . كانت الساعة قد جاوزت الرابعة والعجوزان يقبعان وحدهما على عادتهما . كان العجوز اخمنيف مستلقي على الاريكة شاحب اللون ، ممتقع الوجه خائر القلب . اما « آندرتفيا » فقد كانت جالسة بالصدر وتنظر اليه متسائلة حزينة .

فلما رأتني آندريغنا داخل مع نللي فجأة اندهشت وهبت واقفة مذعورة . فقلت لها :

ــ هاءنذا قد جئتكما بنللي . فقد فكرت بالامر مليا وجاءت من تلقاء نفسها ، نظر الي العجوز نظرة شك وارتياب ، ويقيني أنه على علم بكل ما حصل ، ويقيني أنه يعرف أن اليوشا قد ترك « ناتاشا » وهي الآن وحيدة منفردة . كانت نللي ترتعش وترتجف وهي ممسكة بيدي ، مطرقة الرأس ، وكانت بين الحين والحين تختلس النظر الى ما حولها وهي خائفة جزعة كأنها حيوان وقع في الفخ الا أن « آ ندريغنا » النبيلة أسرعت اليها وهي تبتسم وامسكت بيدها وضمتها الى صدرها واغرقتها بالقبل ثم اجلستها بجانبها وهي تقول :

ـ ما اسمك يا حلوتي ؟

ـ نللـي .

ـ انك وحيدة لا اب لك ولا ام اليس كذلك ؟

ـ اجـل .

ـ قيل لي أن والدتك قد ماتت منذ مدة طويلة .

ـ لا . لا . منـذ مدة غير طويلـة .

هكذا دمدمت نللي في اضطراب ووجل .

ثم اردفت تروي قصتها مع والدتها من البداية الى النهاية وكيـف هربت أمها مع رجل تركها في الخـارج ... وكيف عادت الى هنا ولـم يستقبلها والدها العجوز سميث ولم يغفر لها ..

وكيف أن الوالدة حاولت الكثير من اجل ان يغفر لها ... ولكنـه عبث لا طائل تحته ...

ثم قالت :

ـ فاضطررنا الى السكـن عند « بونيوفنا » فستأجرنا القبو ...

« فصرخت آندرتفيا » :

ـ القبـو ! القبـو !

ـ اجل . كانت والدتي مريضة وازدادت صحتها سوءا واصبحـت لا تنهض من فراشها الا نادرا ... ولم يبق لدينا نقودا فخرجت الـى الشوارع استجدي المارة واتسول الى الناس ، وقد علمت امي بذلـك

لان السكان عيروها بانها شحاذة . وجاءت اليها « بونيوفنا » وطلبت من والدتي ان ترسلني اليها بدلا من ان اتسول . ولكن والدتي رفضت ذلك وأبت أن تأخذ المال الذي حاولت بونيوفنا أن تعطيها اياه . عند ذلك غضبت « بونيوفنا » واستغربت هذا الكبرياء . وفي اليوم التالي ارسلت الى والدتي بعض الطعام واعادت الكرة في مطالبتها لي . ولكن في هذه المرة أخذت والدتي تبكي خوفا علي فاخذت بونيوفنا تكيل لها الشتائم واللعنات . فخرجت والدتي وامسكت بيدي وسارت في الى دنيا الله الواسعة .. كانت لا تقوى على السير وفي كل لحظة تجلس على حافة وكنت اسندها . وطلبت الي ان امضي بها الى جدي . وما ان وصلنا الى شارع كبير حتى توقفت وبادرتني بقولها :

نللي ، ابقي فقيرة ، مدى الحياة ، لا تذهب اليهم ، الى اي شخص ، كائنا من كان الشخص الذي يدعوك ويبحث عنك .

انهم شريرون قساة ، انهم ظالمون طغاة . اسمعي واليك ما آمرك به : ظلي فقيرة ، اعملي ، اطلبي الصدقة ، تسولي ، واذا اراد احد ان يدعوك اليه أرفضي .. لا أريدك أن تذهبي اليه ...

ثم اضافت نللي وهي ترتعش من فرط الانفعال :

ـ هذا ما قالته لي والدتي ـ وسأسير على نهجه واتبع خطاه ، واريد ان اطيعها مدى الحياة . سأظل اخدم واعمل طوال حياتي ، انما جئت اليكما لاعمل واخدم ولاصبح ابنتكما ..

فصرخت آندرنفيا :

ـ كفى يا تللي • كفر • لقد كانت والدتك مريضة حين قالت ذلك ، واتبعها العجوز بلهجة خشنة :

ـ كانت مجنونة •

فأجابت تللي :

ـ يمكن ان تكون مجنونة ولكن علي ان اطيعها وافعل ما امرتني به ما حييت ••

وصاحت آندرتيا :

ـ الم يغفر لها والدها ؟

ـ لا • ولكن والدتي نادتني قبل اسبوع من وفاتها وطلبت الي أن أذهب مرة اخيرة الى جدي واسأله أن يجيء اليها ويغفر لها لانها على حافة الموت ••• لانها ستتركني وحيدة ••• فمضيت اليه مسرعة وعندما فتح الباب ورآني حاول ان يغلقه الا انني تشبثت به بكلتا يدي وصحت : « أمي تموت ••• تحتضر •• ارسلتني اليك تعال •• تعال » • الا انه دفعني وأغلق الباب في وجهي • وعدت الى امي خائبة حزينة ولم تسألني على شيء فاحطها بذراعي واحاطتني بذراعها دون ان تنبس بكلمة •• وفي اليوم الاخير ، قبل ان تموت ، نادتني وامسكت بيدي ، وقالت لي •••• « سأموت الليلة يا تللي ! سأموت ! » وحاولت ان تقول شيئا اخرا على ما يبدو الا انها لم تستطع ولكنها ظلت ممسكة بيده وهي تشد عليها • فسللت يدي برفق واطلقت ساقاي للريح متجهة نحو جدي • وظللت امشي واركض طوال الطريق الى أن وصلت اليه • وحينما رآني علت وجهه

صفرة مرعبة واخذ يرتعش مذعورا . تناولت يده وقلت له كلمة لا غير « تموت » . فركض ورائي مسرعا واخذ عصاه وترك قبعته ، وحاولنا ان نستأجر عربة الا انه كان لا يملك سوى سبعة « كوبيكات » ... فاضطررنا الى مواصلة الركض وكان جدي كثيرا ما يتعثر ويقع على الارض او ينبطح على الرصيف ووصلنا اخيرا قبيل الليل وهو يلهث لهاثا شديدا .. ولكن ... ثم انفجرت نللي باكية . وعادت تقول وهي تجفف دمعها :

ـ ولكن والدتي كانت قد ماتت ... ماتت ... فلما رآها جدي جثة هامدة ضرب كفا بكف وارتعد وارتعش وظل واقفا بجانبها لا ينطق بشيء . فاقتربت منه وامسكت بيده وانا اقول له : انظر ايها الشرير ! ايها الانسان القاسي ! يا من تخلت عنه عاطفة الابوة ! انظر الى ما اقترفته يداك الاثيمتين ! انظر ... فاخذ يصرخ باعلى صوته وسقط على الارض كالميت ...

روت نللي قصتها ووقفت بيننا خائرة القوى شاحبة الوجه . ولكن آندرنفيا هرعت اليها وضمتها وهي تقول :

ـ سأكون امك من الآن فصاعدا ! ستكونين ابنتي يا نللي .. اجل . فلنذهب وندعهم ! لنتركهم ... هؤلاء القساة هؤلاء الطغاة ! فليعبثوا كيفما شاؤوا بالناس احسابهم عند الله ... تعالي ... فلنترك هذا المكان .

فنهض العجوز عن مقعده وسألها بصوت متقطع :

ـ الى اين ستذهبين ؟

ـ سأذهب اليها .. الى ابنتي .. ناتاشا .

قالت ذلك وهي تجر نللي نحو الباب .

ــ قفي ... انتظري .

ــ لا فائدة من الانتظار ، يا من قلبه من حجر ، يا من فؤاده من صخر ! لقد انتظرت طويلا ..طويلا ...

ثم اتجهت نحو الباب ولكنها شدهت حينما رأت زوجها العجوز قد وضع قبعته على رأسه وتسربل بمعطفه وهو يرتجف .

فصرخت العجوز :

ــ وانت ... وانت ايضا ... تأ .. تأتي معي ؟..

ــ بنيتي ! ناتاشا ! اين هي ! اعيدوها الي ! اين هي ابنتي ! أين هي !

بهذا هتف العجوز الخنيف وهو يتناول عصاه ويسرع الى الباب .

فصرخت آندرنفيا :

ــ لقد غفر لها ! لقد عفا عنها وصفح !..

ولكن العجوز لم يصل الى العتبة لان الباب قد فتح ودخلت ناتاشا .. وهي شاحبة اللون متقدة العينين ، محمرة الخدين كأنها مصابة في حمى ... فلما دخلت اقتربت نحو والدها وركعت امامه ممدودة الذراعين اليه ..

الفصل السابع

ولكن اخنيف تلقاها بيديه ، وامسك بها وانهضها كطفل وحملها الى الاريكة وهوى امامها وهو يقبل يديها ورجليها ويسرع فيقبل وجهها ويلتهمها التهاما كأنه في حلم ... وعانقت آلدرتفيا ابنتها وهي تبكي وحضنت رأسها في صدرها وخارت قواها ، فبدت كمن يوشك ان يغمى عليه في هذا العناق ....

ـ بنيتي ! حياتي ! فرحتي !....

بهذا هتف العجوز بصوت متقطع وهو يمسك بيد تاتاشا ، ويتأمل في وجهها الشاحب ، النحيل ، الجميل الساحر ، كعاشق ابتعد عن حبيبته ، ويتأمل عينيها اللتين تلتمع فيهما الدموع . وكان يردد : يا فرحتي يافرحتي، اليوم تمت نعمتي في وجود ابنتي !

ثم قال وهو يلتفت الينا :

ـ من قال لي انها نحلت ؟ انظروا اليها ! هل ترون ما اجملها ؟! انها اجمل مما كانت ! أجل ...

صاحت ناتاشا :

ــ انهض يا أبت ! انهض ! فانا ايضا اريد ان اقبلك !

ــ يا حبيبتي « يا ناتاشا » ! هل سمعتم ما الطفها ? ثم لفها بذراعيه وهو يقــول :

ــ لا يا ناتاشا ! يجب ان ابقى عند قدميك حتى احس بانني قــد غفرت لك . انني لا أستاهل مغفرتك لانني طردتك ولعنتك ... لعنتك ما استطعت ، وشتمتك ما قدرت ! ولكن احبك « ياناتاشا » ، كنت احبك وساظل احبــك !

ــ اذن قبلني في وجهي وشفتي وجبهتي كما تفعل امي .

بهذا صرخت « ناتاشا » بصوت ضعيف تحجبه دموع الفرح .

ــ وفي عينيك ايضا ... ثم اردف يقول :

ــ هل كنت تتذكرينا ? اما انا فقد كنت احلم بك كل ليلة تقريبا . وكثيرا ما ذهبت الى بيتك سرا .. حتى أن والدتك لم تعلم بذلك . كنت اقف عند الباب لاسمع صوتك وضحكتك ! كنت اقف بعيدا وانتظر لعلك تخرجين واراك من بعيد !

كنت ابقى تحت النوافذ ! كنــت اذا ما شاهدت الشمعة مشتعلــة مضيت لارى خيالك لاباركه ! وانت يا ناتاشا هل باركتني ? هل فكرت في ?

ثم تابـع يقــول :

ـ كنت ابقى وراء الباب في الظلام ، واصعد السلم بشقاء ، وفي ذات مساء ذهبت اليك واردت ان اغفر لك ولم انكص على عقبي الا عند الباب ... آه .. هل يمكن ان العنك وانا على هذه الحال ؟ كيف ؟...

ثم نهض عن مقعده وقال :

ـ احمد الله على انك هنا من جديد . احمدك اللهم على غضبك ورأفتك ! احمدك اللهم على الشمس التي تضيئنا الان جميعا بعد العاصفة! اللهم انهم اذلونا واهانونا ولكن هانحن قد التقينا ! الا فليظفر الآن اولئك القساة المتغطرسون الذين اهانونا وحقرونا ! الا فليرجمونا بالاحجار ! لا تخافي يا « ناتاشا » سامضي اليهم جميعا ممسكا بيدك ، وساقول لهم : « هذه هي بنيتي البريئة ، التي اهنتموها واذللتموها ... ولكنني احبها واباركها الى الازل . »

ثم التفت العجوز حوله وقال :

ـ نللي ! اين نللي ؟

وصاح « آندرتفيا » :

ـ اجل . اين نللي ! لقد تركناها هذه الصغيرة !

كانت نللي قد تسللت خلسة الى حجرة النوم . فذهبنا اليها جميعا فشاهدناها مختفية على خوف في ركن وراء الباب .
صاح العجوز :

ـ ما بك يا بنيتي ؟

وحاول ان يتناولها بذراعيه ولكنها القت عليه نظرة غريبة وقالت

بوجـــل :

ـ امي ! اين هي ! اريد امي ؟

ثم صرخت وهي ترتجف :

ـ ايـن امي !

واذا بصرخة فظيعة تخرج من صدرها ، ويتشنج وجهها وتسقط على الارض مغمى عليها فريسة نوبة مرعبة ...

خاتمة

كنا في منتصف حزيران ، الطقس حار وخانق ، والشمس تعكس اشعتها الذهبية على الارض ، حتى انه يستحيل على المرء ان يبقى في المدينة بين الغبار والهواء المسمم بالروائح الفاسدة . ولكن يا فرحتي ! هوذا الرعد يدوي ، والسماء تكتسي ثوبا رماديا قاتما ، والمطر يهطل بغزارة ، حتى اذا ما اشرقت الشمس من جديد فتحت النافذة لاستنشق الهواء النقي المنعش ، ففاضت نفسي نشوة ، وانتعش قلبي ، فاردت ان ادع قلمي وامضي الى اصدقائي ... ولكنني ما استطعت فعدت الى اوراقي مقهورا لاكمل روايتي مهما كلف الامر . فالناشر ينتظر بفارغ الصبر الرواية . وانحنيت على روايتي انجزها بملء ارادتي ، وعندما هممت بالوقوف لم استطع واكاد لا اقوى على ذلك . وشعرت بصداع في رأسي ، وخارت قواي واصطكت ساقاي ولكن الرواية بعثت في الامل فجمعت شتات نفسي وجسمي وخرجت متجها الى الناشر ...

ولما وصلت اليه استقبلني بابتسامة لطيفة ، وتقدم مني وقدم الي مجلة مناوئة لمجلته ، فاذا بي المح بعض المقاطع من مقالتي قد نسختها المجلة

ولم تحضر منذ يومين ا•••

ـ الم اقل لك انني لا استطيع الحضور الا بعد يومين ؟ لان ثمة عملا كان علي ان انجزه !!

ـ ولكنك وعدتنا بان تمشي معنا اليوم ؟ وقد انتظرناك •••• حتى ان نالي المسكينة نهضت من فراشها وهي تقول : « اريد ان انتظر معكم فانيا » ••• ولكن فانيا العزيز لم يظهر ! ايـن كنت ايها الغاوي ؟ ايـن كنـت تتسكع ؟

آه منكم ••• آه !

ـ اين هو العم اخمنيف ؟

ـ نزل الى المدينة وسيعود بعد قليل •

ـ لمـاذا ؟

ـ لقد عرض عليه عمل •

ـ واين « ناتاشا »

ـ في الحديقة • لا اعرف ، انها غريبة ، تؤكـد لي انها مسرورة ، فاجدها على نقيض ذلك ••• آه يا فانيا ما اشد عذابي •• اذهب اليها لعل بها سرا تريد ان تخبرك عنه ! اذهب اليها ••• فهرعت الى الحديقة دون ان تكمل آنا اندرفنيا كلامها ، فاذا بناتاشا تقبل نحوي مبتسمة مادة يدهـا الـي •••

آه ما اشد هزالها وشحوبها ، انها مريضة حقا •••• وبادرتني قائلة :

المناوئة وهي تشجعني علـى مقالتي وتهنئنـي عليها ووصفت هـذه المقالة بان « رائحة العرق » تفوح منها . ومعنى ذلك انني اجهد نفسي واتعب في سبيل انجازها .

قدمت له الرواية ،واخبرته بانه لم يعد هناك من شاغل يشغلني وعندما علم انني قد اتممت روايتي في مدة يومين دهش وقال :

ـ كيف ذلك ؟ يومين فقط لكتابة رواية ؟

وشعرت بالفرحة تسيطر عليه ، وزلت ابتسامة لطيفة من ثغره ، تناول الروايه واعطاني خمسين روبلا بالرغم من انني مدين له بمبلغ كبير . ثم اخبرني بان مقالتي ستنشر في مطلع الاسبوع القادم ، وعندما حاولت الانصراف الى اصدقائي (عائلة اخمنيف) استوقفني قائلا :

ـ الى اين وجهتك ؟

ـ الى « فاسيلي اوستروف » .

ـ ساوصلك بعربتي . الا تعـرف انني قد اشتريت عربـة جديدة ؟

وقادني اليها ثم صعدنا كلانا .

ولما وصلنا الى شارع « فاسيلي اوستروف » انزلني فاتجهت الـى منزل اخمنيف وما ان تقدمت من الباب حتى رأتني آنذرتفيا فلوحت الي بالا احدث ضجة تثير الانتباه وسرعان ما همست قائلة :

ـ ان نللي المسكينة نائمة ، اناشدك الله ان لا توقظها ، فنحن قلقون عليها ، انما الطبيب اخبرنا بانه لا خطر عليها الان ... ثم استطردت :

ـ الا تخجل من نفسك ؟ الا تستحي يا فانيا ؟ لقد دعيناك الى العشاء

هل انجزت عملك يا فانيا ؟

ـ اجل . وانا الليلة حر تماما .

ـ حمدا لله ، وهل تعجلت في الكتابة ؟

ـ اجل .

ـ أو لم يسيء هذا التعجل الى المقالة ؟

ـ ما حيلتي ؟ على كل حال لا ضير ! فانا كلما توترت اعصابي يكون احساسي اعنف واعمق واكون سيد اسلوبي ... وخاصة ان التوتر النفسي يحسن كتابتي ...

لقد لاحظت « ناتاشا » في المدة الاخيرة تهتم بي كثيرا ، فهي لم تدع مقالة لي الا وقرأتها ، واصبحت شديدة الاحتفال بما احققه من نجاح ادبي وبما اصيب من شهرة ... واخذت تحدثني عن الكتاب وحياتهم القاسية المعذبة الشقية . فقلت لها :

ـ ليس هذا كله الا سخافات دعينا من هذا كله والان هل من جديد ؟

ـ اجل . رسالة منه .

ـ رسالة ايضا ؟

ـ نعم .

ومدت الي الرسالة ، وهي الثالثة منذ أن افترقا . واما الاولى فقد كتبها كمن يبدو في حالة عصبية ويقول فيها ان ثمة ظروفا قاهرة منعته من

العودة الى « بطرسبرج » ثم يضيف : ولكن اعلمي « يا ناتاشا » انه ما من قوة تمنعني من العودة والزواج منك وان هذا قد تقرر نهائيا ..

كان واضحا في رسالته انه يائس ويشك في نفسه ، ويرزح تحت عبء تأثيرات خارجية .

اسرعت وفضضت الرسالة الثالثة فاذا بها مؤلفة من صفحتين كتبتا بخط مشوش يكاد لا يقرأ .... وعليها بقع حبر ودموع . كانت البداية تعبر عما في النهاية ، فهو يعدل عن « ناتاشا » ويطلب منها ان تنساه ، ويحاول ان يبرهن ان زواجهما مستحيل ، وان هناك مؤثرات خارجية معادية اقوى من كل شيء ، الا انه لم يستمر على هذه النغمة وهذا المنوال بل يترك براهينه ونظرياته ، ويتابع كلامه بانه مجرم في حقها ، وانه طفل لا ارادة له ولا يملك من القوة ما يقاوم به ارادة ابيه الذي وصل اليهم منذ مدة ثم يرسم فجأة صورة السعادة التي يمكن ان تتم له لو تزوجا ، وفي النهاية يلعن نفسه ويشتمها لما يتصف به من الجبن ... ويودعها الى الابد ..

كان يبدو لي ان هذه الرسالة كانت عذابا اليما له ، وكان واضحا انه كان خارجا عن طوره حين كتبها .

ولم استطع السيطرة على نفسي ولم اقدر على كبح جماح عاطفتي ، فاغرورقت عيناي بالدموع ومدت الي ناتاشا رسالة من كاترين كانت قد وصلت في ظرف واحد مع رسالة اليوشا وفيها تصف كاترين حالة اليوشا وما به من عذاب وآلام ولكنها تتعهد اخيرا بان تكون له المخلصة

وتحاول اسعاده بكل ما اوتيت به من قوة ...

اعدت الرسالة الى « ناتاشا » وتبادلنا النظر بصمت . وهذا ما حدث للرسالة الثانية والاولى . فكأنما قد اتفقنا على ان الحديث عن الماضي وذكرياته القاسية المثيرة .

لقد عرفت انها تحبني حبا لا حد له وانها لا تستطيع ان تعيش بدوني ، لا تستطيع العيش دون ان يستبد بها القلق على كل ما يتصل بي من امور . يقيني انه ما من اخت تحب اخاها كما احبتني « ناتاشا » ولكن يا لهول الفاجعة ، فقد كنت اعرف اننا سنفترق قريبا عندما يجد والدها عملا ، ولا بد ان هذا الفراق سيسحق قلبها سحقا ، وكانت هي ايضا تعلم انني لا استطيع العيش بدونها ، وطردت هذه الافكار القاسية من فكري وسألتها عن « اخميتيف » فاجابتني :

ــ لا بد انه عائد الآن . فقد وعد بأن يعود في موعد الشاي .

ــ الا يزال يقوم بمساع للحصول على هذا العمل ؟

ــ اجل . ولا شك انه سيحصل عليه .

ــ فانيا ... هذا هو ابي قد عاد . فلنعد اذن .

ذلك ما قالته ناتاشا بعدان سمعت صوت ابيها ، وما كاد اخميتيف يجتاز العتبة حتى اخذ يتكلم بصوت عال على عادته ، فلوحت له آندرتيفا بذراعها فما لبث ان هدأ وما ان شاهدنا انا وناتاشا حتى بادرنا بالحديث عن نتيجة مسعيه للحصول على ذلك المركز ، واخبرنا انه قد ضمن له وهو سعيد كل السعادة . وقال وهو يفرك يديه :

ـ باستطاعتنا ان نسافر بعد خمسة عشر يوما •

فاجابته ناتاشا بابتسامة فرحة وقبلته :

ـ فلنسافر ••• فلنسافر يا اعزائي • لا تشق وتصعب علي مفارقة احد غيرك يا فانيا ••••

فتبددت شكوك اخمنيف فورا • وقال العجوز عبارة اخيرة وهو ينظر الى ابنته :

ـ ما العمل ؟ ان فراقك يحز في قلبي يا فانيا ، ولكن اعتقد ان مكان الاقامة والسفر الى بلد اخر سيعيد الينا الحياة من جديد ، ويرجع كل شيء الى مجراه •••

يجب ان الفت نظر القارىء الى ان العجوز اخمنيف لم يحاول مرة ان يدعوني للسفر معه ، وانما لم يحاول ذلك لانه لم يكن يعلم بحبي لناتاشا •

وقالت آندرفيا ؟

ـ ونللي ؟

ـ نللي ؟ انها مريضة الآن ، ولكنها ستشفى قبل السفر وسنأخذها معنا • كيف حالها الان ؟ هل نامت نوما هادئا ؟

ثم اضاف :

ـ او لم تستيقظ بعد ؟ سارى •••

فلوحت له آرتدنفيا بالعدول ولكنه اجابها :

ـ لا تخافي .. لا تقلقي .. سانظر اليها فقط ... لن اوقظها ..

واستيقظت نللي بعد مدة قصيرة ، وما هي الا ربع ساعة حتى انضم الينا الطبيب العجوز ، وماسلوبويف اللذان اصبحا من خيرة الاصدقاء لعائلة اخميتيف . كان ماسلوبويف قد حمل معه هدية من الازهار لنللي ، فسرت بها كثيرا ، وكانت تتأمل الازهار التي وضعت في آنية بجانبها . قال العجوز :

ـ انت تحبين الازهار يا نللي ، اليس كذلك ؟

ـ اجل .

ـ سترين غدا ... سترين !

ثم شرعت نللي بالحديث عن حبها الجامح للازهار وكيف انها قدمت ذات مرة ورودا لوالدتها ... ثم استرسلت بالحديث عن حياتها بالتفصيل وعن زياراتها للبلاد الاجنبية ، وعن مشاهدتها للاثار : تصف قبة كنيسة ، تحدثنا عن عادات البلاد التي زارتها ، وعن الجبال المكللة بالثلوج والوديان والانهار ، وعن الحوادث التي حصلت لهم ، وعن الاشخاص الذين لقوهم . كنا نصغي اليها بشغف وبانتباه ، اذ انها لم تقص علينا ذكرياتها قبل اليوم بمثل هذا التفصيل . كنا لا نفقه من ذكرياتها ، الا الحياة الشقية ، وتلك التي بقيت لها من مدينة مظلمة كالحة ، ذات قصور موسخة قذرة ، وشمس بخيلة ، وسكان اشرار اشباه مجانين ، كنا لا نعرف من ذكرياتها الا عن هذه المدينة التي

تعذبت فيها وتألمت هي وامها . واستعرضت ذكرياتها القاسية ، وتصورتها قابعتين في القبو ، ذات مساء مظلم مرعب ، وقد تشبثت الواحدة بالاخرى، وتذكرت تللي وحيدة بلا ام ، عند مدام بونيوفنا التـي تريـد بالضرب والصفع ان تجهز عليها وتكرهها على تعاطي الاعمال الشنيعة ...

وساءت حالة تللي وامتقع لونها فحملتها الى السرير ، وانتابتها نوبة اغماء . فندم العجوز كثيرا على تركها تسرد لنا هذه الذكريات الطويلة ... وبعد ما استيقظت من اغمائها طلبت مني أن تحدثني على انفراد ، والحت على الآخرين بالخروج . وبقيت معها وحدي فقالت لي :

ــ فانيا . انهم يظنون انني سأسافر معهم ولكنني لن اسافر ابدا ، وسابقى معك . هذا ما اردت ان اقوله لك .

فاخذت اقنعها بضرورة السفر معهم لانهم يحبونها كثيرا وسيتألموا جميعا ، وانهم يعدونها ابنة لهم ، وان الحياة ستكون صعبة ، شاقة معي ، وعلينا ان نفترق رغم كل ما نحمله من عاطفة الواحد تجاه الاخر . فاجابتني بلهجـة حازمـة .

ــ لا . لا مستحيل . انني ارى امي في المنام كثيرا ، وهي تحثني على ان لا اذهب معهم ، وتلومني على تركي جدي وحده ، وتطلب مني ان ابقى هنا وهي تقول ذلك باكيـة .

ثـم تابعـت :

ــ اريد ان ابقى هنا ، اريد ان ابقى هنا لاعتني بجدي .

فقلت مندهشا :

ـ ولكنك تعلمين ان جدك قد مات .

فسرحت بافكارها وشردت في ذهنها ثم قالت :

ـ حدثني من جديد كيف مات جدي .

فندهت لهذا الطلب ولكنني رويت لها القصة تفصيلا ، فكانت تنتبه الي كثيرا ، وقد لاحظت في عينيها السوداوين الملتمعتين بريق المرض والحمى ، وكانت الغرفة قد اظلمت فقالت لي :

ـ لا فانيا ـ انه لم يمت . ان امي ما تنفك تحدثني عن جدي ، وحين اخبرتها امس بان جدي قد مات حزنت كثيرا وقالت ان هذا غير صحيح ، وانه انما قيل لي ذلك عمدا ، وان جدي حيا يرزق ، يتسول الى المارة ويستجدي الناس ، انه يعود الى المكان الذي لقيناه فيه اول مرة ...

قلت لها :

ـ نللي انه حلم . اجل . انه حلم .

ثم اضفت :

ـ انه حلم مريض ... انك ما زلت مريضة !

ـ انا ايضا قلت ذلك في نفسي ، ولكن جدي جاء الي حينما نمت ، واخبرني وقال لي انه لم ياكل منذ يومين ، وان لفائف التبغ قد نفدت وهو لا يقدر على العيش بدونها ، وغضب مني وانحنى علي باللائمة واخذ

يقرعني تقريعا شديدا . وعندما سمعت ذلك ، قلت لنفسي انه يجب ان اذهب الى الجسر واطلب الصدقة ، وشعرت بانني فعلا قد ذهبت وجمعت بعض النقود ، فجاء الي وقال : هذا للخبز ، اذهبي واجمعي ثمن التبغ ففعلت ما امرلي به واخذ ما جمعته . والاغرب من ذلك انه اتهمني بسرقة خمسة كوبيكات وقال : انك سارقة ، اجل فقد اخبرتني مدام يوتيوفنا بذلك ، فاخذت ابكي لانه لم يصدقني ، فتقدم مني وصفعني ثم اشبعني ركلا وضربا موجعا . لذلك انا اعتقد انه ما زال حيا وهو يتجول في مكان ما ويدور حولي .. وانه ينتظرني ...

واحاطتني بذراعيها وقالت لـي :

ـ وان كان جدي ما زال حيا ، فلن اتركك وسابقى معك الى الابد.

وعندما قصصت على الطبيب احلام الطفلة همسا ، وسالته عما يظن في مرضها قـال :

ـ هذا ما احاول معرفته . حتى الان لم اعرف شيئا . غير ان هذه الفتاة المسكينة ستموت حتما ، وقد اوصيتني بالا اتكلم امامهم وعملت بوصيتك ، مسكينة هذه البنية ، انني اشفق عليها كأنها ابنتي .. ما الطفها ما اودعها ! ما انبلها ... وافصح اخنيف عن فكرة تراوده وقال :

ـ ساذهب واحضر ازهارا لنللي وازين لها الغرفة ، انها تحب الازهار اجل وهي بنفسها قالت ذلك . وتناول قبعته وهو يقول :

ـ اسمع يا فانيا ، بما انك قد انجزت عملك ، فما عليك الا ان تبقى عندنا ، فالغرفة التي تحت السقف ما زالت خالية وما زال السرير فيها ،

أموافق ؟ هل تقضي الليلة هنا ؟

وكان للعجوز ما اراد ، وقررت ان ابيت الليلة عندهم . وبينما كان ماسلوبويف يخرج حاول ان ينطق بشيء الا انه كما ظهر ارجأ ذلك الى غد . ولكم كانت دهشتي حين اوجدت ماسلوبويف قد سبقني الى غرفتي وقال لي :

ـ اسمع يا فانيا . انما عدت ادراجي لانني اريد ان افضي لك بأمر خطير . انها قصة غبية ومؤسفة .

ـ ما هو الامر!

ـ صاحبك الامير .

ـ الامير ؟ اما زلت على صلة به ؟

ـ لا . ابدا .

ـ اذن ماذا ؟

ـ لقد وقفت على سر خطير ، او اشبه ما يكون بسر ... او قل انني لم اقف على سر .. ولكنني استنتجت من بعض الامور ان نللي .. ربما ... كانت .. الابنة الشرعية للامير ..

قال ذلك بكلام متقطع وقد اطرق مفكرا .

ـ ماذا ؟ ماذا تقول ؟

ـ أجل . هذا مااستنتجته ، فقد عهد الامير الي بأن اراقب له والدة

تللي من كثب ، وكما قيل ، انه هرب معها بعد ان سرقت المال لوالدها سميث ، وكانت تحبه كثيرا ، وسافرا الى سويسرا حيث انجبت تللي • ثم سرق الامير مالها وتركها بعد ان وضع عليها مراقبين • والواقع ان المراقبين ارسلوا رسالة للامير يخبرونه فيها ان والدة تللي ما زالت في سويسرا ، الا ان ذلك كان خطأ • فقد سافرت والدة تللي الى بطرسبرج بصحبة « هنري » ، وقد تشابهت عليهم مع امرأة اخرى • كان كل يوم يمر وشكوكي بالامير تزداد ، وكان يضطرب كلما شاهدني ويذعر كلما رآني• وقد تساءلت عن ذلك : ما الذي يخشاه هذا الامير ؟ لقد انتزع ابنة من ابيها ، ثم حملت ، ثم هجرها ••• اي غرابة في ذلك ؟ مما يخاف ؟ انها شطارة لا اكثر ولا اقل !••• ان انسانا كالامير لا يمكن ان يضطرب لاتفه الاسباب ! آه • لا بد ان ثمة امرا خطيرا • وهكذا راودتني الشكوك ومضيت ابحث عن البراهين والادلة ، فاهتديت الى آثار مهمة ترجع الى هنري : فقد عثرت في رسائل قد بعثها هنري الى قريبة له على اوراق ثبوتية ، انه قد تزوج ابنة سميث بعد ان سرقت ماله • ولكن كيف تم الزواج ؟ واين ؟ فهذا ما ابحث عنه وانشده ••• ولكم كان اسفي حين بحثت ليل نهار فلم اعثر على شيء البتة ••• واخيرا اكتشفت سميث ولكني لم استطع الوصول اليه الا بعد ان قضى نحبه •••

وسألته قائلا :

ـ اسمع يا ماسلوبويف • هل تعرف تللي •••

ـ مـــاذا ؟

ـ انها ابنة الأمير ؟

ـ ليس ذلك بمهم . فالاهم من ذلك هو ان نللي ليست ابنة الامير فحسب ، بل ابنته الشرعية ايضا .

ـ مستحيل ! هــذا مستحيــل .

ـ هذا ما اعتقدته في اول الامر ، ولكن الواقع اغلب الظن هـــو الواقع .

ـ لا يا ماسلوبوييف ... لا يذهبن بحلمك الشك ... كيف يطيب لامها ان تتحمل ذلك المصير القاسي الذي عاشته في بطرسبرج ؟ وكيــف لها ان تترك ابنها على هذه الحالة ؟ لو كانت تملك اي دليل لما بقيت علــى ما كانت عليه من الذل والاحتقار ! هذا مستحيل ...

ـ لقد خطر ببالي ذلك ، وما زالت الشكوك تراودني حتى الآن .

ومما لا ريب فيه ان والدة نللي كانت امرأة مجنونة لا تضارعها في جنونها امرأة . تذكر يا فانيا ما قالته لابنتها نللي وهي على فراش الموت : لا تذهبي اليهم ، اعملي ، اتعبي ، واهلكي ، اجهدي وتسولي ، ولكــن لا تذهبي اليهم ، كائنا من كان الشخص الذي يدعوك » . لقد امدتني نللــي بمعلومات هامة وما زلت استمد منها ، وعرفت ان والدتها كانت مصابــة بداء السل ، الذي يجعل المريض شديد التأذي ويولد فيه جميع انواع السخط واليقظة والحنق .

ثم انني قد علمت من اشبينة مدام بوبنوفنا ان والدة نللي كتبــت

رسالة الى الامير نفسه !

ـ صحيـح ؟

ـ اجـل .

ـ وهل وصلـت ؟

ـ لا اعرف ان كانت قد وصلت ام لا .

ـ آه . تذكرت . لقد حدثني اليوشا عن رسالة سرية كثيرا ..

فصرخت قائلا :

كان ذلك منذ شهرين او ثلاثة تقريبا .. ولكن ما أنت صانع بالامير ؟

ـ اسمع يا فانيا . اني متأكد ومتيقن في قرارة نفسي . ولكـن اين البراهين ؟

ليس ثمة امر قاطع . ان الموقف لحرج ، ويتطلب بعض التحريـات في الخارج وبعض النشاطات في الداخل .

ثـم تابـع :

ـ هل تعرف انه سيتزوج ؟

ـ لا .

ـ اجل . انه سيتزوج قريبا ، في السنة القادمة ، حيث انه اختـار خطيبة منذ سنة ، وهي ما تزال في « المريلة » . انها ابنة جنرال تملك مالا ولا يمكن لنا انا وانت ان نتزوج كهذا الزواج ابدا .

وعلمت ان ابويها مفتونان بالخطبة . ولكن الشيء الوحيد الـذي لا اغفره له هو انني قد وقعت في احابيله منذ مدة قصيرة ... يا له مـن وغد حقير .

ـ ولكن كيف كان ذلك ؟

ـ اجل . فقد علم بعجزي وبانني لا املك شيئا فاعطاني الفي روبل

ـ الفـي روبل ؟

ـ نعم . الفا روبل . قبضتها وانا اشد على اسناني من فرط حنقي .

ناولني المال وهو يقول : لقد انتهت مهمتك الان يا صديقي ..

كان واضحا انه يسخر مني ويهزء بي ، وقد قرأت في عينيه : انمـا اعطيتك المال رأفة بك ايها الغبي .

ـ ولكن ما العمل ؟ كان عليه ان يؤمن مصير ليللي ...

ـ ساجبـره على ذلك .

ـ وكيف ؟

ـ لا اعرف . بتخويفه ! ولكن كيف تريد ان تخوفه ؟

مضيت يائسا :

ـ هل يمكن ان تكون ورقة ليللي خاسرة ؟

فهتف ماسلوبويف وهو يرتعش من قمة رأسه الى اخمص قدميه :

ـ مستحيل . لن ادع الامور تجري هكذا . لا استطيع احتمال ذلك ابدا .. سأعمل من اجلها ، وهي ستساعدني ، وهي التي ستحل العقدة . انني مقتنع بأنها تعرف كل شيء . لا بد ان والدتها اخبرتها القصة ... هل فهمت لماذا احوم هنا ؟ هل عرفت لماذا احضر الى هنا ؟

اولا لانني صديقا لك وثانيا لا لاحظ نللي ، وثالثا لانك لك سلطانا عليها وستساعدني شئت ام ابيت .

ـ حتما سأساعدك . اقسم لك بذلك .

ثم اخذ يدمدم قائلا :

ـ لا يخطرن ببال ذلك الوعد ان يهين الفقراء ! فانا فقير وعلي ان لا اوفر حقيرا كهذا الحقير ..

ولم ينجح عيد الازهار لان نللي لن تستطع الخروج من الغرفة وماتت بعد مدة خمسة عشر يوما .

وقبل ان تموت بمدة قصيرة ، انحنت علي وتناولت يدي بيدها الهزيلة المحترقة بالحمى ، وقالت لي :

ـ حين اموت يافانيا تزوج ناتاشا .

ثم قبلتني ونظرت الي نظرة متخابثة .

وقبل ثلاثة ايام من موتها امرت بازاحة الستار وفتح النافذة على الحديقة ، ونظرت طويلا الى الخضرة الكثيفة فكأنما بها تودع الحياة ، ثم

طلبت على حين غرة ان يتركونا وحدنا .

وعندما اصبحنا وحيدين ، قالت لي بصوت ضعيف :

ـ يا فانيا ـ سأموت قريبا . واطلب منك ان لا تسألني ، واناشدك المغفرة ان كنت قد اذنبت . وهذا ما سأتركه لك على سبيل الذكرى . ثم ناولتني كيسا كان في عنقها وقالت :

ـ لقد اعطتني اياه امي وهي تموت . خذه لك وستقرأ ما فيه .

اذا ما قرأته ، فاذهب اليه وقل له انني مت ، ولم اغفر له . اخبره انني قد قرأت الانجيل وفيه يقول المسيح : « اغفروا حتى لاعدائكم » .

ورغم ذلك لم اغفر له . واخبره ان الكلمات التي نطقت بها والدتي قبل ان تموت هي : « انني العنه » . وانا ايضا العنه لا من اجلي . بل من اجل والدتي . اذكر له كيف ماتت ، وكيف تعذبت ، اخبره انني فضلت البقاء عند بونيوفنا على ان اذهب اليه ، افضي له بكل شيء ... بكل شيء ...

قالت نللي ذلك وقد اصفرت اصفرارا ما بعده اصفرار ، واخذ قلبها يخفق خفقانا قويا ، وهوت على الوسائد لا تلوي على شيء .

وقالت اخيرا :

ـ نادهم يا فانيا ! نادهم ! اريد ان اودعم جميعا قبل ان اموت ودا ... وداعا يا فانيا !

وشدتني بذراعيها بقوة ؛ كانت الاخيرة الابدية . ودخل الجميع علينا . وكان العجوز لا يصدق انها ستموت ، وكثيرا ما تشاجرنا من اجل ذلك وكان يقول دائما : انها ستشفى لا محالة . وكان يقضي اياما برمتها بجانبها وفي الليالي الاخيرة لم يغمض له جفن ولم يهدأ له بال . كان يسارع الى تنفيذ ايسر نزوة من نزواتها وانفه رغبة من رغباتها . وكان اذا ما خرج من عندها يبكي بكاء مرا ...

وفي ذلك المساء ، حين دعتنا نللي ، وودعتنا فيه ، لم يشأ العجوز اخمنيف ان يكون ذلك هو الوداع الاخير ، وحاولت نللي طوال السهرة ان تكون مرحة فرحة ، فكثيرا ما ضحكت ، وكثيرا ما ابتسمت ، فكانت تمازح هذا ... وتضحك من ذاك ... وحينما تركناها كان قد انبعث فينا بعض الامل ، وتحرك شيء من الرجاء ، ولكن يا للأسف .. لقد اصبحت في الصباح عاجزة عن الحركة والكلام ، وماتت بعد يومين ...

ماتت نللي ... وماتت معها الحياة في البيت .. فهذا هو العجوز ما زال يزين تابوتها بالازهار ، وينظر اليها بحزن شديد والى وجهها الذي لا حياة فيه ، وقد هده اليأس و .. لقد بكاها ما بعده بكاء .... بكاها ليل نهار .. صبح مساء .. كما يبكي ابنته ... بكاها كل ما في البيت من بشر والناس .. لقد توقف العصفور عن التغريد حزنا عليها .. وتساقط الورق عن الشجر تقديسا لروحها .. وحاولت انا وناتاشا ان نواسيه ولكن لم يكن ثمة سبيل الى مواساته ، ومرض بعد موتها مرضا خطيرا . اعطتني آندرتفيا الكيس الذي انتزعته من عنق نللي ، فاذا

به رسالة من والدة تللي الى الامير تلعنه فيها وتسخط عليه ، وتقول له انها لا تستطيع ان تغفر له وتتوسل اليه ان يعمل شيئا من اجل تللي وتقول: هي ابنتك ، ابنتك وانت تعلم حقا انها ابنتك ، لقد قلت لها ان تذهب اغفر لك هناك ... في العالم الاخر ، يوم الحساب الكبير ، حيث يحاسب اليك بعد موتي وان تعطيك هذه الرسالة ، فاذا لم تطردها غفرت لك ... الكبير والصغير على ما اقترفت يداها . سأقف يومئذ امام عرش الله عز وجل ... اتوسل الى عدالته الالهية ، واطلب منه المغفرة لك .... ولا تحسبن ان تللي لا تعرف ما في داخل الرسالة ، بل لقد قصصت عليها كل شيء .... »

الا ان تللي لم تعمل بوصية امها ، وماتت دون ان تصالح الامير ...

وحين دفنا تللي ، وفرغنا من ذلك ، هرعت انا وناتاشا الى الحديقة . وألقيت نظرة طويلة اليها ، نظرة الوداع ، لانهم سيسافرون بعد اسبوع وقالت لي :

ـ فانيا ! لا بد ان ما جرى كان كله حلما ، اليس كذلك ؟

فاجبت مندهشا :

ـ ما الذي كان حلما ؟

ورمقتني بنظرة عميقة ثم صمتت .

وقرأت في عينيها : « يا له من شقاء وعذاب ، كان يمكن ان نسعد معا الى الابد » .

انتهى

المؤلف



نشأ "دوستيوفسكي" في أسرة فقيرة، وبالرغم من اعتلال صحته منذ طفولته المبكرة، فقد واصل دراسته الى أن تخرج في كلية الهندسة.

ولم يكد يتم دراسته حتى تحول الى الأدب وشغف بكتابة القصة. نشر روايته هذه بإحدى الصحف الكبرى فلاقت تقديراً عظيماً لدى القراء. وتتميز رواياته بالبراعة في تحليل الشخصيات ووصف دخائل النفوس البشرية وصفاً صادقاً دقيقاً...

الثمن ٥ ل.ل.

٦٠٠ فلس عراقي

٦٠٠ قرش سوري